

# قَطُوفٌ مِنْ الْمَهِينِ الرَّائِقِ

فِي سِيرَةِ خَيْرِ الْخَلَائِقِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

دراسات تحليلية في السيرة النبوية

إعداد وتأليف الدكتور

سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ بْنِ صَوَابِ بْنِ

أستاذ الحديث الشريف وعلومه

كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

الطبعة السادسة

٢٠١٨/هـ ١٤٣٩ م

حقوق الطبع والنشر

محفوظة للمؤلف

٢٠١٨ / ١٤٣٩ هـ

رقم الإيداع

بدار الكتب والوثائق المصرية

٢٠١٥ / ١٠٩٤٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وعصمنا من الضلالة، وعَلَّمنا بعد الجهالة، ومنَّ علينا بالتوفيق: والهداية إلى أقوم طريق، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين: سيدنا محمد الذي شرح الله له صدره، وحط عنه وزره، ورفع له ذكره، وأعلى مكانته، وعظَّم رتبته، وشَرَّف به أمته، فاللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا وحبيبنا... سيدنا محمد الذي عَمَّت قَوَاضِلُهُ، وكَثُرَتْ نَوَافِلُهُ، وعَظُمَتْ شَمَائِلُهُ، وعلى جميع آله وأصحابه الذين شهدوا أول الضياء، فاهتَدَوْا به ونالوا كل نَعْماء، والتابعين لهم بإيمانٍ وحُسن اقتداء، أما بعد:

فقد دُرِّست بحوث هذا الكتاب: (المَعِينُ الرَّائِقُ مِنْ سِيرَةِ خَيْرِ الْخَلَائِقِ ﷺ) - دراسات تحليلية في السيرة النبوية) لطلاب وطالبات جامعة الأزهر في: كليات أصول الدين والدعوة، والقرآن الكريم وقراءاته من عام ١٩٨٩م حتى طباعة هذه الطبعة السادسة، وقد اختزلتها في جزئين بدلا من أربعة، وسجَّلتُ ما لم أذكره في هذه الطبعة في كُتبي الأخرى المنشورة في الأحاديث الشريفة والدفاع عنها، وأضفت بحوثًا جديدة وتحقيقات كثيرة في السيرة العَظْرَةِ خلال هذه الطبعة الأخيرة تتعلق بالوقت المعاصر الذي نعيشه؛ حيث تنكَّر فيه الكثيرون لهذا الدين، وفشا فيه الجاهلون من أدعياء الدنيا وأصحاب الهوى وأذئاب السلطان... وعجز عن نصره هذا الدين علماءؤه، وبخل عليه أغنياءؤه، وخذله حكامه، وصار الدعاة الصادقون والعلماء المخلصون يلقون من البلاء والعنت ما الله به عليم.

وهذه الدراسة التحليلية للسيرة النبوية تجمع بين الغرس النافع والثمر الصالح المسقَّى بالوابل الصيب على ربوة بأرض طيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ

طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٦﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ  
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ [إبراهيم].

كما وشحنت هذه الطبعة ورصعت كثيرا من بحوثها بأبيات من أَرْجُوزَةِ الشيخ محمد بن سالم البيحاني العدني اليمنى المتوفى سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م، المنشورة في كتابه: (أشعة الأنوار على مرويات الأخبار في سيرة النبي المختار وآله الأبرار وصحابه الأخيار) نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، لوجازتها وسهولة ألفاظها؛ دون التزام بترتيب المؤلف لأبيات تلك الأرجوزة؛ مع التصرف اليسير الذي يوافق معتقد أهل السنة ولا يخل بالوزن أو القافية، وقد أنبه في هامش فرعى على بعض ما أستبدله من كلمات مخالفة: هكذا(\*)، وذلك في جزئي هذا الكتاب، قال رَحِمَهُ اللهُ في مطلع تلك الأرجوزة بعد حمد الله والثناء عليه:

وَفِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ الشَّافِي      ❀❀❀      قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ الْأَسْلَافِ  
وَقَصَّ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ      ❀❀❀      مِمَّا رَأَتْ أَوْلَمُ تَرَ الْعِيُونَ  
وَصَلَّى يَا رَبِّ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ      ❀❀❀      مِنْ قَارِيٍّ وَكَاتِبٍ وَوَاعِي

وإن السيرة النبوية بالرغم من اتساعها، وكثرة المصنِّفين فيها؛ لكنها يمكن جمعها في جملة واحدة مكونة من مبتدأ وخبر.

فالمبتدأ هو: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ باعتباره بشراً من ذرية آدم ونوح وإبراهيم، وهذا العلم قد ذكر صريحاً في القرآن الكريم أربع مرات، منها قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد].

(\*) ذكر في أكثر من بيت «المدينة المنورة» باسم: «يثرب» فأبدلتها بكلمة: «طَيِّبَة» للمعنى المذكور في هذا الجزء ص ٢٩٠.

كما أن هذا الاسم: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ هو الذي يتعين النطق به في شهادة الحق التي تجعل قائلها من جملة المسلمين، وبدهي أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هي الركن الأول في هذا الدين.

ثم هو ﷺ أسوتنا في سائر عباداتنا ومعاملاتنا كلها، ومثلنا الأعلى في جميع طرائق الحياة: عنه نأخذ، ومنه نتلقى، وبه نفتدي، لا نسبقه بقول ولا بعمل... فلا يجوز لأحد أن يستبدل في الأذان أو الإقامة أو الصلاة اسم النبي محمد باسم آخر له ﷺ حتى لو كان هذا الاسم: «أحمد» الذي ورد في القرآن الكريم على لسان عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَأَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفَعُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الصف].

أخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِي أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup>.

(١) البخاري: كتاب المناقب/ باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ٥٥٤/٦، ٥٥٥، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة الصف ٨/٦٤٠، ٦٤١، ومسلم (واللفظ له): كتاب الفضائل/ باب: في أسمائه ﷺ ٤/١٨٢٨، والترمذي: كتاب الأدب/ باب: ما جاء في أسماء النبي ﷺ ٥/١٣٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد ٤/٨٠، ٨٤، ومالك: كتاب أسماء النبي ﷺ ص ٦٢٠ مرسلًا، وهو آخر حديث في الموطأ.

وأما خبر ذاك المبتدأ ﴿مُحَمَّدٌ﴾ في تلك الجملة الاسمية المتقدمة فهو: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه الجملة المكتملة بركنيها هي التي افتتح الله سبحانه وتعالى بها الآية الأخيرة من السورة التي تلي سورة محمد في ترتيب المصحف: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

فالناس قد عرفوا محمداً ﷺ بشراً سوياً في حياته الأولى التي استمرت بينهم أربعين سنة، أما هو ﷺ عند ربه؛ فإنه لم يوجد إلا: لأداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، وإقامة هذا الدين في العالمين، فهو ﷺ خاتم النبيين، وقدوة المؤمنين في كل حركاته وسكناته، وسفره وإقامته، ونومه ويقظته، وعقيدته وشريعته، وعباداته ومعاملاته، وآدابه وأخلاقه... وجميع أحواله في فترة الرسالة التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً؛ لأنه ﷺ بشرٌ من الناس؛ قد فُطرَ على الأخلاق الفاضلة، والآداب السامية، وكفاهُ فخراً: وصفُ ربِّه له وثناؤه عليه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

إذاً: فهدفه ﷺ الأسمى هو: دعوة كافة المكلفين للامتثال بهذا الشرع والتزامهم به، ولعلنا نلاحظ ذلك في أسلوب الحصر والقصر من قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وكذلك الإخبارُ الوارد في قوله تبارك اسمه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فالإسلام هو الهدف الذي أرسل من أجله خاتم النبيين، والغاية التي بُعث لتحقيقها ونشرها في العالمين، وهذا واضح في القرآن الكريم: المكي منه والمدني على السواء، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨١) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ [سورة ص] وهي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب النزول وترتيب المصحف الشريف.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وقد ورد هذا الجزء من الآية الكريمة ثلاث مرات في سور هي من أواخر سور القرآن نزولاً بالمدينة [٣٣: التوبة] وهي السورة الثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، و[٢٨: الفتح] وهي السورة الحادية عشرة بعد المئة، و[٩: الصف] وهي السورة التاسعة بعد المئة نزولاً على النبي ﷺ.

وقد آثرت أن أكتب سيرته ﷺ التحليلية من الكتاب والسنة على هيئة بحوث مترابطة، تبدأ بتحقيق النظر في مراحل حياته ﷺ الواحدة تلو الأخرى؛ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة: مع التحليل والتمحيص.

ومن ثمّ: بدأنا هذه الدراسة التحليلية للسيرة النبوية بالإشارة إلى ما ورد في حقه ﷺ في عالم الغيب؛ منذ أن أخذ الله عز وجل الميثاق على النبيين: أن يؤمنوا به وأن ينصروه إذا أدركوا بعثته وحياته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٤٨﴾ [آل عمران].

ثم تابعنا مراحل حياته ﷺ في عالم الشهادة من المولد والنشأة والكدر والبعثة والهجرة؛ وتأسيس الدولة وقيادة الأمة والمعاملة مع الغير، والإشارة إلى الغزوات التي تكفل القرآن بتفصيل أحداثها: كغزوة بدر في سورة الأنفال، وغزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة الخندق وبنى قريظة في سورة الأحزاب، وصلاح الحديبية وفتح خيبر وفتح مكة في سورة الفتح، وغزوة تبوك في سورة التوبة، وكثيراً ما يضيف تفصيلات دقيقة كحديثه عن أموال العير التي نجاها أبو

سفيان؛ حين أرصدها المشركون لحرب النبي ﷺ وأصحابه في يوم أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْشَرُونَ ۗ﴾ [الأنفال].

وكذلك التذكير بإمداد الله ونصره في يوم بدر؛ في معرض الحديث عن غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران].

وعند عرض وقائع وأحداث السيرة النبوية الشريفة: راعت قدر الوسع والطاقة؛ الترابط الفكري بين أجزاء كل موضوع، فضلاً عن التناسق بين موضوعات البحث الواحد؛ حتى تظهر فائدة الوحدة الموضوعية والتاريخية في فهم أحداث السيرة النبوية دون إغفالٍ لتحليل أجزائها المكوّنة لها والمتعلقة بها.. وذلك كله في جزئين اثنين طبق المنهج الجديد للكليات النظرية بجامعة الأزهر.

وهناك بحوث أسهنا في سردها نوعاً ما: سيطالها كل متأمل في هذا الكتاب، ليتأكد لدى كل منصفٍ: أن حياته ﷺ كلها كانت خالصةً لله؛ يُبَلِّغُ شُرْعَهُ وَيُعَلِّمُهُ لِلنَّاسِ، ويجاهد ﷺ في تربيته للأصحاب، وإعداد الخلفاء من بعده لتحمل تلك الأمانة والقيام بهذا الواجب، ومن تأمل الفهرس العام لكل جزء من هذين الجزئين عرف ذلك بلا ريب.

فعلى سبيل المثال: استفدنا من سيرته ﷺ في هذه البحوث التي تضمنها هذا الكتاب: أن سيرته ﷺ بدأت قبل خلق آدم بالميثاق الذي أخذه الله على النبيين وهم في عالم الغيب، وظهر ذلك على ألسنتهم بالتبشير به ﷺ بما ورد فيما أنزل عليهم من صحفٍ وكتبٍ، ثم تابعت سيرته ﷺ بإعداد الله له وصيانته عن كل ما يستقبح واصطفائه ﷺ ليكون خاتماً للنبيين ورحمةً للعالمين.



ثم عرفنا: كيف أنه ﷺ قد أودى في إقامة الدين بما لم يؤذ به أحد؛ حتى خرج من مكة عدة مرات توقيًا من إيذاء المشركين! وكذلك كان أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعذبون ويؤذون؛ حتى هاجروا أكثر من مرة إلى الحبشة، وصبروا على الحصار والاضطهاد في مكة، إلى أن أكرمهم الله عز وجل باختياره المدينة المنورة دارًا لهم يهاجرون إليها ويستقرون بها... وهكذا: كانت حياته ﷺ خالصة لله؛ يُبَلِّغُ شَرْعَهُ وَيُعَلِّمُهُ لِلنَّاسِ، ويجاهد ﷺ في بنائه للأمة وإرسائه للدولة، وإعداده ﷺ خلفاءه من بعده لتحمل تلك الأمانة والقيام بهذا الواجب.

ويضاف إلى ذلك: البحوث المتخصصة في تحقيق المسائل المتشابكة؛ مع القول الفصل في كل منها.

وأخاطب كلَّ مُحِبٍّ لرسول الله ﷺ قائلاً: إن كنت من أحبابه: فانصره بِاتِّبَاعِهِ، ولا تحف عليه من اعتداء المجرمين لقول الله له: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر].

فنيبك رفيع المقام عند ذى الجلال والإكرام، ولو وُكِّل الأمر لنا كأفراد في الدفاع عن نبينا: لضحينا بأرواحنا، وانتقمنا ممن تطاول على نبينا بكل صارم مسلول على شاتم الرسول؛ لكننا ننصره ﷺ في أنفسنا ومجتمعاتنا بإحياء سنته، والافتداء بسيرته وإحسان التأسي به في كل مجالات الحياة، فمن الناس من آمن بالرسول النبي الأمي واتبع نهجه: فوجبت له السعادة في الحياتين، وتحقق له الفلاح في الدارين: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة] إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف]... فهؤلاء حقًا هم الفائزون الذين يتبعون رضوان الله

وصراطه وسبيله وهدية وأنبياءه وما صدر عنهم من حق في العسر واليسر والمنشط والمكره (ب).  
ومن الناس أصناف كثيرة تنكبت الصراط السوي (ج)، وأعرضت عن ذلك كله، وباءت  
بسخط الله، واتبعت الباطل والشیطان والشهوات وكل جبار عنيد (د).

ولا ينس المؤمن أن الله عز وجل توعد مبغض نبيه ﷺ وبشر. لامزه وشانته: بالخزي  
والذل والرغام وسوء الختام والعذاب الأليم المهين من الله شديد الانتقام والطرده من رحمته في  
الدنيا والآخرة وتصليته سقر والجحيم (ه).

وبهذا يكون رسول الله ﷺ حياً بيننا بسنته وشريعته، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ  
رَسُولَ اللَّهِ... أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً  
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات] (و).

وهذه الدراسة التحليلية للسيرة النبوية: كِبنة نضعها بين أيدي العلماء، إسهاماً في رفع البناء،

(ب) اقرأ على سبيل المثال الآيات: آل عمران: ٢٠، ٣١، ٥٣، ٦٨، ٩٥، ١٧٤، والمائدة: ١٦، والأنعام: ١٥٣، ويوسف:  
٣٨، وطه: ١٢٣، و١٣٥، ويس: ١١، وغافر: ٧.

(ج) من أمثلة ذلك ما ورد في آل عمران: ١٦٢، وطه: ١٢٤، ومحمد: ٣، ٢٨.

(د) راجع على سبيل المثال الآيات: البقرة: ١٠١، والنساء: ٢٧، والأعراف: ١٧٥، و١٧٦، وهود: ٥٩، ٩٧، و١١٦، ومريم:  
٥٩، والحج: ٣.

(ه) اقرأ في ذلك الآيات: النساء: ١١٥، والتوبة: ٦١، والحجر: ٩٥، ٩٦، والنور: ٦٣، والأحزاب: ٥٧، والآيات الأولى من  
سورتي: القلم والمدثر.

(و) ولهذا نفاثر في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ آل  
عمران: ١٠١، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ  
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٤﴾﴾ النساء.

وَنَفْعًا لِكَاثِرَةِ الْإِخْوَانِ وَالْأَبْنَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد].

كل ذلك مع الالتزام بالتوقير الذي طلبه الله سبحانه وتعالى منا لنبينا ﷺ في قوله جل في علاه: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

حيث خاطب الله جل جلاله نبيه ﷺ وناداه بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١، ٦٧].

كما ناداه عز وجل في ثلاث عشرة آية بقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [٦٤، ٦٥، ٧٠: الأنفال]، و[٧٣: التوبة]، و[١، ٣٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩: الأحزاب]، و[١٢: الممتحنة]، و[١: الطلاق]، و[١، ٩: التحريم].

والالتزام كذلك بالإكثار من الصلاة والتسليم عليه ﷺ استجابةً لأمر الله لنا في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب].

وجزى الله كل خيرٍ من قال:

|                                |     |                                |
|--------------------------------|-----|--------------------------------|
| يَوْمَ الْحِسَابِ وَتُرْحَمُوا | ❀❀❀ | إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَسْلَمُوا  |
| فَلِهْدِي أَحْمَدَ فَالزَّمُوا | ❀❀❀ | وَتُعَظَّمُوا وَتُكْرَمُوا     |
| صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا   | ❀❀❀ | وَكُلَّمَا سَمِعْتُمْ ذِكْرَهُ |

ونختم بالرجاء من كل مطالع لهذا العمل: أن ينظر فيه بعين الرضا؛ حتى تقر عينه بما يقوم به من إصلاح وخير، وينشرح صدره بما يبذله من معروف وبر، وله منّا ومن كل طلاب العلم: عظيم التقدير وجميل الشكر، وخالص الدعاء بكمال المثوبة وكريم الأجر، لأن الكمال إنما هو لله

وحده، وأن الخطأ من طبع البشر؛ إلا من أكرمهم الله بالرعاية والعصمة، والصيانة والحكمة: وهم الأنبياء والمرسلون؛ صلوات الله وتسليته عليهم أجمعين، والله نسأل: أن يرزقنا جميعاً الإخلاص والقبول، وأن يَمُنَّ علينا بالكرم والتوفيق، وأن يعفو عن الزلل والتقصير، ويوفق له من يُصلِحُه، وأن ينفع بهذا العمل: كلٌّ من ساهم فيه بجهدٍ، وأصلح زلله، وسدد خلله، حتى يكون في الأولى من منارات الدين الواضحة، وفي الآخرة من مثاقيل الفضل الراجحة، لكلٍ من طالعه ونظر فيه، أو قرأه وانتفع بما فيه، وهو سبحانه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد لله أولاً وآخراً، وله الشكر ظاهرًا وباطنًا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين: آمين.

أ.د/ سعيد صوابي

أستاذ الحديث وعلومه بكلية أصول الدين – القاهرة.

تم اختيار هذه القطوف من أصل الجزأين لهذا الكتاب

في يوم الجمعة غرة شهر الله المحرم ١٤٣٩ هـ الموافق ٢٢/٩/٢٠١٧ م.

## خصائص سيرة النبي ﷺ وثمرة دراستها

إن علم السيرة النبوية من أجل وأشرف العلوم الدينية، لأن موضوعه ذات النبي ﷺ وصفاته، وسيرته وحياته، فهو ﷺ قد جعل الله فيه جميل الأسوة، وعظيم القدوة، وشرفه خلقاً وخلُقاً، وطهره عادةً وعبادةً، واصطفاه بشراً ورسولاً، وجعل في حياته المثل الأكمل، والنموذج الأمثل: لكل وجه من وجوه البر، وكل مسلك من سبل الخير، وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب].

فسيرة رسول الله ﷺ: فسيحة الأرجاء، متسعة الجوانب والأنحاء: حيث انتشرت في طول الزمان، وشملت عموم المكان: فما بعث الله نبياً إلا وبشر به قومه، وكلفهم بتصديقه ومؤازرته، والإيمان به ومناصرته: إذا أدركوا زمانه، وشهدوا بعثته وحياته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُءَ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؕ قَالُوا ءَأَقْرَرْنَا قَالَ فَآشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران] (١).

ولا يوجد في الدنيا حدث ولا حركة إلا ولرسول الله ﷺ فيه المثل الأعلى، فهو ﷺ اليتيم المربي، والأميُّ المعلم، والتاجر الصدوق، والزوج المثالي... وصدق الله في وصفه له وثنائه عليه إذ يقول: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ؕ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء].

ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو عن ذكرٍ له تصريحًا: كالسور التي اختصت بالحديث عنه ﷺ، مثل: سورة الضحى، والشرح، والكوثر، والنصر... وأما غيرها من سور القرآن الكريم؛ ففي كلِّ منها حديثٌ عنه ﷺ أو إشارة إليه تلميحًا، مثل سورة الإخلاص فإن أول لفظٍ فيها ينبئُ أنه ﷺ هو المكلف بالتبليغ، وقد بَلَغَ الناسَ كلَّ ما أوحاه إليه ربه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص].

وسورة المسد؛ فإن أبا لهبٍ وزوجه ما حل بهما البوار والخسار إلا بإيذائهما لرسول الله ﷺ وعنادهما لدعوته.

كما لا تخلو ترجمة أحد من أصحابه ﷺ من حديثٍ له أو سيرة عنه، وقد اجتمع منهم حوله ﷺ في حجة الوداع نحو مائةٍ وثلاثين ألفًا؛ يقتدون به ويسمعون منه ويتلقَّون عنه، وقد جمع الحافظ ابن حجر أكثر من اثني عشر ألف صحابيٍ وصحابيةٍ في كتابه (الإصابة).

ثم إن سيرته ﷺ ممتدةٌ بعد لحوقه بالرفيق الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك في شخص كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ يحسن التأسى برسول الله ﷺ ويتبعُ سنته... فلا يعملُ أحدٌ في الخافقين خيرًا إلا ورسول الله ﷺ هو الدال عليه، ولا يتوفى في الدارين شرًّا إلا ورسول الله ﷺ قد حذَّر منه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الأنعام]. فضلًا من الله ونعمةً وألَّهُ عليكم حَكِيمٌ ﴿٧﴾ [الحجرات].

وبهذا: كانت سيرته ﷺ أكبر دليلٍ على نبوته؛ كما قال الإمام ابن حزمٍ في بيان عظمة سيرة النبي ﷺ ما نصَّه: «وأما محمدٌ ﷺ فلا يختلف أحدٌ في مشرق الأرض ومغربها أنه ﷺ

أتى إلى قوم لَقَاح<sup>(٢)</sup> لا يقرون بملك ولا يطيعون لأحد ولا ينقادون لرئيس، نشأ على هذا آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم منذ ألوف من الأعوام، قد سرى الفخرُ والعزُّ والنخوة والكبرُ والظلمُ والأنفةُ في طباعهم، وهم أعدادٌ عظيمةٌ قد ملؤوا جزيرة العرب... قد صارت طباعهم طباعِ السباع، وهم ألوف الألف؛ قبائلٌ وعشائرٌ، يتعصبُ بعضهم لبعضٍ أبداً، فدعاهم ﷺ بلا مالٍ ولا أتباعٍ؛ فلم يطعه قومه: بل خذلوه وعادوه... ثم تبدلت طبائعهم بقدرة الله تعالى من الظلم إلى العدل ومن الجهل إلى العلم ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم... وأسقطوا كلهم أوهم عن آخرهم طلب الثأر، وصحب الرجلُ منهم قاتلَ ابنه وأبيه وأعدى الناس له: صحبة الإخوة المتحابين؛ دون خوفٍ يجمعهم، ولا رياسةٍ ينفردون بها.. ولا مالٍ يطلبونه، قال تعالى:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبَهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

وأيضاً: فإن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها؛ تقتضي تصديقه ضرورةً، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقاً، فلو لم تكن له معجزةٌ غير سيرته ﷺ لكفى؛ وذلك أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نشأ كما قلنا في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب، ولا خرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتين، إحداهما: إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ورجع، والأخرى أيضاً: إلى أول الشام ولم يطل بها البقاء، ولا فارق قومه قط، ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلها فلم تتغير نفسه ولا تغيرت سيرته ﷺ إلى أن مات؛ ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله أصواع ليست بالكثيرة، ولم يبت قط في ملكه دينارٌ ولا درهمٌ، وكان يأكل على الأرض ما وجد، ويخسف نعله بيده، ويرقع ثوبه، ويؤثر على نفسه... وهذا أمرٌ لا تسمح به نفس ملكٍ من ملوك الأرض؛ ولا أحدٍ من أهل الدنيا

(٢) قوم لَقَاح، أى: لم يخضعوا للملوك، ولم يملكوا، ولم يُصِبْهُمْ في الجاهلية سبي. المعجم الوسيط ص ٨٣٤.

من أصحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه» (٣).

فالله جلَّ جلاله هو المتفضل على نبيه ﷺ بكل خير، والعاصم له ﷺ من كل شر، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ رَهَمْتَ طَائِفَةً مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء].

وكفى رسول الله ﷺ عزا وتكريبا... ما خصه به ربه في الدنيا والآخرة؛ كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۖ إِن شَاءَ لَنَبْذُرَنَّكَ ۖ وَأَنزَلْنَاكَ مِنَ الْآبَاتِ ۖ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر].

ومن ثم: افترض الله على المؤمنين محبته ﷺ وأوجب عليهم طاعته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۗ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٤)، وفي رواية لمسلم:

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/٣٤١: ٣٤٣ باختصار وتصرف يسير، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/٥٨، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل ١/٦٧، وسنن ابن ماجه: المقدمة/ باب: في الإيمان ١/٢٦ وسنده صحيح،



«لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وأخرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»<sup>(٥)</sup>.

وعند البخاري وغيره عن عبد الله بن هشام قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»<sup>(٦)</sup>.

قال القاضي عياض وغيره: «المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة استحسان وموافقة كمحبة سائر الناس، فجمع الله لنبيه ﷺ أصناف المحبة، وحقق فيه كل أسبابها، وكل من استكمل الإيمان: علم أن حق النبي ﷺ أكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأنه الهادي من الضلال والمنقذ من النار، ومن محبته ﷺ: نصرته ستنه، والذب عن شريعته، وتمني حضور حياته: حتى يبذل نفسه وماله فداءً له ﷺ»<sup>(٧)</sup>.

ومسند الإمام أحمد ٣/١٧٧، ٢٧٥: بلفظه، وفي ٣/٢٠٧، ٢٧٨: مطولاً، وأسانيده صحيحة، وصحيح ابن حبان - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب الإيمان/ باب: ذكر إطلاق اسم الإيمان ... ١/٢٠٢، والطبراني في الأوسط بسند حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الإيمان/ باب: فيمن حبه إيمان ١/٨٨، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: قيس بن الربيع، وثقه: شعبة وغيره، وضعفه: يحيى بن معين وغيره.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/٥٨.

(٦) صحيح البخاري: كتاب الإيمان والنذور/ باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ ١١/٥٢٣، ومسند الإمام أحمد: ٤/٢٣٣، ٢٣٦ بسند صحيح.

(٧) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم ١/٢١٩، وفتح الباري ١/٥٨: ٦٠ بتصرف يسير، وقارن ذلك بما سيأتي: في العهد

ولذا كانت دراسة السيرة النبوية: ليحقق المسلم في نفسه الأسوة في النبي ﷺ والافتداء به ﷺ قولاً وعملاً ومنهجاً وسلوكاً وآداباً وأخلاقاً... وليؤصل كل مؤمن في قلبه الحب للنبي ﷺ بمعرفته لأفضاله وخصائصه وصفاته الخلقية منها والخلقية، وإن كانت الصفات الجسمية لا يستطيع أحد أن يتأسى فيها بأحد، لأن الخلق بيد المصور سبحانه، لكن حُسن الصورة وكمال الهيئة: أحد أسباب المحبة التي تُتمم عناصرها وتجمع أسبابها؛ إذ الحب يكون: لجلب نفع، أو لدفع ضرر، أو لصفة في الشيء ذاته، وقد تحققت هذه الثلاثة واجتمعت في شخص رسول الله ﷺ وصفاته.

ومن هنا: كانت دراسة الخصائص والميزات، والخوارق والمعجزات والأوصاف الخلقية للنبي محمد خير البرية: مصاحبةً لدراسة الأحداث والعبادات، والأحوال والمعاملات، والصفات الخلقية التي بلغ فيها رسول الله ﷺ أسمى الدرجات، حتى أثنى عليه ربُّه وأصفاه ومادحاً بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم] (٨).

ومما يزيد هذا العلم رفعةً وسمواً، وتقديرًا وعلوًا: أن دراسته التحليلية، وقضاياه الأساسية: مستمدةً من صريح القرآن الكريم والأحاديث النبوية الحسنة منها والصحيحة؛ التي تجمع عناصر البحث وجزئياته وتستوفي قضاياها وموضوعاته، وسرد وقائعها مستفاداً كذلك من المقبول من الأخبار، والثابت المروي من الآثار؛ بعيداً عن كل زيفٍ ودخيلٍ، أو شُبُهٍ وأباطيلٍ، ونقيًا من كل ما جمعه حاطبو الليل من المؤرخين، أو دسه أعداء الإسلام من المستشرقين، وغيرهم من الحانقين الشائنين لهذا النبي وهذا الدين، وإن دعت حاجة لنقل شبهة فإني أُعقبُ

المكي من نصيحة المقداد بن عمرو المشهور بالمقداد ابن الأسود ص ١١٠، وفي العهد المدني حديث حذيفة ص ٢٦٠.

(٨) في السطور التالية عرض وتمحيص لقضايا وأحداث هذه السيرة العطرة.

عليها بما يدحضها ويُزيلها.

وقد خَرَّجَت نصوص الأحاديث والآثار من أمهات كتب السنة ومصادر الأصيلية: تخريجًا علميًا مستوعبًا؛ مع الحكم على كل منها، وفي أكثر الأحيان أستغنى عن بقية كتب السنة بالصحيحين أو أحدهما إذا كان الحديث مخرجا فيه: وذلك لتتام النفع، وعموم الفائدة، وتوثيق المعنى المستنبط منها.

وبعد جمع النصوص المتعلقة بالموضوع الواحد، وإزالة ما يبدو من تعارضٍ بينها، وذكر ما يستفاد من فقهها وأحكامها وفوائدها التي ذكرها العلماء بعباراتٍ سهلةٍ تيسر الإفادة النافعة من هذه الأحاديث... أدوّن ذلك كلّ في أصل الكتاب بأسلوبٍ ميسر. وتراكيبٍ متناسقة؛ لتكون المعاني صافيةً والفكرة راقيةً.

وبالرغم من وفرة هذه الخصائص، وكثرة تلك الميزات للسيرة النبوية: فإن العجز ملازمٌ لكل من كتب فيها، والقصور واضحٌ في كل من حاول جمعها: وذلك بسبب وفرة الكمالات في كل حال من أحواله ﷺ، وكثرة الفضائل في كل شأن من شؤونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكل ما دوّن من سيرته، وصُنّف في شمائله: إنما هو محاولة للتعرف على حقيقة قدره العظيم وخُلُقهِ الكريم، وكماله البشري ووصفه الزكي، وغير ذلك من أحواله وشمائله ﷺ.

ونستغفر الله أن يكون هذا انتقاصًا منا لأحد، أو هضمًا لصاحب جهد، فنحن أعجزُ الخلق وأفقرهم إلى عفو الله القدير، وستره الجميل: وإنما هي الحقيقة التي لا مراءٍ فيها، ولا اختلاف عليها.

إن هذه الجهود المتضافرة: لَبِنَاتٌ في صرح السيرة الشامخ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْزِي الجميع بفضله ومَنّه: خيرَ وأكرمَ وأوفى الجزاء: بإخلاصهم ونصحهم لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

## دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ بِبَعْتَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي ثُوْرُ بْنُ يَزِيدَ، عَن خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَن أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَن نَفْسِكَ، فَقَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَيُشْرَى عَيْسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ بُضْرَى وَبُضْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ» الحديث: صححه الحاكم وأقره الذهبي على ذلك، وقال الحافظ ابن كثير: هذا إسنادٌ جيدٌ (٢٤).

وللحديث شاهد آخر أخرجه الإمام أحمد بسند حسن، والحاكم وابن حبان (واللفظ له) وصحاه، من حديث العرياض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ أَدَمَ لَمُنْجِدِلٌ (٢٥) فِي طَيْبَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عَيْسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعْتَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ» (٢٦).

(٢٤) (بُضْرَى) مدينة تاريخية تتبع الآن محافظة درعا بسوريا وتبعد عنها بنحو ٤٠ كم، كانت قبل الإسلام عاصمة دينية ومركزا تجاريا هامًا وعمراً على طريق الحرير الذي يمتد إلى الصين، وبها دير الراهب بحيرا الذي تؤسم النبوة في شخص رسول الله ﷺ لما رآه مع عمه في الرحلة التجارية إلى أرض الشام، وسيأتي ذكر قصته تحت عنوان: «تحقيق خبر بحيرا والتعقيب عليه».

والحديث في: السيرة النبوية لابن هشام ١/١٦٦، والمستدرک: کتاب التاريخ، ذکر أخبار سيد المرسلين ٢/٦٠٠، وذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٨/١٣٦.

(٢٥) أي: ملقى على الجدالة - بكسر الجيم - وهي الأرض. النهاية ١/٤٨.

(٢٦) مسند الإمام أحمد ٤/١٢٧ ح ١٧١٥٠، ١٧١٥١، ١٢٨/٤ ح ١٧١٦٣، ومستدرک الحاكم: کتاب التاريخ ٢/٦٠٠،

٦٠١، وصحيح ابن حبان - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب التاريخ/ باب: صفة النبي ﷺ وأخباره

وفي رواية أخرى تتقوى بما قبلها، يقول ﷺ: «وَسَأَحَدُكُمْ تَأْوِيلَ ذَلِكَ، دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ، دَعَاءُ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة]، وَبِشَارَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، قَوْلِهِ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف]، وَرُؤْيَا أُمِّي: رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّمَا وَضَعَتْ نُورًا أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ» (٢٧).

وفي رواية الحاكم: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَبِي مُنْجِدٌ فِي طَيْبَتِهِ وَسَأَخِيرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي أَمِنَةَ النَّبِيِّ رَأَتْ» وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرِينَ، وَأَنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَتْ حِينَ وَضَعْتَهُ لَهُ نُورًا أَضَاءَتْ لَهَا قُصُورُ الشَّامِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٥٤] وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الاحزاب] (٢٨).

(٢٧) قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد، والبزار، والطبراني بنحوه، وأحد أسانيد أحمد: رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان. مجمع الزوائد: كتاب علامات النبوة/ باب: قدوم نبوته ﷺ ٢٢٣/٨، وقال ابن حجر: روى عن العرياض بن سارية؛ وربما أدخل بينها عبد الأعلى بن هلال، وروى عن: عبيدة الأملوكي، ورحل إلى معاوية، وله قصة مع عمر بن عبدالعزيز، وروى عنه: معاوية بن صالح وأبو بكر بن أبي مريم، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال البخاري: لم يصح حديثه، يعني: الحديث الذي رواه معاوية عنه مرفوعاً: «إني عبد الله، وخاتم النبيين في أم الكتاب» وخالفه ابن حبان والحاكم فصححاه. تعجيل المنفعة ص ١٥٢ ط دار الكتاب العربي، بيروت، وقال البزار: شامي، لا بأس به. كشف الأستار ١١٣/٣، وسكت عنه البخاري. التاريخ الكبير ٤٧٦/٣ ترجمة رقم ١٥٩٣، وأقول: سعيد هذا في الثقات لابن حبان ٣٦١/٦، لكنه ذكره في أتباع التابعين، وأما قول البخاري: لم يصح حديثه، فلم أعره عليه، سوى ما ذكره ابن حجر أنفاً، وعلى فرض ثبوته، فلعله يعني: لم يصح هذا الحديث عنه من هذا الوجه، أو أنه أراد: أن الحديث لم يبلغ درجة الصحة، وأما عبد الأعلى بن هلال: أبو النضر السلمي، فمن أهل الشام، يروى عن العرياض بن سارية، ويروى عنه خالد بن معدان، ذكره ابن حبان في الثقات ١٢٨/٥، وأما الحديث فصحيح بمجموع طرقه وشواهد التي مر بعضها، وسبأني بعضها الآخر مع تعقيبات الأئمة على كل حديث منها، والله أعلم.

(٢٨) مستدرک الحاكم: کتاب التفسیر ٤١٨/٢، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

وأخرج أحمد والطيالسي وغيرهما بسند ضعيف من حديث أبي أمامة الباهلي قال: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلَ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ ﷺ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عَيْسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يُخْرِجُ مِنْهَا نُورًا أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ» (٢٩).

ويؤكد تلك الأحاديث: ما امتن الله به على المؤمنين ببعثة خاتم النبيين؛ حيث شرف به العرب خاصة، والخلق كافة، وذكره بالأوصاف التي نص عليها أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه لمكة وأهلها، وهو يرفع قواعد البيت الحرام، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران].

قال الحافظ ابن كثير: «والمقصد أن الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تزل تنعته ﷺ وتحكيه في كتبها على أمها، وتأمرهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بعث، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والدة الأنبياء بعده» (٣٠).

ونلاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَلِمَا خَاطَبَ الْعَرَبَ، وَاْمْتَنَ عَلَيْهِمْ بِبِعْثَةِ نَبِيِّهِ ﷺ فِيهِمْ وَمِنْهُمْ وَصَفَهُ بِالْأَوْصَافِ نَفْسَهَا الَّتِي حَدَدَهَا أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

(٢٩) مسند أحمد ٥/٢٦٢، والمعجم الكبير للطبراني ٨/٢٠٥، ٢٠٦ ح ٧٧٢٩ من طرق إلى الفرج بن فضالة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٢٢ وعزاه إلى أحمد والطبراني، وقال عن إسناد أحمد: وإسناده حسن، وله شواهد تقويه، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/٦٣، ٦٤، وفي سنده: الفرج بن فضالة وهو ضعيف. تقريب التهذيب ٢/١٠٨.

(٣٠) تفسير ابن كثير ١/٢٦٨.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة].

### أمر إسماعيل ونبي زمر

كان والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام أول من هجر قومه في الله، حيث خرج من بلاد العراق إلى أرض الشام، بعد أن أقام الحجة على قومه، وأبلغهم شرع ربه الذي أرسله به، ولكنهم كما ذكر الله عنهم في غير آية من كلامه العزيز: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا يَنبَأُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنِّي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٨﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٩﴾ وَجَبَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ﴿٧٢﴾ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء].

ونلاحظ: ماذا أراد به قومه؟! وكيف أراد الله به وبهم!! حيث أعزه وأذلهم، ونصره وخذلهم، وفرج عنه وكتبهم... ومع ذلك لم يؤمن به ولم يصدقه أحد، بعد أن رأوا الآية البينة، سوى النبي الكريم لوط عليه السلام، ثم إن الخليل عليه السلام بعد أن أعزه الله وأنجاه؛ لم ييأس من تجديد الدعوة لقومه أن يعبدوا الله ويوحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن يتركوا وينبذوا كل ما سواه، ومن ثم: أكرمه الله في عقبه من بعده، حيث وهبه ذريةً صالحَةً، تعبد الله وتوحده؛ بل جعل فيها النبوة والكتاب على توالي العصور والأزمان، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٢٤﴾ \* فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٥﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا<sup>ط</sup> وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿[العنكبوت].

وقد لخص ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره للآيات ٩٩: ١٠١ من سورة الصافات، حيث قال: «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة: هاجر من بين أظهرهم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ [الصافات].»

يعنى: أولادًا مطيعين، عوضًا عن قومه وعشيرته الذين فارقههم، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَهُ<sup>ط</sup> بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿٢٦﴾ [الصافات] (٣١).

ولقد هاجر هجراتٍ طويلةً، لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نعلم أنه خرج من نواحي الكوفة بأرض العراق، إلى أرض الشام، ومعه زوجه سارة، ونبي الله لوط عليها السلام، ثم هاجر إلى مصر، وعاد إلى الشام، وارتحل رحلاتٍ طويلةً عديدةً إلى مكة، حيث البلد الحرام، بالرغم من كبر سنه، وذلك واضح في ثنائه على ربه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٢٦﴾ [إبراهيم].

ثم بارك الله له في عمره حتى أقر عينه برؤية ولد ولده: يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو نبي يوحى



إليه، قال سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا آعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿١١١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿١١٢﴾﴾ [مريم].

قال الحافظ ابن كثير: «لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً، لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بُعث بعده، فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد نسله وَعَقِبِهِ؛ خِلْعَةً من الله وكرامةً له، حيث ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلدٍ يتمكن فيها من عبادة ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودعوة الخلق إليه» (٣٢).

وكان من الهجرات العديدة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيت الله الحرام؛ رحلته بولده إسماعيل وهو رضيع مع أمه، حيث أنزلها بجوار البيت الحرام، ثم عودته إليهما أكثر من مرة؛ ليحقق الرؤيا التي رآها: أنه يذبح ولده إسماعيل، وليعيدا سوياً رفع قواعد البيت وتشيد بناؤه، وكان من دعائها تميم النعمة ببعثة خاتم النبيين، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة].

وسياتى -بمشيئة الله تعالى- بيان نسب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آدم أبي البشر عند الحديث عن تسميته ﷺ وبيان نسبه الشريف.

وأما أم إسماعيل فهي: «هَاجِرُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصلها من قرية (أَنْصَبًا) على الجانب الشرقى لنهر النيل قرب أسيوط بصعيد مصر، وقد اندثرت تلك القرية، وحل محلها قرية الشيخ عبادة من

(٣٢) البداية والنهاية ١/١٣٩، ١٧٥، وتفسير ابن كثير فيما يتعلق بالآيات المقدمة وغيرها مما يتصل بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

سنة ١٢٣٠هـ وقيدت بزمام مركز ملوى التابع الآن لمحافظة المنيا، وكانت هاجر هبة ملك مصر لسارة زوج إبراهيم عليه السلام أثناء هجرتهم إلى مصر، فوهبتها سارة لزوجها إبراهيم، فلما أنجبت هاجر منه إسماعيل؛ اشتدت الغيرة بسارة... والقصة معروفة مشهورة<sup>(٣٣)</sup>.

ثم احتمل إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر مع رضيعها إسماعيل بأمر الله تعالى فأسكنها بوادى مكة بين الجبال، حيث لا أنيس به ولا حسيس، ثم ذهب وتركها هنالك، وليس عندهما سوى جراب فيه تمر وسقاء به ماء، فلما نفذ ذلك: أكرم الله هاجر ورضيعها إسماعيل ثم جمع الناس بعد ذلك بياض زمزم، الذى هو طعام طعم وشفاء سقم<sup>(٣٤)</sup>.

أَسْكَنَهُ أَبُوهُ إِبْرَاهِيمُ ❀❀❀ أُمُّ الْقُرَى وَمَا بِهَا مُقِيمٌ  
وَاللَّهُ قَدْ أَكْرَمَهُ بِزَمْزَمٍ ❀❀❀ وَقَبِلَتْ هَاجِرٌ سُكْنَى جُرْهُمِ  
وَحِينَ شَبَّ صَاهِرًا الْجِيرَانَا ❀❀❀ وَمِنْهُ بُورِكَتٌ بَنُو عَدْنَانَا

أخرج البخارى وغيره من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: لَمَّا كَانَ يَتَنَ إِبْرَاهِيمَ وَيَتَنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ سَنَةٌ<sup>(٣٥)</sup> فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَكْبُرُ لَبُّهَا عَلَى صَبِيَّهَا، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ، فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ<sup>(٣٦)</sup> فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ،

(٣٣) ينظر: صحيح البخارى ح ٣٣٥٨، وصحيح مسلم ح ٢٣٧١، وفتح البارى ٦/٣٩٠: ٣٩٥، والقاموس الجغرافى

للبلاد المصرية لمحمد رمزى القسم الثانى: البلاد الحالية ٤/٥٩: ٦٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣٤) انظر: تفصيل قصة هاجر وإسماعيل فى البداية والنهاية ١/١٥٠: ١٥٤، ٢/١٨٤، والسيرة النبوية لابن كثير ١/٥٦،

وصحيح البخارى: كتاب المناقب/ باب: إسلام أبى ذر الغفارى وقصة زمزم ٦/٥٤٩، ٥٥٠.

(٣٥) (الشَّنَّة) بفتح المعجمة والنون المشددة: وهى القرية العتيقة.

(٣٦) (الدَّوْحَةُ) بفتح المهملتين بينهما واو ساكنة - وهى الشجرة الكبيرة.

وَسِقَاءَ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى (٣٧) إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا هَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُصَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَأَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ (٣٨) حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَوْلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾. وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَعِدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ (٣٩) فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعِي الْإِنْسَانِ الْمُجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَتْ الْمُرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهِا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعِي النَّاسِ بَيْنَهُمَا» (٤٠) فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمُرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا

(٣٧) قَفَى: أَى: رَجَعَ.

(٣٨) الثَّنِيَّةُ: بفتح المثناة المشددة، وكسر النون وفتح المثناة التحتانية مع تشديدها: المكان المرتفع من الأرض.

(٣٩) (يتلبط) آخره موحدة تحتانية فمهملة، ومعناه: يتمرغ ويضرب الأرض برجليه من شدة الظمأ.

(٤٠) هذا اللفظ مرفوع قطعاً، وفيه إشارة إلى مشروعية اتساع السعي بين الصفا والمروة؛ حيث كان في أوله سعيًا لأم إسماعيل وحدها، ثم كان مع النبي ﷺ في حجة الوداع أكثر من مائة ألف يقتدون به ويسعون معه، ثم أصبح اليوم بضعة ملايين من البشر... ولا يزالون بحمد الله يزيدون ولا ينقصون إلى قرب قيام الساعة، وجو المسعى يأخذ حكمه؛ كما يقال ذلك في جو الحرم والمسجد والكعبة، والله أعلم.

فَقَالَتْ: صِه<sup>(٤١)</sup> تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَعَتْ فَسَمِعَتْ أَيضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ! أَغِثْ  
 إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ  
 الْمَاءُ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ<sup>(٤٢)</sup> وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ  
 مَا تَعْرِفُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ! لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ» أَوْ قَالَ: «لَوْ لَمْ  
 تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا»<sup>(٤٣)</sup> قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا  
 الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الصَّبِيغَةَ، فَإِنَّهَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ: بَيْنِي<sup>(٤٤)</sup> هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَهْلَهُ،  
 وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ<sup>(٤٥)</sup>  
 حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةً مِنْ جُرْهُمٍ - أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمٍ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءِ<sup>(٤٦)</sup> فَتَزَلُّوا فِي  
 أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَكُودُ عَلَى مَاءٍ! لَعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ،  
 كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ  
 فَأَخْبَرَهُمْ فَأَتَوْا إِلَيْهَا فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكَ أَوْ نَسْكُنَ مَعَكَ؟ أَوْ قَالُوا:  
 أَتَأْذِينَ لَنَا أَنْ نَنْزَلَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ

(٤١) (صِه) فتح المهملة وسكون الهاء وبكسرها منونة: اسم فعل أمر، ومعناه اسكتي، فكانها خاطبت نفسها بذلك لتحسن الاستماع.

(٤٢) (تُحَوِّضُهُ) بفتح المهملة، وكسر الواو المشددة، وضم المعجمة، أى: تجعله مثل الحوض، مخافة أن يسيل الماء على الأرض.

(٤٣) وهذا لفظ مرفوع آخر قطعاً، ومعنى: (مَعِينًا) أى: ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض، قال ابن الجوزي: كان ظهور زمزم نعمة من الله، خالصة بغير عمل عامل، فلما خالطها تحويط هاجر: داخلها كسب البشر، فقصرت على ذلك.

(٤٤) فى بعض النسخ: (بَيْنِي) مصرح فيها بالمفعول به.

(٤٥) أى: استمرت هاجر على تلك الحال تغتذى بياه زمزم، فيكفيها عن الطعام والشراب.

(٤٦) (كَدَاءِ) بفتح الكاف والبدال المهملة ممدودًا: موضع بأعلى مكة، شمال غرب الحرم، أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٢ خريطة رقم ٣٨، د/ حسين مؤنس ط دار الزهراء للإعلام العربى القاهرة.

النَّبِيِّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ» (٤٧) فَتَزَلُّوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَتَزَلُّوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلٌ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ (٤٨).

والحديث ذكره الحافظ ابن كثير في تاريخه نقلاً عن البخارى، ثم قال: «هذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفي بعضه غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات!!».

وعقب عليه الشيخ أحمد شاكر، بقوله: «وهذا عجب منه، فما كان ابن عباس ممن يتلقى الإسرائيليات، ثم سياق الحديث يفهم منه ضمناً أنه مرفوع كله، ثم لو سلمنا أن أكثره موقوف، ما كان هناك دليل أو شبه دليل على أنه من الإسرائيليات؛ بل يكون الأقرب أنه مما عرفته قريش وتداولته على مر السنين، من تاريخ جديهم إبراهيم وإسماعيل، والظاهر عندى أنه مرفوع كله فى المعنى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»، ونحو ذلك حكم الحافظ ابن حجر على الحديث، يعنى: إن كان بعضه مرفوعاً لفظاً؛ فإن جميعه مرفوعٌ معنى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٤٩).

(٤٧) وهذا لفظ آخر مرفوع قطعاً، ومعنى: (تُحِبُّ الْإِنْسَ) أى: تحب جنسها من الناس وتأنس بهم، وتكره الانفراد وتستوحش منه، وبهذا تُفسر الرواية التى بضم الهمزة (الأنس) وهو: ضد الوحشة.

(٤٨) أخرجه البخارى فى صحيحه: كتاب الأنبياء باب ٩، ج ٦/٣٩٥:٣٩٩ وتكرر فيه أربع مرات عن ابن عباس، الأول ح ٣٣٦٢ مختصراً، والثانى ح ٣٣٦٣ معلقاً ومختصراً، والثالث ح ٣٣٥٦ مطولاً، والرابع ح ٣٣٦٤ مطولاً، ومنها لفظ الرواية المذكورة هنا، والنسائى فى السنن الكبرى ح ٨٣٧٩، و ٨٣٨٠، وفى كتابه الآخر: فضائل الصحابة/ باب: هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ص ٨٢: ٨٤ ح ٢٧٤، ٢٧٣ ح ٢٧٤ ط دار إحياء السنة النبوية، والإمام أحمد فى مسنده ١/٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦٠، وعبدالرزاق فى مصنفه ح ٩١٠٧، والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/٩٨، وشرح الكلمات الغريبة فيه وضبطها مستفاد من: فتح البارى ٦/٤٠٠: ٤٠٣ بتصرف، والله أعلم.

(٤٩) ينظر: البداية والنهاية ١/١٥٤: ١٥٦، والمسند ٥/٨٦، ٨٧ ح ٣٢٥٠ تحقيق الشيخ أحمد شاكر، وفتح البارى

## خَبَرُ تَبِعِ وَإِسْلَامِهِ

تَبِعَ: لَقِبُ لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ، مِثْلَ كَسْرَى عِنْدَ الْفَرَسِ، وَقِصْرٍ عِنْدَ الرُّومِ، وَالنَّجَاشَى فِي الْحَبَشَةِ، وَفِرْعَوْنَ لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١٥﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٦﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٨﴾﴾ [النجر].

وَتَبِعَ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ أَحَدُ مَلُوكِ الْيَمَنِ الَّذِي كَانَتْ حَيَاتُهُ قَبِيلَ مَوْلِدِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام وَكَانَ يَدِينُ بِالزُّبُورِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ تَبِعٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّتَيْنِ، الْأُولَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبِعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الدخان].

وَالثَّانِيَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿٧٧﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٧٨﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبِعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة ق].

وَنَلْحِظُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَذْمُهُ؛ وَإِنَّمَا ذَمَّ قَوْمَهُ كَقَوْمِ نُوحٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا رُسُلَهُمْ، كَمَا وَرَدَ فِي السَّنَةِ الْمَشْرُفَةِ أَحَادِيثُ وَأَثَارٌ يُشَدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا تَفِيدُ إِسْلَامَ تَبِعٍ، وَتَنْهَى عَنِ سَبِّهِ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْأَثَمَةُ الثَّقَاتُ قِصَّتَهُ فِي السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ:

٤٠٢/٦ ولذلك: توسعت في تخريج الحديث في الهامش الذي قبله ليؤكد ما رجحه المحققون في تعقيهم على الحافظ ابن كثير؛ لاسيما أن فيه ألفاظاً لا تُذكرُ من قبيل الرأي أو الاجتهاد كخطاب الملك لأم إسماعيل: «لا تخافوا الضيعة، فإنها هتنا بيت الله: بيني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله..» والله أعلم.

أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا أَذْرِي أَتَّبِعُ لَعِينٌ هُوَ أُمَّ لَا...» الحديث (٨٠).

قال صاحب بذل المجهود: «هذا قبل أن يوحى إليه ﷺ في أمر تبع، ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه أسلم، ثم أشار إلى حديث ابن عباس، وسهل بن سعد، وذكر أن ابن مردويه أخرج مثل حديثهما من حديث أبي هريرة في النهي عن سب تبع» (٨١)، وقال الحافظ ابن عساكر: «إن هذا الشك كان من النبي ﷺ قبل أن يتبين له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلماً».

وبهذا يتفق هذا الحديث مع الأحاديث والآثار الأخرى التي ورد فيها النهي عن سب تبع؛ لأنه كان مسلماً، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد والطبراني وابن أبي حاتم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَسُبُّوا تَبَعًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ» (٨٢).

وله شاهد من حديث ابن عباس عند الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا تَبَعًا، فَإِنَّهُ

(٨٠) سنن أبي داود: كتاب السنة/ باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٢١٨/٤، والمستدرک للحاكم: كتاب الإيمان، تبع وذو القرنين كانا نبيين أم لا؟ ٣٦/١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وعزاه ابن كثير إلى ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق: عبدالرزاق به، وسنده صحيح.

(٨١) بذل المجهود في حل أبي داود ١٨/١٩٧، ١٩٨.

(٨٢) المسند ٥/٣٤٠، والمعجم الكبير للطبراني ٦/٢٠٣ ح ٦٠١٣، والمعجم الأوسط ٤/١٧٦ ح ٣٣١، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب الأدب/ باب: النهي عن سب الأموات ٧٦/٨، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه: عمرو بن جابر، وهو كذاب، كما ذكر الحديث أيضًا الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/٢٤٤ عن ابن أبي حاتم بسنده إلى سهل بن سعد، وفي إسناده عندهم: عمرو بن جابر الحضرمي: أبو زرعة المصري، قال فيه الحافظ ابن حجر: ضعيف شيعي. تقريب التهذيب ٢/٦٦، وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه، فقال: عنده نحو عشرين حديثًا، هو صالح الحديث. الجرح والتعديل ٦/٢٢٤، وقال أحمد: روى عن جابر مناكير، وبلغني أنه كان يكذب. ميزان الاعتدال ٣/٢٥٠، وحديثه هنا في تبع يتقوى بما بعده، ويشهد له.

قَدْ أَسْلَمَ» (٨٣).

وقد أورد ابن جرير وابن كثير في التفسير<sup>(٨٤)</sup> آثارا عن الصحابة والتابعين فيها النهي عن سب تبع، فعن قتادة قال: ذُكر لنا أن كعبًا كان يقول في تبع: نِعَمَ نَعَتْ الرجلِ الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبعًا، فإنه قد كان رجلاً صالحًا، وقال سعيد بن جبيرة: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه - كذا قال ابن كثير - وعند عبدالرزاق بسنده عن عطاء بن أبي رباح قال: لا تسبوا تبعًا، فإن رسول الله ﷺ نهي عن سبه.

وأخرج الثعالبي في كتاب: «مغايب الجواهر في أنساب حمير» أن تبعًا كان يدين بالزبور، وأخرج الحافظ ابن عساكر موقوفًا على ابن عباس بلفظ: «لا يشتبهن عليكم أمر تبع، فإنه كان

(٨٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٦/٨: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: أحمد بن أبي بزة المكي، ولم أعرفه، وبقيته رجاله ثقات.

قلت: الحديث حسنٌ لغيره، وهو في المعجم الأوسط للطبراني ٢٤٧/٢ ح ١٤٤١ وأما ابن أبي بزة المكي، فهو: أحمد بن محمد بن عبدالله البزى بن أبي بزة المكي: أبو الحسن المقرئ، مؤذن المسجد الحرام، قال الذهبي: إمام ثبت في القراءة، لكنه لين الحديث، وقال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: ابن أبي بزة ضعيف الحديث؟ قال: نعم! ولست أحدث عنه، فإنه روى عن عبدالله بن موسى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله، عن النبي ﷺ حديثًا منكرًا {الديك الأبيض حبيبي...} وقال ابن حجر: ضعف البزى في الحديث ناشئ عن عدم الإتيان في الحديث، فلا يقدح في عدالته والاحتجاج بنقل القراءة عنه. ميزان الاعتدال ١/١٤٤، ١٤٥، والجرح والتعديل ٧١/٢، ولسان الميزان ١/٢٨٣. عن شيخه: مؤمل بن إسماعيل أبي عبدالرحمن البصري، نزيل مكة، أخرج له البخاري تعليقًا، والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال ابن حجر: صدوق سيء الحفظ توفي سنة ٢٠٦ هـ. تقريب التهذيب ٢/٢٩٠، وبقيته رجال إسناده الطبراني ثقات.

(٨٤) تفسير الطبري ٧٧/٢٥، وتفسير ابن كثير ٧/٢٤٣، ٢٤٤.



مسلياً»، وأخرج عبدالرزاق عن وهب بن مُنَبِّه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ الناس عن سب أسعد، وهو تبع، فقال له أصحابه: يا أبا عبدالله وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم (٨٥).

وقد ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق من خبر تبع؛ واسمه: أسعد أبو كريب، ملك اليمن، المتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو سبعة قرون: ما يفيد إسلامه حين أُخْبِرَ بمبعث النبي ﷺ وذلك أثناء قدومه بجيوشه على مكة ويثرب في ذهابه للحيرة، وخلف ابناً له بين أظهر أهل المدينة، فقتل فيهم غيلةً، فلما رجع تبع حارب أهل المدينة، وعزم على استئصال أهلها، لقتلهم ابنه، وزاد من تصميمه على تنفيذ ما اعتزمه: ما وقع من أحد بنى عدى يقال له: الأحمر مع أحد رجال تبع حين وجده اعتدى على تمره، فضربه بمنجلة فقتله.

قال ابن إسحاق (٨٦): «وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له: أحمر عدا على رجل من أصحاب تبع حين نزل بهم فقتله، وذلك أنه وجده في عدقي له يجزه، فضربه بمنجلة فقتله، وقال: إنما التمر لمن أبرة (٨٧)، فاقتلوا، فترعم الأنصار: أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار، ويفرؤنه بالليل، فيعجبه ذلك منهم ويقول: والله إن قومنا لكرام (٨٨).

فبينما تبع على ذلك من قتلهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة، عالمان

(٨٥) أورد له الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق ترجمة حافلة، ينظر: تهذيب تاريخ دمشق ٣/٣٢٨: ٣٤١، وتاريخ بغداد للخطيب ٢/٢٠٥، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٠٣/١٠٤، وعمدة القارى للعيني ٤/١٧٦، ١٧٧، وتفسير ابن كثير ٧/٢٤٢: ٢٤٤.

(٨٦) البداية والنهاية ٢/١٦٣: ١٦٧ (الخبر بطوله)، وفي السيرة النبوية لابن هشام ١/٢١: ٢٨.

(٨٧) بتشديد الموحدة: أصلحه بوضع اللقاح له. القاموس المحيط ١/٣٧٤.

(٨٨) أى: إنه لم يقصد غزؤهم، وإنما قصد قتل اليهود الذين كانوا فيها، وذلك أن الأوس والخزرج كانوا باليمن، ثم نزلوا المدينة مع اليهود بشروط وعهود، فلم يف بذلك اليهود، فاستغاث أهل المدينة بتبع فقدمها. ينظر: هامش السيرة النبوية ١/١٧.

راسخان في العلم، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك: لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد: حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولم ذلك؟ فقالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره، فتناهي عن ذلك، ورأى أن لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة، واتبعهما على دينهما».

قال ابن كثير: «وكانه والله أعلم، كان كافرًا ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ»<sup>(٨٩)</sup>.

قال ابن إسحاق: وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلى مكة، وهي طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عُسْفان وأمَجَ أتاه نفرٌ من هُذَيْلِ بن مُدْرِكة، فقالوا له: أيها الملك: ألا ندلك على بيت مالٍ دائرٍ أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى، قالوا: بيت مكة يعبده أهله ويصلون عنده، وإنما أرادَ الهُذَيْلِيُّونَ هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك من أرادَه من الملوك وبغى عنده، فلما أجمع لِمَا قالوا؛ أرسل إلى الحبرين فسألها عن ذلك، فقالا له: ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جنديك، ما نعلم بيتًا لله جَلَّ جَلَالُهُ اتخذه في الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دَعَوُكَ إليه لتَهْلِكَنَّ وليهْلِكَنَّ من معك جميعًا، قال: فماذا تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالوا: تصنع عنده ما يصنع أهله: تطوفُ به، وتعظمهُ وتكرمهُ، وتحلِّقُ رأسَكَ عنده، وتَدُلُّ له حتى تخرج من عنده، قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالوا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنه لَكَمَا أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي يريقون عنده، وهم نجس أهل شرك، أو كما قالوا له، فعرفَ نصحتها وصدق حديثها، وقرب النفر من هُذَيْلٍ فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم مضى حتى قدم مكة، فطاف

بالبیت ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون: ينحر بها للناس، ويطعم أهلها، ويسقيهم العسل، وأرى في المنام أن يكسو البيت: فكساه...

وكان تبع فيها يزعمون أول من كسى البيت، وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره، وألا يُقربوه دما، ولا ميتة ولا مثلاً - وهى المحايض - وجعل له باباً ومفتاحاً، ففى ذلك قالت سبيعة بنت الأحب تُذكر ابنها (خالد) به، وتنهاه عن البغى بمكة، وتذكر له ما كان من أمر تبع فيها:

|                                  |                                       |
|----------------------------------|---------------------------------------|
| أُبْنَى لَا تَظْلِمَ بِمَ        | كَّةَ لَا الصَّغِيرَ وَلَا الْكَبِيرَ |
| وَاحْفَظْ مَحَارِمَهَا بُ        | نَى وَلَا يَغْرُنْكَ الْغُرُورُ       |
| أُبْنَى مَنْ يَظْلِمَ بِمَ       | كَّةَ يَلْقَ أَطْرَافَ الشُّرُورِ     |
| أُبْنَى يُضْرَبُ وَجْهُهُ        | وَيَلِجُ بِخَدَيْهِ السَّعِيرِ        |
| أُبْنَى قَدْ جَرَّبَتْهَا        | فَوَجَدْتُ أَنَّ ظَالِمَهَا يَبُورُ   |
| اللَّهُ أَمَّنَهَا وَمَا         | بُنِيَتْ بِعَرَصَتِهَا قُصُورُ        |
| وَاللَّهُ أَمَّنَ طَيْرَهَا      | الْعَصْمَ تَأْمَنُ فِي نَبِيرِ        |
| وَلَقَدْ غَزَاهَا تُبَّعُ        | فَكَسَا بِنِيَّتِهَا الْحَبِيرِ       |
| وَأَذَلَ رَبِّي مُلْكَهُ         | فِيهَا فَأَوْفَى بِالتُّنُورِ         |
| يَمْشَى إِلَيْهَا حَافِيًا       | بِفِنَائِهَا أَلْفَا بَعِيرِ          |
| وَيَظَلُّ يُطْعِمُ أَهْلَهَا     | لَحْمَ الْمَهَارِي وَالْجَزُورِ       |
| يَسْقِيهِمُ الْعَسْلَ الْمَصْفَى | وَالرَّحِيضَ مِنَ الشَّعِيرِ          |
| وَالفَيْلَ أَهْلَكَ جَيْشَهُ     | يُرْمُونَ فِيهَا بِالصُّخُورِ         |
| وَالْمُلْكَ فِي أَقْصَى الْبَلَا | دِ وَفِي الْأَعَاجِمِ وَالْجَزِيرِ    |

فاسمعُ إذا حَدَّثْتَ وافِ هَمَّ كَيْفَ عاقِبَةُ الأُمُورِ

قال ابن كثير: وذكروا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي آخر الزمان، اسمه: أحمد، قال في ذلك شعراً، واستودعه عند أهل المدينة، وكانوا يتوارثونه خلفاً عن سلف، وهذا الشعر هو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ      رَسُولُ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ  
فَلَوْ مَدَّ عُمُرِي إِلَى عُمُرِهِ      لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ  
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ      وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمِّ

وذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق أن تبعاً أقام بالمدينة سنة، رجاء أن يدرك محمداً، فلما اعتزم الرحيل: كتب كتاباً جاء فيه: أَمَّا بَعْدُ، يَا مُحَمَّدُ! فَإِنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا، وَأَنَا عَلَى دِينِكَ وَسُنَّتِكَ، وَأَمَنْتُ بِرَبِّكَ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَمَنْتُ بِكُلِّ مَا جَاءَ مِنْ رَبِّكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَإِنِّي قَبَلْتُ ذَلِكَ، فَإِن أَدْرَكْتُكَ فِيهَا وَنِعْمَتٌ، وَإِن لَمْ أَدْرِكْكَ فَاشْفَعْ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا تَنْسِنِي، فَإِنِّي مِنْ أُمَّتِكَ الْأَوَّابِينَ، وَبَايَعْتُكَ قَبْلَ مَحْبِثِكَ، وَقَبْلَ إِسْرَالِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاكَ، وَأَنَا عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وكتب عنوان الكتاب: إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، مِنْ تَبَعِ الْأَوَّلِ... أمانة الله في يد من وقع إليه أن يوصله إلى صاحبه، ثم دفع الكتاب إلى العالم الذي نصح له في شأن الكعبة، وأمره بحفظه، حتى يدفعه إلى محمد ﷺ إن أدركه، وإن لم يدركه فأمره موكول إلى أولاده أبداً ما تناسلوا إلى حين مجيء رسول الله ﷺ، وبنى للنبي ﷺ داراً ينزل بها إذا قدم المدينة، فتداول الدار الملاك إلى أن صارت لأبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من ولد ذلك العالم الذي دفع إليه الكتاب، إلى أن بعث الله

رسول الله ﷺ، فلما هاجر وسمعوا بخروجه، استشاروا في إيصال الكتاب، فأشار عليهم عبدالرحمن بن عوف- وكان قد هاجر قبل النبي ﷺ- أن يختاروا رجلاً ثقة، وأن يبعثوا بالكتاب معه إليه ﷺ، فاختاروا رجلاً يقال له: أبو ليلى، فلما رآه ﷺ قال: «أنت أبو ليلى ومعك كتاب تُبَعِّعُ» فبقى الرجل متفكراً! ولم يعرف النبي ﷺ فقال: مَنْ أَنْتَ؟ فَإِنِّي لَمْ أَرِ فِي وَجْهِكَ أَثَرَ السَّحْرِ، وتوهم أنه ساحر، فقال ﷺ: «أنا محمد، هاتِ الكتاب» ففتح الرجل رحله، وكان يخفي الكتاب، فدفعه إليه، فقرأه أبو بكر على النبي ﷺ، فقال: «مرحباً بتبع الأخ الصالح» ثلاث مرات، وأمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة، فرجع وبشر القوم، فأعطاه كل واحد منهم عطاءً على تلك البشارة، وجاء رسول الله ﷺ، فسأله أهل القبائل أن ينزل عليهم وتعلقوا بناقته فقال: «دعوها، فإنها مأمورة» حتى جاءت دار أبي أيوب الذي كان من أولاد العالم الناصح لتبع في شأن الكعبة، وكانوا ينتظرونه، فهم من أولاد العلماء الذين سكنوا يثرب في دُورِ تبع التي بناها لهم، واسم أبي أيوب الأنصاري: خالد بن زيد بن كليب من بنى النَّجَّار، وبهذا رفع الله في الخافقين ذكره رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وأعلى بين الأنام قدره، حيث اختار داره لينزل بها رسوله ﷺ (٩٠).

(٩٠) راجع قصة تُبَعِّعُ ومروره بيثرب، في: البداية والنهاية ١٦٣/٢: ١٦٧، ومختصر تاريخ دمشق ج ٥ ص ٢٩٥: ٢٩٨، وترجمة أبي أيوب الأنصاري، في: الإصابة ١٩٩/٢: ٢٠١، وكتاب: «صور من حياة الصحابة» للدكتور: عبدالرحمن رأفت الباشا ص ٦٦: ٧٥، وكتاب: «المسجد النبوي عبر التاريخ» للدكتور: محمد السيد الوكيل ص ١٧، وسيأتي بعدُ بمشيئة الله تعالى في الجزء الثاني من هذا الكتاب: تفصيل هجرة المصطفى ﷺ وأصحابه إلى المدينة.



قد تظاهرت الأخبار على أن مولد رسول الله ﷺ كان في صبيحة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول من عام الفيل، فأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ، قَالَ ﷺ: «ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنزِلَ عَلَيَّ فِيهِ...» الحديث مطولاً (٩٣).

قال ابن كثير: وهذا ما لا خلاف فيه أنه ﷺ ولد يوم الاثنين، والجمهور على أن ذلك كان في شهر ربيع الأول.

ونص ابن إسحاق أنه: كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل، وهذا هو المشهور عند الجمهور.

وقد حقق محمود باشا الفلكي أن ذلك كان يوافق التاسع من ربيع الأول، العشرين من شهر إبريل ٥٧١م، وذكر فضيلة الشيخ محمد الصادق عرجون: أن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: ووراء ذلك خلاف عريض في زمن ميلاده يوماً وشهراً وعماماً لا طائل تحت استقصائه (٩٤).

واليقين في ذلك هو: أنه كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول في العام الثالث والخمسين قبل الهجرة؛ لحديث مسلم المتقدم وغيره، وبعد طول بحث واجتهاد تبين أنه اليوم التاسع من الشهر نفسه، الموافق ٢٠/٤/٥٧١م، والله أعلم.

---

(٩٣) صحيح مسلم: كتاب الصيام/ باب: استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ٨١٩/٢ ح ١١٦٢.

(٩٤) ينظر كتاب: «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري ص ١٦، وكتاب: «محمد رسول الله ﷺ» للشيخ محمد الصادق إبراهيم عرجون ١٠٢/١.

ولعل ذلك الإخفاء لزمن مولده: كان حفظاً وصيانةً وتكريماً لرسول الله ﷺ؛ لأن مولده  
 ﷺ قد وقع بعد حادثة الفيل بزمن يسير، ولم يزل الناس مشغولين بذاك الحدث الجلل العظيم،  
 فلم يخطر ببال أحد من اليهود أو من غيرهم الذين عرفوا صفة رسول الله ﷺ ونعته؛ أن  
 يبحثوا عنه ليقتلوه أو يؤذوه، قال ابن سعد: وكان قدوم أصحاب الفيل للنصف من المحرم،  
 فيين الفيل وبين مولد رسول الله ﷺ خمس وخمسون ليلةً، وكذا نقل ابن عساكر وابن كثير،  
 وقال خليفة بن خياط: والمجتمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل (٩٥).

|  |    |   |
|--|----|---|
| وَوَاحِدٍ أَشْرَقَ وَضَاءُ الْجَبِينِ        | ❁❁ | وَعَامُ خَمْسُمِائَةٍ وَسَبْعِينَ           |
| فِي يَوْمٍ تَاسِعٍ أَوِ الثَّانِي عَشَرَ     | ❁❁ | شَهْرٍ رَّبِيعِ الْأَوَّلِ الْمُنَوَّرِ     |
| شَمْسٌ عَلَى الْأَرْضِ وَشَمْسٌ تَجْرِي      | ❁❁ | مَوْلِدُهُ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ         |
| وَالْمُعْجِزَاتِ أَنْ أُمَرَآتِ              | ❁❁ | وَعَلِمَ النَّاسُ مِنَ الْآيَاتِ            |
| مَا فَعَلَ اللَّهُ بِأَهْلِ الْفِيلِ         | ❁❁ | وَجَاءَنَا فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ        |
| وَالْجَارِ عِنْدَ الْأَكْرَمِينَ لَا يُضَامُ | ❁❁ | لَمَّا أَرَادُوا غَزْوَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ |

ومن ثم: ذَكَرَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ رَسُوْلَهُ ﷺ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ بَعْدَ إِرْسَالِهِ لَهُ ﷺ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ تَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا  
 أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ [الفيل].

وفي آيات تلك السورة وكلماتها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾... ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا

(٩٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١/٦٢، وتهذيب تاريخ دمشق ١/٢٨١، ٢٨٢، والبداية والنهاية ٢/٢٦٢، وكان ذلك يوم الخميس الخامس عشر من المحرم عام ٥٣ قبل الهجرة الموافق ٢٦/٢/٥٧١م.

أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿١﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٣﴾: أبلغ ردُّ وأوضح حُجَّةً على مَنْ يسمون أنفسهم في العصر الحديث: أصحاب المذهب الذاتى الذين لا يرون حرجاً في أن يقحم المؤرخ نزعه الذاتية أو اتجاهه الفكرى أو السياسى أو الدينى في تفسير ما ينقله من أحداث، وتعليقها والحكم عليها، حسب ما تُسَوَّلُ له نفسه، ويمليه عليه هواه؛ بل يرون أن هذا هو عمل الكاتب وواجبه، فأخذوا يستبعدون من السيرة النبوية الخوارق والمعجزات، وكل ما يخالف المؤلف، ولو ورد به صريح القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، فيؤولون الطير الأبايل وما فُعلَ بأصحاب الفيل بأنه مرض الجدري، وتغافلوا عن كلمات السورة الصريحة: التى تتحدث عن أشياء مُحَسُّ وتُرى بالعين المجردة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ .. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿١﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٢﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٣﴾﴾!!.

وقد يستندون في ذلك إلى ما كتبه بعض شيوخ الأزهر، كالشيخ محمد عبده والشيخ المراغى رَحْمَهُمُ اللهُ تَفَادِيًا لتكذيب المنكرين لأمثال هذه الخوارق والمعجزات التى لا تقبلها عقولهم، ولو صرحت بها آيات القرآن الكريم، أو صحيح السنة المشرفة.

ولو صح زعم المستشرقين ذلك؛ لكان أول المعارضين لرسول الله ﷺ الذين شاهدوا ما وقع لأصحاب الفيل، ثم عاشوا إلى زمن بعثته وسمعوا منه آيات التنزيل (٩٦).

ومن ثمَّ: ينبغى أن نتنبه إلى خطر أولئك الكتاب من المستشرقين الذين يستبدلون في كتاباتهم تلك بموازين الرواية والسند وقواعد التحديث وشروطه: طريقة الاستنتاج الشخصى،

(٩٦) يُنظر في ذلك: تفسير المراغى ٢٤٣/٣٠، ٢٤٤ ط مصطفى الحلبي، وصورته دار إحياء التراث العربى - بيروت: حيث وصف الطير بأنه الذباب والبعوض، ونقل عن الإمام محمد عبده أنه مرض الجدري والحصبية. تفسير جزم عم ص ١١٩، ١٢٠ ط الشعب، وفقه السيرة للدكتور محمد سعيد البوطى ص ٢٤: ٣١ ط دار الفكر.



والهوى النفسي، ومذهب الظن الذي لا يُغنى من الحق شيئاً، ولا ضابط له إلا الشهوة العارضة، والرغبة الجاحمة.

وربما غفل الكثيرون عن هذه المكيدة الخطيرة وانخدعوا بما يزخرفه أولئك النفر من الأساليب البراقة، والكلمات الرنانة تزييناً لباطلهم، وطمساً للحقيقة، أو تعميةً عليها، كأن يروج بعضهم لرسول الله ﷺ صفات العظمة، والعبقرية، والبطولة... وما شاكلها؛ شغلاً للقارئ بها عن صفات النبوة، وحقائق الوحي والرسالة<sup>(٩٧)</sup>.

لَمَّا رَأَى اللَّهُ فَسَادَ الْأَرْضِ ❀❀❀ بِفِعْلِ أَهْلِهَا الَّذِي لَا يُرْضِي  
 مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْمَعَاصِي ❀❀❀ وَكُفْرٍ دَانَ مِنْهُمْ وَقَاصِي  
 أَرْسَلَ أَحْمَدَ النَّبِيَّ الْهَاشِمِيَّ ❀❀❀ وَطَهَرَ الْأَرْضَ مِنَ الْمَآثِمِ  
 وَاخْتَارَهُ مِنْ أَكْرَمِ الْأَبَاءِ ❀❀❀ وَأَفْضَلِ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ  
 وَمَنْ يُدَانِي أَبُوهُ فِي الشَّرَفِ ❀❀❀ وَالذُّرُّ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنْ صَدَفٍ

ومن أقوى ما وقفت عليه من المبشرات في ليلة مولده ﷺ: ما أخرجه الحاكم وصححه إسناده، وابن عساكر في تاريخه واللفظ له، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سكن يهودي بمكة، يبيع بها تجارات، فلما كانت ليلة وُلِدَ رسول الله ﷺ قال في مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم من مولود هذه الليلة؟ قالوا: لا نعلمه، قال: أخطأتُ والله!! حيث كنت أكره، انظروا يا معشر قريش، وأحصوا ما أقول لكم: ولد الليلة نبي هذه الأمة: أحمد الآخر، فإن أخطأكم في فلسطين،

(٩٧) وستأتي بحوث في هذا الكتاب تشرح ذلك وتؤكدده، انظر على سبيل المثال ص ٧٦: ٨٩ وص ١٥٥: ١٧٤، والله

به شامة بين كتفيه سوداء صفراء، فيها شعرات متواترات، فتصدع القوم من مجالسهم وهم يتعجبون من حديثه، فلما صاروا في منازلهم، ذكروا لأهاليهم، فقبل لبعضهم: ولد لعبدالله بن عبدالمطلب الليلة غلام وسموه: محمداً، فالتقوا بعد من يومهم، فأتوا اليهودى في منزله، فقالوا: أعلمت؟ إنه ولد فينا مولوداً! قال: أبعد خبرى أم قبله؟ قالوا: قبله، واسمه: أحمد، قال: فاذهبوا بنا إليه، فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه، فأخرجته إليهم، فرأى الشامة في ظهره، فغشى على اليهودي، ثم أفاق، فقالوا: ويلك!! مالك؟ فقال: ذهبت النبوة من بنى إسرائيل، وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوبٌ بقتلهم وبيئ أخبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرحتهم يا معشر- قريش؟ أما والله! ليسطون بكم سطوة يخرج نهاؤها من المشرق إلى المغرب».

وفي رواية الحاكم أن اليهودى قال: «هَلْ وُلِدَ فِيكُمْ اللَّيْلَةَ مَوْلُودٌ؟ فَفَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُهُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أَمَا إِذَا أَخْطَأَكُمْ فَلَا بَأْسَ...» وزاد في آخره: «وَكَانَ فِي النَّفَرِ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ الْيَهُودِيُّ: مَا قَالَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةَ وَمُسَافِرُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو وَعَبِيدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ شَابٌ فَوْقَ الْمُحْتَلَمِ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي مَنَاةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

وفي رواية ابن سعد: «فإن أخطاكم بفلسطين» يعنى: إذا لم يولد منكم بمكة فإنه سيكون من اليهود، ويولد بفلسطين<sup>(٩٨)</sup>.

(٩٨) يراجع: مختصر تاريخ دمشق ٢/٤٧، ٤٨، ط الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار الفكر بدمشق، وينظر أيضاً: تهذيب تاريخ دمشق ١/٣٥١، ٣٥٢، ومستدرک الحاكم: كتاب التاريخ ٢/٦٠١، ٦٠٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: لا. أي: ليس بصحيح، قلت: في سنده: يحيى بن علي بن عبد الحميد بن يسار الكنانى المدني، قال عنه ابن أبى حاتم: كان على شرطة المدينة، ادعى أنه سمع محمد بن إسحاق، روى عنه ابنه أبو غسان: محمد بن يحيى، سمعت أبى يقول ذلك. الجرح والتعديل ٩/١٧٥، ولعل تعقيب الذهبي على تصحيح الحاكم لسند الحديث بقوله: لا، هو من أجل ذلك الراوي، وإلا فالحديث سنده جيد من ابن إسحاق، كما أخرجه ابن سعد من وجه آخر إلى: هشام بن عروة،

## نشأته ﷺ وتربيته الله له

قد أراد جل وعلا أن ينشأ نبيّه يتيمًا بعيدًا عن تربية أبيه وأمه وجدّه، حتى لا يكون للمبطلين سبيلٌ إلى إدخال الرّيبة في القلوب، أو إيهاّم الناس بأن محمّدًا إنما نشأت فيه حب الرسالة واصطناع النبوة ليصل إلى جاه الدنيا، وأيضًا: حتى لا يزعم أحد أن اليُتمّ نقمةٌ تحوّل بينها وبين صاحبها عن بلوغ أسمى المراتب؛ بل تكون الأسوة الحسنة لكل يتيم في شخص رسول الله ﷺ الذي كانت تربية الله وعنايته به أفضل وأكمل وأحكم وأحسن من أى تربية أخرى، وصدق الله حيث أظهر منته على نبيه ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ نَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى].

وما نشأة موسى عليه السّلام وتربيته في بيت فرعون بعيدًا عن أهله وأقاربه بخافية على أحد، كما هو جلي واضح في أول سورة القصص.

وليس معنى هذا أن يهمل الأبوان أبناءهما أو أن يقصرا في ذلك؛ بل لها دورٌ ينبغي أن يقوموا به، وعليهما واجب ينبغي أن يؤدياه<sup>(١١٩)</sup>، ثم بعد ذلك يكون من الله وحده التوفيق والهداية: إنه هو الذى هدى إسماعيل أن يجيب أباه حين عرض عليه ذبحه بقوله: ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات].

وفي الصورة المقابلة نجد نوحًا عليه السّلام وهو يدعو ابنه للنجاة من الغرق والموت: ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فأبى الولد، وأجاب: ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلِ

عن أبيه، عن عائشة. الطبقات الكبرى ١/١٠٦، ١٠٧، والبداية والنهاية ٢/٢٦٧، وراجع ما سبق ص ٤٤: ٤٩. (١١٩) للاستزادة: يراجع كتابنا: «ثمار من السنة» تحت عنوان: «تربية الأبناء إكرام للأهملات والآباء» ص ٥٥: ٦٩ ط الخامسة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

يَعَصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿هُود: ٤٢: ٤٧﴾.

والقصة معروفة، فَمَنْ الَّذِي وفق ذاك وخذل هذا؟! إنه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اقترفت، الخبير العليم بكل شئ.

### شَقُّ الصَّدْرِ وَالْحِكْمَةُ مِنْهُ

وهذا حَدَّثَ آخر حِصِّي مَلْمُوسٍ يَظْهَرُ فِيهِ تَعَهُدُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَصِيَانَتَهُ لَهُ مِنْذُ صَغَرِهِ، فَيُحَدِّثُ خَادِمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ؛ أَنَسُ بْنُ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَبَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِبَاءٍ رَمَزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ - أَيْ: مَرْضَعَتَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُتَتَعِّعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْخَيْطِ فِي صَدْرِهِ» (١٢٠).

ولقد تكرر حادث شق الصدر أكثر من مرة لرسول الله ﷺ غير تلك التي وقعت له في بادية بنى سعد، ففي زوائد المسند: أن شق الصدر قد وقع له ﷺ وهو ابن عشر سنين وأشهر (١٢١).

(١٢٠) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب: الإسراء برسول الله وفرض الصلوات ١/ ١٤٧، حديث ٢٦١، وانظر: مسند الإمام أحمد ٣/ ١٢١، ١٤٩، ٢٨٨.

(١٢١) الفتح الرباني ٢٠/ ١٩٥، وقال المرحوم عبدالرحمن الساعاتي: رجاله ثقات، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٣ رواه عبدالله، ورجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، أقول: هو في المسند ٥/ ١٣٩ من زوائد عبدالله ابن الإمام أحمد، في حديث طويل سأل فيه أبو هريرة رسول الله ﷺ: عن أول ما رأى من أمر النبوة... الحديث، وفي سنده: محمد بن معاذ

وفى كتب السنة بأسانيد صحيحة من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في معراج رسول الله ﷺ أن شق صدره ﷺ قد وقع له ليلة الإسراء بعد أن تجاوز الخمسين من عمره (١٢٢).

فأى رعاية، وأى عناية أعظم من هذه!!؟

وبالرغم من تعدد تلك الحادثة في حياته ﷺ والكلمات الصريحة من أنس بن مالك راوى الحديث الذى يقول: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ» إلا أن كثيرين من أصحاب المدرسة العقلانية من المستشرقين وبعض المفتونين بهم من المسلمين ذهبوا إلى تأويل تلك الحادثة، زاعمين أنها أمر معنوى، مثل قوله تعالى: ﴿الْمَنْ نَشَرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح].

ومنهم من أنكر وقوع حادثة شق صدر النبي ﷺ بالكلية دون التفات إلى ثبوتها وصحة الأحاديث المصرحة بوقوعها أكثر من مرة في نشأته ﷺ الأولى؛ بل وبعد بعثته. كما أن من البدهيات المسلمة؛ والحقائق التى لاشك فيها: أن ميزان قبول الخبر هو استيفاءه لشروط الصحة، فإذا ثبتت: فلا ينبغي رده ولا تأويله.

بن محمد بن أبي بن كعب، قال ابن المدينى: لا نعرف محمدًا ولا أباه، وهو إسناد مجهول، وكذا لم يعتبر الحافظ ابن حجر توثيق ابن حبان له حيث قال عنه: مجهول. تهذيب التهذيب ٤٦٣/٩، وتقريب التهذيب ص ٥٠٧. (١٢٢) انظر: صحيح البخارى: كتاب مناقب الأنصار/ باب: المعراج ٢٠١/٧، ٢٠٢، وصحيح مسلم: فى الكتاب والباب المتقدمين قبل هذا، وانظر: ٢٢٣/١: ٢٢٦ بشرح النووى، وجامع الترمذى: كتاب التفسير/ باب: ومن سورة ألم نشرح ٤١٢/٥، ٤١٣، ح ٣٣٤٦. وقال: هذا حديث حسن صحيح، وسنن النسائى: كتاب الصلاة/ باب: فرض الصلاة وذكر اختلاف الناقلين فى إسناد حديث أنس ٢١٧/١، ح ٤٤٨ الطبعة الأولى المفهرسة، وللحديث شواهد أخرى، عن أبى ذر وهو متفق عليه أيضًا: وعن عقبه بن عبدالسلمى عند الحاكم فى المستدرک: كتاب التاريخ، ذكر شق صدره ﷺ ٦١٦/٢، ٦١٧، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى، وينظر: المسند ١٨٤/٤، ١٨٥، ومجمع الزوائد ٢٢١/٨، ٢٢٢.

وقد كفانا شيخنا المرحوم الأستاذ الدكتور: محمد محمد أبو شهبه في الرد عليهم وألقمهم أحجارًا، فجزاه الله خير الجزاء (١٢٣).

ومن أوجز ما قيل في حادثة شق الصدر قول الحافظ ابن حجر: «وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بنى سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضًا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل منهما حكمة، فالأول: وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: «فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ» وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوى في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه ﷺ، وجميع ما ورد في شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة: مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصالحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك» (١٢٤).

(١٢٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ٢/٢٠٣: ٢١١ حيث ناقش المنكرين لشق الصدر والمشككين فيه.

(١٢٤) فتح الباري ٧/٢٠٤، ٢٠٥، وانظر: دلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٧١.

حَمَايَتُهُ ﷺ مِنَ الْبَاطِلِ  
وَنَهْيُهُ ﷺ لِمَنْ رَأَاهُ يَفْعَلُهُ

وهكذا حفظ الله نبيه ﷺ من كل مفاسد الجاهلية ومساوئها، فلم يشهد لهم عيداً، ولم يحضر معهم مشهداً، وما تمسح بصرم قط، ولا حلف به، ولا أكل مما ذبح على أنصابهم. أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط الشيخين، عن عروة بن الزبير قال: حَدَّثَنِي جَارٌ لِحَدِيثَةِ بِنْتِ حُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ لِحَدِيثَةَ: «أَيُّ حَدِيثِجَةٍ! وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ أَبَدًا، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ الْعُزَّى أَبَدًا» (١٤٦).

بل كان ﷺ ينكر عليهم صنيعهم، وينهى من كان يشاهده منهم يتمسح بالأصنام، فعن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: طُفْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمَسْتُ بَعْضَ الْأَصْنَامِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَمَسَّهَا» فَقُلْتُ: لِأَعُودَنَّ حَتَّى أَبْصَرَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ مَسَسْتُهَا، فَقَالَ: «أَلَمْ تَنْهَ عَن هَذَا؟» (١٤٧).

(١٤٦) المسند ٤/٢٢٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب علامات النبوة/ باب: عصمته ﷺ من الباطل ٨/٢٢٥، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وأقول: وهذا الحديث أحد الأدلة التي تبطل افتراءات المستشرقين على رسول الله ﷺ، وسيأتي في البحث الثالث توضيح لذلك ص ١٤٤: ١٥٠.

(١٤٧) قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح ٨/٢٢٦، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٤، وسيأتي ص ١٠٩: ١١١ وغيرها: ناذج تؤكد ذلك.

## تَحْكِيمُهُ ﷺ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَشَهَادَةُ قَوْمِهِ لَهُ

وهذه شهادة جميع معاصريه المخالطين له.. وذلك حين اشتد بهم الخلاف، واحتدم بينهم النزاع، أيهم يجوز شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة.

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى مجاهد، عن مولاة، أَنَّهُ حَدَّثَتْهُ: أَنَّهُ كَانَ فِي مَنِّ بْنِيِ الْكَعْبَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ: وَلِي حَجْرٌ أَنَا نَحْتُهُ بِيَدَيَّ، أَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَأَجِيءُ بِاللَّبَنِ الْحَائِرِ الَّذِي أَنْفَسُهُ عَلَى نَفْسِي، فَأَصُبُّهُ عَلَيْهِ، فَيَجِيءُ الْكَلْبُ فَيَلْحَسُهُ، ثُمَّ يَشْغَرُ فَيُؤَلُّ (١٤٨)، فَبَيْنَمَا حَتَّى بَلَّغْنَا مَوْضِعَ الْحَجَرِ، وَمَا يَرَى الْحَجَرَ أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ وَسَطَ حِجَارَتِنَا، مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ، يَكَادُ يَتَرَاوَى مِنْهُ وَجْهُ الرَّجُلِ، فَقَالَ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ: نَحْنُ نَضَعُهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: نَحْنُ نَضَعُهُ، فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا، قَالُوا: أَوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: أَتَاكُمْ الْأَمِينُ، فَقَالُوا لَهُ، فَوَضَعَهُ فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ دَعَا بَطُونَهُمْ فَأَخَذُوا بِنَوَاحِيهِ مَعَهُ، فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ (١٤٩).

وهذا على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لما انهدم البيت بعد جُرْهُمِ فبنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر

(١٤٨) يعنى: أن الكلب يرفع إحدى رجليه ليبول على الصنم بعد أن يلحس اللبن الذي كان يصبه عليه من يعبده ويمجرم منه نفسه، وكان الصحابيُّ يخبر بذلك؛ ليبين ما كانوا عليه قبل الإسلام من سفهٍ وضلال، والله أعلم.

(١٤٩) حديثٌ صحيحٌ بشاهده الآتى، مسند الإمام أحمد ٤٢٥/٣، وفي سنده: هلال بن خباب العبدي، أبو العلاء البصرى: صدوق، وثقه أحمد وابن معين، وغيرهما، وقال ابن عدى: أرجو أنه لا بأس به، وقال ابن حبان: يخطئ ويخالف. تهذيب التهذيب ٧٧/١١، ٧٨ وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند ح ١٥٥٠٤ وقال: ومولى مجاهد، هو: قيس بن السائب، كما نص على ذلك ابن سعد ٤٤٦/٥ انظر: الأحاد والمثاني لابن أبى عاصم ٧٢٧، والمعجم الكبير للطبراني ٩٣١/١٨... وجعل الإمام أحمد؛ مولى مجاهد، هو: السائب بن أبى السائب، ونظن أنه وهم، وحقه أن يفرد، والله تعالى أعلم. المسند ٢٤/٢٤، ٢٦٣ بتصرف يسير.



تساجروا مَنْ يَضَعُهُ؟ فاتفقوا على أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول الله ﷺ من باب بنى شيبية، فأمر بثوب فوضع، فأخذ الحجر ووضعه في وسطه، فأمر من كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فيرفعه وأخذ رسول الله ﷺ فوضعه» (١٥٠).

فتشرف رسول الله ﷺ بوضع الحجر في الثوب بيده الشريفة، ثم حمله منه، فوضعه في مكانه من بناء الكعبة، والحمد لله على ذلك.

وبالجملة: فقد خالط النبي ﷺ في حياته الأولى وفترة شبابه المجتمع الذي كان يعيش فيه بأرقى أنواع المعاملة؛ وأسمى درجات الطهر والنقاء: محفوظاً بحماية الله له من كل ما يسئ إلى شخصه ودعوته، وهكذا جرت سنته سبحانه أن يصون عباده الذين سيكونون أئمةً للناس من العلماء والدعاة؛ حتى لا تفقد الثقة بهم، ويكون لهم تأثير في من يعلمونهم، فكيف بالأنبياء والرسول؟! بل كيف بأفضلهم وأشرفهم وأكملهم وخاتمهم الذي جعل الله فيه جميل الأسوة وعظيم القدوة صلوات الله وسلامه عليه!!؟

وفي القرآن الكريم شواهد ونماذج كثيرة لمثل هذا الطهر والنقاء الذي نشأ فيه أنبياء الله ورسله قبل الوحي والرسالة، فقد قص القرآن علينا مقالة قوم ثمود لنبيهم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢].

وقول أهل مدين لنبي الله شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وكذلك قول السجينين ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

## كَيْفِيَّةُ زَوَاجِهِ ﷺ الْمُوَافِقَةَ لِاصْطِفَاءِ اللَّهِ لَهُ كَمَا تَقَلَّهَا الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ

ثبت في الأحاديث الصحيحة: أن النبي ﷺ تزوج بأمر المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل البعثة ببضع عشرة سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وعقلاً وفضلاً وشرفاً ونبلاً وطهارةً وعفة... وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل الإسراء والمعراج، وكان النبي ﷺ يثنى عليها، ويظهر محبتها، ويتأثر عند ذكرها بعد وفاتها، لتطمينها إياه عند نزول الوحي عليه ﷺ، ولمبادرتها إلى تصديقه والإيمان بما نزل عليه، وغير ذلك من مواقفها المحمودة التي تدل على مكانتها السامية في الإسلام.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم، حيث ولدت له أولاً: القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبدالله - وكان عبدالله يلقب بالطيب والظاهر - ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، غير أن الوفاة أدركتهن في حياته ﷺ سوى فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد تأخرت بعده ﷺ بستة أشهر، ثم لحقت به (١٥١).

وقد ظلت أم المؤمنين خديجة توازر وتناصر وتؤنس رسول الله ﷺ لاسيما عند الشدائد.. إلى أن تُوُفِّيَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين في العام نفسه الذي توفي فيه أبو طالب؛ كما ذكر ذلك هشام بن عروة، عن أبيه، عند البخاري (١٥٢).

(١٥١) ستأتي الأحاديث المستنبط منها هذا التمهيد؛ مع تعقيبات العلماء عليها، ليتبين بعد ذلك لكل منصف: شذوذ المستشرقين ومن وافقهم من المسلمين في استنادهم إلى الأحاديث الضعيفة والأخبار المعلّنة: ينظر مع هذا المبحث ص ١٣٠: ١٣٩، و ١٧٠: ١٧٣، و ١٧٥: ١٨٢.

(١٥٢) صحيح البخاري: فتح الباري ٧/ ٢٢٤ ح ٣٨٩٦.

فَأَصْبَحَتْ أُمُّ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ ❀❀❀ سِتَّتُهُمْ وَنِعْمَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ  
 قَاسِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ الطَّيِّبُ ❀❀❀ رُقَيْةُ فَاطِمَةَ وَزَيْنَبُ  
 وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَقَدْ مَاتَ الْجَمِيعُ ❀❀❀ إِلَّا الْبَتُولُ قَبْلَ أَنْ مَاتَ الشَّفِيعُ  
 ثُمَّ قَضَتْ خَدِيجَةَ عِشْرِينَ ❀❀❀ وَبَعْدَهَا سَبْعًا مِنَ السَّنِينَ  
 بِنَفْسِهَا وَمَالِهَا وَالجَاهِ ❀❀❀ رَاضِيَةً تَفْدي رَسُولَ اللَّهِ  
 وَكَانَ فِي إِحْسَانِهَا يَشْكُرُهَا ❀❀❀ وَظَلَّ بَعْدَ مَوْتِهَا يَذْكُرُهَا

قال الحافظ ابن حجر: «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي، وهى أول من تزوجها ﷺ، وهى من أقرب نسائه إليه فى النسب، ولم يتزوج غيرها من ذرية قصي إلا أم حبيبة» (١٥٣).

وقد تزوج النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة؛ وهو فى سن الخامسة والعشرين، فى قول الجمهور.

وقد أجمع أهل العلم على أن النبي ﷺ تزوج من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل البعثة، وذلك استنباطاً من الأحاديث الصحيحة، كما ترجم البخارى فى: كتاب مناقب الأنصار، فى صحيحه بقوله: باب تزويج النبي خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١٥٣) فتح البارى ٧/١٣٤، واسم أم حبيبة: رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي، وقد تزوجها رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة أثناء هجرته إلى أرض الحبشة، وبالرغم من صغر سنها: إلا أنها أقرب فى النسب إلى رسول الله ﷺ حيث تلتقى معه فى عبدمناف بن قصي، أما أم المؤمنين: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي؛ فإنها تجتمع معه ﷺ فى قصي بن كلاب.

وأما تفاصيل الزواج، وكيف حصلت الخطبة وتم العقد، ومن الذي كان وليها في النكاح؛ فقد اختلفت الروايات في ذلك، وكلها ضعيفة؛ بل منها ما هو واهٍ، وفي هذه الحالة يجب على كل مؤمن أن يقبل منها ما رجحه الجمهور، وما يليق بمقام خاتم الأنبياء وخير الخلائق على الإطلاق ﷺ.

وما يتفق مع حفظ الله وصيانيته وعصمته لنبيه ﷺ، ورعايته وعنايته به، وما يوافق الشرع الشريف وسنة الله تعالى في اصطفائه لأنبيائه وتطهيرهم من كل دنس أو شائبة كما قال تعالى:

﴿وَأَنبِئْهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص].

بل: كيف يكون تعهده -تبارك اسمه- لصفوتهم وأشرفهم وأكملهم... صلوات الله

وسلامه عليه وعليهم أجمعين (١٥٤)!!

|  |     |  |
|--|-----|--|
| وَاشْتَفَلَ النَّبِيُّ بِالتَّجَارَةِ      | ❀❀❀ | وَعَرَفَتْ خَدِيجَةَ الْأَمَارَةَ        |
| فَانْتَدَبَتْهُ الْمَرْأَةُ الْمُطَهَّرَةَ | ❀❀❀ | فِي سَفَرٍ مَعَ الْغُلَامِ مَيْسِرَةَ    |
| وَعَنَهُ قَدْ حَدَّثَهَا الْغُلَامُ        | ❀❀❀ | بِأَنَّهُ نُظِلُّهُ الْعَمَامُ           |
| وَلَا تَسَلْ عَن كَثْرَةِ الْأَرْبَاحِ     | ❀❀❀ | وَعَن صِفَاتِ سَيِّدِ الْبِطَاحِ         |
| فَخَطَبَتْ مُحَمَّدًا بَعْلًا لَهَا        | ❀❀❀ | وَالنَّاسُ يَعْرِفُونَ مِنْهَا فَضْلَهَا |
| وَإِنْ تَكُنْ فِي سِنِّهَا كَبِيرَةَ       | ❀❀❀ | فَإِنَّهَا فِي حُسْنِهَا شَهِيرَةَ       |
| وَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يَخْطُبُهَا      | ❀❀❀ | فَغَيْرُ هَذَا الرَّوْجِ لَا يُعْجِبُهَا |
| وَالنَّاسُ فِي مَكَّةَ أَجْمَعُونَ         | ❀❀❀ | يَرُونَ فِيهِ الصَّادِقَ الْمَأْمُونَا   |

وَاحْتَلَفُوا فِي الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَنْ يَضَعُهُ فِي الرُّكْنِ تَلْقَاءَ الْيَمَنِ  
وَحَكَّمُوا مُحَمَّدًا فِي الْمَشْكِلَةِ وَجَاءَ بِالْحُكْمِ الَّذِي مَا أَعْدَلَهُ

### كثرة الإرهاصات قبل بعثته ﷺ

ولما قرب زمان بعثته ﷺ: كثرت الإرهاصات والمقدمات تمهيدا لنزول الوحي، وتوطئة لقبول الرسالة، كتسليم الحجر عليه ﷺ، كما روى الإمام مسلم بسنده إلى جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ».

قال الإمام النووي في شرحه للحديث: فيه معجزة له ﷺ، وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجهادات، وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وفي هذه الآية خلاف مشهور، والصحيح أنه يُسَبِّحُ حقيقة، ويجعل الله تعالى فيه تمييزًا بحسبه، كما ذكرنا، ومنه الحجر الذي فر بثوب موسى ﷺ، وكلام الذراع المسمومة، ومشى إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبي ﷺ، وأشباه ذلك (١٧٦).

ومن ذلك أيضًا رؤيته ﷺ للضوء وساعه للصوت، كما ورد ذلك في حديثٍ أخرجه الإمام أحمد بسندٍ على شرط مسلم إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِحَدِيثَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

(١٧٦) صحيح مسلم: كتاب الفضائل / باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٤/ ١٧٨٢ ح ٢٢٧٧.

وشرح النووي لصحيح مسلم ١٥/ ٣٦، ٣٧.

«إِنِّي أَرَى ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنَنٌ» (١٧٧) قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْعَلْ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نُوفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُ صَادِقًا؛ فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ؛ فَسَأَعِزُّهُ وَأَنْصُرُهُ وَأُؤَمِّنُ بِهِ (١٧٨).

ومن الإرهاصات العامة التي أزعجت الجن والإنس على السواء؛ وأفزعهم رؤيتها: ما حدث من كثرة الشهب في السماء، عند اقتراب بعثته ﷺ حجبًا للشياطين عن التسمع لخبير السماء، حتى لا يختلط الوحي ولا يلتبس حينها يُحَدِّثُ به الناس رسول الله ﷺ.

ولقد رأى هذه الظاهرة الكونية الناس جميعًا ففزعوا منها، وأخذوا يُجرجون من أموالهم ويتصدقون بها، ويقول بعضهم لبعض: قامت القيامة وهلك أهل السماء، ولكن العقلاء منهم أمثال: عمرو بن أمية أحد بنى علاج- وكان أدهى العرب وأنكرها رأيًا- وعبد ياليل بن عمرو بن عمير، قالوا لهم: انظروا! فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر، ويعرف الناس بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يُصلحُ الناس في معاشهم هي التي يُرمى بها؛ فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها، وإن كانت نجومًا غيرها- وهي ثابتة على حالها- فهذا

(١٧٧) أورد الحافظ ابن حجر اثني عشر قولاً في المراد مما خافه النبي ﷺ أن يصيبه في نفسه، ثم ذكر أن أصح تلك الأقوال: أنه ﷺ خاف على نفسه من الجنون أو المرض أو الموت، وما سوى ذلك من أقوال؛ فعليه اعتراضات. فتح الباري ١/٢٤.

(١٧٨) ذكر العلماء في المراد مما خشيه رسول الله ﷺ على نفسه أقوالاً كثيرة؛ أصحابها: الجنون، أو المرض، أو الموت، وما سوى ذلك من الأقوال فعليه اعتراضات، والحديث في موسوعة المسند، تحقيق الشيخ شعيب تحت رقم ٢٨٤٥، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر رَحْمَةُ اللَّهِ ١/٣١٢، ح ٢٨٤٦، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، وجمع الزوائد ٨/٢٥٥.

لأمر أراد الله به هذا الخلق، وهو من أجل ابن أبي كبشة يعنون: محمدًا ﷺ (١٧٩).

قال الحافظ ابن كثير: «السماء قد ملئت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على السنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يُدرى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز» (١٨٠).

ولقد كان هذا الأمر موجودًا قبل زمن رسول الله ﷺ حيث كانت الشياطين تسترق السمع، فيرمى بعضها بالشهب، لأن السماء لم تخل من حراسٍ، ولكنهم كانوا قليلين متفرقين، فلما بعث رسول الله ﷺ شددت الحراسة في السماء وكثرت، قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحْدِّ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾ [الجن].

فَالْجِنُّ كَانُوا يَسْرِقُونَ السَّمْعَ ❀❀❀ فَمَنْعُوا مِنَ السَّمَاءِ مَنْعًا  
بِالشُّهُبِ الْمُحْرِقَةِ الْمُسَدَّةِ ❀❀❀ إِلَى وُجُوهِ وَرُؤُوسِ الْمَرْدَةِ

(١٧٩) ابن أبي كبشة: أحد أجداد رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعادة العرب إذا انتقصت؛ نَسَبَتْ إِلَى جَدِّ غَامِضٍ. ينظر: فتح الباري ٤٠/١.

(١٨٠) يراجع في ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٦/١، ٢٠٧، والطبقات الكبرى ١٠٧/١/١، وتأويل مشكل القرآن ص ٤٢٩: ٤٣١، وتفسير القرآن العظيم ٥٠٢/٦: ٥٠٤، و٢٦٧/٨، ٢٦٨، والبداية والنهاية ١٨/٣: ٢١.

أخرج مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! كُنَّا نَقُولُ: «وُلِدَ اللَّيْلَةُ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ؛ وَلَكِنْ: رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا: سَبَّحَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلَ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُوقُهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْدِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمُونَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَفُونَ» (١٨١) فِيهِ وَيَزِيدُونَ» (١٨٢).

وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري... به نحوه، وفي آخره: «حتى يتتهى إلى السماء الدنيا، فيتحدثوا به، فتستره الشياطين بالسمع، على توهم واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم به فيخطئون ويصيبون، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضاً ويخطئون بعضاً، ثم إن الله جلَّ جلاله حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقْدِفُونَ بها، فانقطعت الكهانة اليوم، فلا كهانة» (١٨٣).

وأخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى

(١٨١) أى: يخطئون فيه الكذب، وهى بمعنى: يقذفون. القاموس ١٨٩/٢، ١٩٠.

(١٨٢) صحيح مسلم: كتاب السلام/ باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان ٤/١٧٥٠، ١٧٥١ واللفظ له، والترمذى فى جامعه: كتاب التفسير، سورة سبأ آية: ٢٣، ٣٦٢/٥ وقال: حسن صحيح، وأحمد فى مسنده ٢١٨/١.

(١٨٣) يعنى: لا كهانة إلى يوم القيامة، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٧/١.



صَفْوَانٍ<sup>(١٨٤)</sup> فَإِذَا ﴿فُزِعَ عَنِ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ لِلَّذِي قَالَ ﴿الْحَقُّ وَهُوَ  
 الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقِّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقِّ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ،  
 وَوَصَفَ سُفْيَانٌ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ - أَى: يُفَرِّقُ - بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ  
 تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ  
 قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ  
 كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ<sup>(١٨٥)</sup>.

فهذا ليس معناه كما يتوهم بعض الناس أن لكل إنسان نجماً يطلع بمولده ويأفل ويغيب بموته، وكذلك ليس معناه أن هناك نجماً ظهر عند مولد النبي ﷺ؛ وإنما هو من أجل الوحي الذى امتاز به رسول الله ﷺ على سائر البشر كافة؛ بل والخلق عامة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، وفصلت: ٦].

ثم بدأت مبشرات النبوة بالرؤيا الصادقة فى النوم، فتتحقق فى اليقظة كما رآها، وهى جزء النبوة، وأول ما عرف ﷺ من أنواع الوحي الذى أرسل به إلى الخلق كافة؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء].

وقد وردت أحاديث كثيرة فى رؤيا نبينا محمد ﷺ، سيأتى بعضها، ومن أشهرها حديث أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المتفق عليه فى بدء الوحي، ورؤياه ﷺ البلد الذى سيهاجر إليه، وصدق

(١٨٤) السلسلة: دوائر الحديد المتصلة بعضها ببعض، والصفوان: الحجر الأملس، وذلك تشبيه وجيه لخضوع الملائكة واستوائها لأمر الله تعالى. ينظر: القاموس ٤٠٨/٣، والنهاية ٤١/٣.

(١٨٥) صحيح البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة سبأ ٥٣٧/٨، ٥٣٨، وجامع الترمذى ٣٦١/٥.

الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۗ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٧٧﴾﴾ [الفتح].

وهكذا اقتضت حكمة الخير، وجرت سنته في عباده: أن الأمر الجليل إذا قُضِيَ بإيصاله إلى الخلق؛ فإنه يسبقه ويتقدم عليه: ترشيح وتأسيس.

وهذا الاصطفاء والاختيار للرسالة، والحفظ والإعداد للرسول: صار النبي ﷺ في أرقى الدرجات وأعلى المنازل، وكانت روحه في غاية الشرف والصفاء، وبدنه في غاية الطهر والنقاء، والقوى المدركة في أسمى درجات الكمال؛ حتى أصبح أهلاً لاستقبال رسالة الله تعالى، ونزول وحيه عليه، ولا عجب؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْعَاصِمُ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُؤَدِّبُ لَهُ، والمتفضل عليه بكل خير، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۗ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۗ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء].

وهذا تكون الرسالة والنبوة اصطفاءً من الله جَلَّ جَلَالُهُ وليست أمراً مكتسباً؛ كما يظن البعض، فحياته ﷺ قبل البعثة كانت دليل صدقه بعدها، وسيتأكد ذلك من وقائع سيرته ﷺ فيما يأتي من بحوث، والله المستعان.

فالمبشرات برسول الله ﷺ التي سبق أن عرفنا الكثير منها: ما كانت إلا ليزداد الذين آمنوا إيماناً؛ ولتقوم بها الحجة على الكافرين والمنكرين، ولذلك: لم يعتمد عليها رسول الله ﷺ حين قدم نفسه للناس نبياً ورسولاً؛ بل اعتمد على ما أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به من الوحي، قال

ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم (١٨٦).

كما لفتهم ﷺ إلى سابق معرفتهم بطيب أصله، وطهارة نسبه، وكريم خلقه، وجميل خصاله، وعظيم صفاته، ونبل عاداته... وغير ذلك مما لا يستطيع أحدٌ دفعه أو إنكاره، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ<sup>ط</sup> فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ<sup>ع</sup> أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَدَتِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأنعام].

ولعل في تأخير الله جلَّ جلاله نزول الوحي على خاتم النبيين ﷺ إلى سن الأربعين: ليعرف الناس كلهم سيرته وحياته، ويحُجُّوا عاداته ومعاملاته، ويعرفوا أخلاقه وطباعه، ويسبُّوا سلوكه وأقواله خلال هذه الفترة الطويلة، التي شارك فيها النبي ﷺ المجتمع الجاهلي بأطهر وأنقى وأرقى أنواع المعاملات التي تُظهِرُ طيبَ الأصل، وطهارة المنبت، وسلامة الفطرة، وصفاء الخلق، ونقاء السريرة، وأمانة المعاملة... حتى عُرف بينهم بالصادق الأمين، الذي سادهم في عظيم الخصال، وكريم الأخلاق.

(١٨٦) أخرجه البخارى في صحيحه: كتاب فضل القرآن/ باب: كيف نزول الوحي ٣/٩، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان/ باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١٣٤/١ ح ١٥٢، وأحمد في مسنده ٤٥١، ٣٤١/٢.

ولذلك حينما دعاهم النبي ﷺ إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وذكرهم بما عرفوه عنه ﷻ من أخلاق: لم يستطع أحد تكذيبه، ولا اتهامه، ولا الطعن فيه، قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قالوا: نَعَمْ! مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا (١٨٧).

وصدق الله إذ يقول: ﴿فَأَيُّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَئِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَتِ اللَّهِ سَجَّحَدُونَ

﴾ [الأنعام].

وقد بُعث أنبياء كثيرون وهم في سن الشباب، أو على الأقل: دون الأربعين بكثير، كيوسف وموسى ويحيى وعيسى؛ ولكن بعد استواء الخلق، وبلوغ الأشدّ وتمام النضج... كما قال تعالى: ﴿يَعِجُّونَ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم].

وقد انتخب من أرجوزة الشيخ محمد بن سالم البيهاني ما يعبر عن هذه الفترة من بعثته

ﷺ إلى هجرته، حيث قال:

مَرَّتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ عَامًا ❀❀ مِنْ عُمُرِهِ وَبُورَكَتْ أَيَّامًا  
 وَطَالَ فِي غَارِجِرَا اعْتِرَازُهُ ❀❀ لِمَا عَلَيْهِ قَوْمُهُ وَأَلَّهُ  
 وَرُبَّمَا يَمُكُّتُ فِيهِ شَهْرًا ❀❀ لِيَقْضِيَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا  
 وَقَبْلَ مَا يُوجِي إِلَيْهِ رَبُّهُ ❀❀ وَقَدْ صَفَى جَوْهَرُهُ وَقَلْبُهُ  
 كَانَ يَرَى الرُّوْيَا تَجِيءُ صِدْقًا ❀❀ وَمَا يَرَى إِلَّا هُدًى وَحَقًّا

- وَجَاءَهُ الْأَمِينُ جِبْرَائِيلُ ❀❀ ❀❀ وَمَعَهُ مِنْ رَبِّهِ التَّنْزِيلُ  
 قَالَ لَهُ اقْرَأْ أَيُّهَا النَّبِيُّ ❀❀ ❀❀ قَالَ وَكَيْفَ يَقْرَأُ الْأُمِّيُّ  
 فَغَطَّهُ وَقَالَ بِاسْمِ الْأَكْرَمِ ❀❀ ❀❀ وَبِاسْمِ مَنْ عَلَّمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ  
 فَعَادَ حَائِقًا مِنَ الرُّوحِ الْأَمِينِ ❀❀ ❀❀ وَذَكَرَ الْأُمْرَ لِأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ  
 قَالَتْ لَهُ كَلَّا وَأَلْفُ كَلَّا ❀❀ ❀❀ يَا مَنْ تُعِينُ عَاجِزًا وَكَلَّا  
 وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ رَبُّ النَّاسِ ❀❀ ❀❀ يَا وَاصِلَ الْأَرْحَامِ وَالْمُوَاسِي  
 وَانطَلَقَتْ بِهِ تَقْصُ الْخَبْرَا ❀❀ ❀❀ عَلَى ابْنِ عَمِّهَا الَّذِي تَنْصَرَا  
 وَكَانَ شَيْخًا يَقْرَأُ الْإِنْجِيلَا ❀❀ ❀❀ وَيَعْرِفُ الْإِحْمَالَ وَالْتَّفْصِيلَا  
 قَالَتْ لَهُ اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ ❀❀ ❀❀ فَقَالَ مَا تَرَى وَكَيْفَ يَأْتِيكَ  
 قَالَ أَتَانِي رَجُلٌ صِفْتُهُ ❀❀ ❀❀ كَذَا وَكَذَا كَلَّمَنِي وَخِفْتُهُ  
 قَالَ لَقَدْ أُوتِيَتْهُ النَّامُوسَا ❀❀ ❀❀ وَمِثْلُ مَا جَاءَكَ جَاءَ مُوسَى  
 يَا لَيْتَنِي فِيهَا أَكُونُ جَذَعَا ❀❀ ❀❀ لِكَيْ أَحَبَّ مَعَكُمْ وَأَضَعَا  
 إِذْ يُخْرِجُوكَ مِنْ بِلَادِ الْحَرَمِ ❀❀ ❀❀ وَمَاتَ وَرَقَةَ وَثَمَّا أَسْلَمَ  
 فَانْقَطَعَ الْوَحْيُ وَظَلَّ يَنْتَظِرُ ❀❀ ❀❀ وَقَتَا وَبَعْدُ قِيلَ قُمْ فَأَنْذِرْ  
 وَابْتَدَأَ الدَّعْوَةَ فِي إِبَاءِ ❀❀ ❀❀ بَيْنَ رَجَالِ الْحَقِّ وَالنِّسَاءِ  
 وَأَسْلَمَتْ خَدِيجَةُ الْمُبَشَّرَةَ ❀❀ ❀❀ وَأَسْلَمَ الصِّدِّيقُ رَأْسَ الْعَشْرَةَ  
 وَعَاشَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ صِبَاهُ ❀❀ ❀❀ سَيِّدِنَا عَلِيُّ الْأَوَاهُ

وَاَنْتَصَرَ الْاِسْلَامَ بِالْفَارُوقِ ❁❁ وَاَعْتَرَفَ السَّابِقُ لِلْمَسْبُوقِ  
 بِحَمَزَةٍ وَبِأَبِي حَفْصٍ عُمَرَ ❁❁ قَدْ هُزِمَ الْبَاطِلُ وَالْحَقُّ انْتَصَرَ  
 وَجَهَرَ النَّبِيُّ بِالتَّوْحِيدِ ❁❁ وَبِالْمُسَاوَاةِ مَعَ الْعَبِيدِ  
 لَا فَرْقَ بَيْنَ أَبِيضٍ وَأَسْوَدٍ ❁❁ إِلَّا يَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّ أَحْمَدِ  
 حُرِّيَّةً عَدَالَةً مُسَاوَاهُ ❁❁ فِي دِينِهِمْ جَمِيعُهُمْ خَلَقَ اللَّهُ  
 وَحَاوَلْتُ فُرَيْشُ رَدَّ الْحَقِّ ❁❁ وَبَالِغَتْ فِي جَهْلِهَا وَالْحُمُقِ  
 وَأَذُوا النَّبِيَّ وَالصَّحَابَةَ ❁❁ وَقَطَّعُوا الْأَرْحَامَ وَالْقَرَابَةَ  
 ثُمَّ اسْتَبَدَّ كُلُّ كَلْبٍ كَافِرٍ ❁❁ بِالضُّعْفَاءِ مِثْلِ آلِ يَاسِرٍ  
 وَبَعْضُهُمْ هَاجَرَ خَوْفَ الْفِتْنَةِ ❁❁ وَلَاشِدِّ مَا لَقَوْا مِنْ مِحْنَةٍ  
 مِثْلُ ابْنِ عَفَّانٍ وَمِثْلُ جَعْفَرٍ ❁❁ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِخَيْرٍ مَهْجَرٍ  
 وَلِأَبِي بَكْرٍ إِمَامِ السُّنَّةِ ❁❁ حَدِيثُ هِجْرَةٍ مَعَ الدُّغْنَةِ  
 وَرَاجِعُوا فِيهِ أَبَا طَالِبٍ أَنْ ❁❁ يَرُدَّهُ إِلَى عِبَادَةِ الْوَثْنِ  
 وَيَتْرُكَ الدِّينَ وَمَا لَدَيْهِمْ ❁❁ حَتَّى يَصِيرَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ  
 فَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا لِدِينِي ❁❁ لَو تَضَعُونَ الشَّمْسَ فِي يَمِينِي  
 وَظَنَّ أَنْ عَمَّهُ يَخْذُلُهُ ❁❁ وَأَنَّ أَهْلَهُ جَمِيعًا مِثْلَهُ  
 وَامْتَلَأَتْ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ ❁❁ وَحَزِنَ التَّابِعُ لِلْمَتْبُوعِ  
 قَالَ أَبُو طَالِبٍ لَا تَبَالِ ❁❁ بِقَوْلِهِمْ وَوَالٍ مَنْ تُوَالِ

وَعَادِ مَنْ شِئْتَ فَلَنْ تَرَانَا ❁❁  
 وَمَاتَ زَوْجُهُ وَعَمَّهُ الرَّحِيمُ ❁❁  
 وَاشْتَدَّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ قَرِيشٍ ❁❁  
 وَالتَّمَسَ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ ❁❁  
 أَغْرُوا بِهِ الْعَبِيدَ وَالصَّبِيَانَا ❁❁  
 وَعَادَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ قَدْ ❁❁  
 فَعَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى الْقَبَائِلِ ❁❁  
 وَبَلَغَ السَّيْلُ الرُّبَى مِنْ قَوْمِهِ ❁❁  
 فَحَالَفَ الْأَنْصَارَ حِينَ حَجُّوا ❁❁  
 وَرَحَّبَتْ يَثْرِبُ بِالصَّحَابَةِ ❁❁  
 وَحَمَزَةُ وَالْفَارُوقُ ثُمَّ عُثْمَانُ ❁❁  
 إِلَّا حَوَالِيكَ كَمَا تَرْضَانَا ❁❁  
 وَاعْتَصَمَ النَّبِيُّ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ❁❁  
 فِي نَفْسِهِ وَعَرْضِهِ وَالْعَيْشِ ❁❁  
 لَكِنَّهُ قُوبِلَ بِالتَّعْنِيفِ ❁❁  
 وَلَمْ يُبَالِ مِنْهُمْ الْهَوَانَا ❁❁  
 أَجَارَهُ الْمُطْعَمُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ❁❁  
 عَلَى كِبَارِهِمْ وَفِي الْمَحَافِلِ ❁❁  
 وَكَانَ أَمْسُ الْكُفْرِ دُونَ يَوْمِهِ ❁❁  
 وَكَبَّتَ اللَّهُ الَّذِينَ احْتَجُّوا ❁❁  
 وَاجْتَمَعَتْ فِيهَا أُسُودُ الْغَابَةِ ❁❁  
 وَعَامِرُ صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ ❁❁

## حَدِيثُ بَدءِ الْوَحْيِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من طرق إلى الزهرى، عن عروة، عن عائشة<sup>(١٨٨)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ» وكان ابتداء الرؤيا الصالحة في شهر ربيع الأول حين بلغ رسول الله ﷺ سن الأربعين، واستمرت مدتها ستة أشهر: تمهيداً لوحى اليقظة وَبَدءِ نزول القرآن في شهر رمضان من السنة نفسها، وليس معنى ذلك أن الرؤيا الصادقة انقطعت بنزول القرآن؛ بل استمرت مع رسول الله ﷺ بقية حياته ومدة رسالته التى هى ثلاثة وعشرون عاماً، وما زالت كذلك مع سائر المؤمنين، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكْذُرُؤِيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذِبٌ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا

(١٨٨) أخرجه الأئمة من طرق إلى الزهرى عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

١- البخارى في صحيحه: كتاب بدء الوحي، الحديث الثالث ٢٢/١ من طريق عقيل ابن خالد عن الزهرى .. به، واللفظ له، وفي كتاب التفسير/ باب تفسير سورة العلق: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ٧١٥/٨ من طريق عقيل ويونس بن يزيد، عن الزهرى .. به، وفي أبواب: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٧٢٢/٨، ٧٢٣ من طريقى: عقيل ومعمر بن راشد، عن الزهرى .. به مختصراً، وفي كتاب التعبير/ باب أول ما بُدِيَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٣٥١/١٢، ٣٥٢ من طريق عقيل ومعمر، عن الزهرى .. به، وفيه زيادة منقطع سندها وشاذٌ منها: سيأتى الحديث عنها تحت عنوان: «فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قَبِلَ فِيهَا» ص ١٦٣.

٢- ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٣٩/١: ١٤٢ من طريق يونس عن الزهرى .. به، وفي ١٤٢، ١٤٣ من طريق معمر عن الزهرى .. به، بمثل حديث يونس غير أنه قال: فوالله لا يجزئك الله أبداً، وقال: قالت خديجة: أى ابن عم!! اسمع من ابن أخيك، ومن طريق عقيل عن الزهرى .. به، قالت عائشة زوج النبي ﷺ: فرجع إلى خديجة يرجف فؤاده، واقتصر الحديث بمثل حديث يونس ومعمر، ولم يذكر أول حديثها من قوله: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.

وشرح ألفاظ الحديث مستفادٌ من: شرح النووى لصحيح مسلم ١٩٨/٢: ٢٠٣، وفتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٣/١: ٢٨، ومراجع أخرى تأتى الإشارة إليها في حينها.



مِنَ النَّبُوَّةِ، وَمَا كَانَ مِنَ النَّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ» (١٨٩).

«فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ» فلق الصبح: ضياؤه، ويقال هذا في الشيء الواضح اليقين.

«ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ» وذلك لما يتبعه من الخلوة والعزلة، وهي مستحبة؛ لما يصحبها من فراغ القلب وخشوعه وإعانتته على التدبر، والبعد عن المنكرات، والتأذى برؤية أصحابها، قال النووي: الخلوة شأن الصالحين، وعباد الله العارفين.

«فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ» جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال: خمسة كيلو مترات، عن يسار الذهاب من مكة إلى منى، وهو الآن داخل عمران مكة ويُعرف بجبل النور، قال الحافظ ابن حجر: الذي كان يخلو فيه هو شهر رمضان، وأن قريشاً كانت تفعله، كما كانت تصوم عاشوراء، ولم ينازعوا النبي ﷺ في ذلك، لأن جده عبدالمطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته، وكبر سنه، فكان ﷺ يخلو بمكان جده، وسلّم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم، قال ابن أبي جمرة: الحكمة من تخصيصه بالتخلي في غار حراء: أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت (١٩٠).

(١٨٩) صحيح البخارى: كتاب التعبير/ باب القيد في المنام ح ٧٠١٧ عن أبي هريرة، وينظر: جامع الترمذى: كتاب الرؤيا عن رسول الله ﷺ/ باب: أن رؤيا المؤمن جزء من سنته وأربعين جزءاً من النبوة ٤/٤٦١ ح ٢٢٧٠، وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

(١٩٠) (الغار) الكهف، والتقب في الجبل، وانظر: فتح البارى ١٢/٣٥٥ باختصار مع زيادات وتصرف يسير، ومعجم البلدان ٢/٢٣٣.

«فَيَحْتَضُّ فِيهِ، قَالَ: وَالتَّحَنُّ: التَّعَبُّدُ» القائل هو الإمام: الزهري يفسر به كلمة: التحنث، وهو تفسيرٌ صحيحٌ مدرجٌ في الحديث؛ لأن أصل الحنث، هو: الإثم، ومعنى يتحنث: يتجنب الحنث، فكانه بعبادته يمنع نفسه من الحنث، ومثل هذا كثير في كلام العرب، يقال: يتحرج، ويتأثم، ويتقذر، يعنون: تَجَنَّبَ الحرج والإثم والقذر (١٩١).

«اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ» والمعنى: أن الوحي نزل على رسول الله ﷺ بغتة؛ بلا مقدمات، لأنه ﷺ لم يكن متوقفاً ذلك، ولا مترقباً له.

وما وقع من النبي ﷺ عند مفاجأة الوحي له أول مرة فإنه مثل ما حدث لكليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أمره ربه بإلقاء العصا: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه]، ففر خائفاً كما وصفه الله عز وجل في كلامه العزيز: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ حتى طمأنه الله وأنسه بقوله سبحانه: ﴿يَمْوَسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ [القصص]: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه]، فهذا الفرع أمر فطري، وشئ طبيعي، لا يُدْمَمُ به العبد، ولا يعاتب عليه، ولا يُتَفَضُّ به، والله أعلم.

«فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: «أَقْرَأْ» فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» معناه: لا أحسن القراءة، وفيه دليل على أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وليس هو من مراسيل الصحابة كما يتوهم، والله أعلم (١٩٢).

(١٩١) ينظر: فتح الباري ١/٢٣، والنهاية ١/٤٤٩.

(١٩٢) شرح النووي لصحيح مسلم ٢/١٩٩، وتدريب الراوي ١/١٠٧.

«قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ» يقال: غطه وغطه، أى: ضغطه وعصره، والجُهدُ بفتح الجيم وضمها: الغاية والمشقة، قال ابن الأثير: الجهد بالضم: الوسع والطاقة، وبالفتح: المشقة، وقيل المبالغة والغاية. وأما حرف الدال في قوله «الجُهدُ» فيجوز نصبها ومعناه: بلغ جبريلُ مني الجهدَ، ويجوز رفعها ومعناه: بلغ الجهدُ مني مبلغه وغايته (١٩٣).

«ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: «أَقْرَأْ» قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: «أَقْرَأْ» قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ أَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]

فكانت هذه الآيات الخمسة أوَّل ما نزل من القرآن الكريم، وبها بدأت نبوة حبيبنا محمد ﷺ وكان ذلك في إحدى ليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان كما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة].

وبالتحديد في ليلة القدر منه، كما ورد التصريح بذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنزِيلُ الْمَلَكِ كَرِيهُمُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر].

وكفاها منزلةً وشرفاً وصف الله لها بذلك، كما في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴿١﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٣﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤﴾﴾

رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ [الدخان].

ولا يعارض هذا حديث جابر المتفق عليه أيضًا الذى نصَّ فيه على أن أول ما نزل: الآيات الأولى من سورة المدثر، وقد عقَّبَ ابن حبان على هذين الحديثين بقوله: «إن أول ما أنزل من القرآن - فى خبر جابر - ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ﴾ وفى خبر عائشة: ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وليس بين هذين الخبرين تضاد، إذ الله عز وجل أنزل على رسول الله ﷺ: ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو فى الغار بحراء، فلما رجع إلى بيته: دثرته خديجة وصبت عليه الماء البارد، وأنزل عليه فى بيت خديجة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ﴿٢﴾ الآيات، من غير أن يكون بين الخبرين تماثر أو تضاد (١٩٤).

وقال السيوطى: إن مراد جابر بالأولية: أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، لا أولية مطلقة، أو أن المراد: أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ كما فى حديث عائشة، وأول ما نزل للرسالة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ﴾ كما فى حديث جابر (١٩٥).

﴿فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ﴾ فيه إشارة إلى الحال الظاهرة لرسول الله ﷺ التى انتابته من الفزع، ومعنى ترجف: ترعد وتضطرب، وأصل الرجف: شدة الحركة، والبوادر:

(١٩٤) صحيح البخارى: كتاب بدء الوحي ١/٢٧ ح ٤، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/١٤٣/١٤٥، وصحيح ابن حبان: كتاب بدء الوحي/ باب ذكر القدر الذى جاور المصطفى ﷺ بحراء عند نزول الوحي عليه ١/١٢١، ١٢٢، وسيأتى مزيد من التعقيب والتخريج على الحديثين فى: «فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قَبْلَ فِيهَا».

(١٩٥) الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٣، ٢٤ حيث ذكر توجيهات خمسة للعلماء فى التوفيق بين حديثى عائشة، وجابر، ورجح الأول والأخير منها، لكنى اخترت من بينها: التوجيه الثانى والثالث اللذين نقلتهما عنه، والله أعلم.

جمع بادرة، وهى: اللحمة التى بين المنكب والعتق، تضطرب عند فزع الإنسان، وفي بعض الروايات: «يَرْجُفُ فَوْادُهُ» وفيه إشارة إلى الحال الباطنة، قال ابن حجر: إسناد الرجفان إلى القلب لكونه محله، وإلى البوادر لأنها مظهره (١٩٦).

«حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» أي: غطوني، ولفوني بالثياب (١٩٧).

«فَزَمِّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِحَدِيجَةَ: أَيُّ خَدِيجِيَّةٍ!! مَا لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي!» أي: خفت على نفسي، وقد ذكر العلماء اثني عشر قولاً في سبب ذلك الخوف؛ حاصلها: ما ينزل به من مكروه كالمرض ونحوه، ومنها ما يَتَّهِمُهُ النَّاسُ به كالجنون، وما سوى ذلك من أقوالٍ فعليه اعتراضات (١٩٨).

«فَأَخْبَرَهَا الْحَبْرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبَشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُجْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا» (\*فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ) وهو: من لا يستقل بأمره، لضعفه أو لعله فيه، وأصله من التعب، والإعياء والثقل، والمعنى: إنفاقه على الضعيف واليتيم وصاحب العيال (١٩٩).

«وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ» روى في حرف المضارعة الضم والفتح، فمعناه بالضم: تعطى غيرك المال المعدوم تبرعاً، قال الحافظ ابن حجر: فكأنها قالت: إذا رغب غيرك أن يستفيد مالا

(١٩٦) فتح البارى ١/٢٨، ١٢/٣٥٨، والنهاية ١/١٠٦.

(١٩٧) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص ٣١٥.

(١٩٨) يراجع في تلك التفسيرات والتعقيب على كل منها: فتح الباري ١/٢٤.

(\* الحزى: وهو الهلاك، أو الوقوع في بلية، وفي بعض روايات الحديث: «لَا يُجْزِيكَ» من الحزْن وهو معروف، ينظر: النهاية ٢/٣٠.

(١٩٩) يُنْظَرُ: النهاية ٤/١٩٨، ومقاييس اللغة ٥/١٢١، ١٢٢.

موجودًا: رغبت أنت أن تستفيد رجلاً عاجزاً فتعاونه، ومعناه بالفتح وهو الراجح: تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق، فحذف أحد المفعولين، وقيل: معناه تكسب المال المعدوم، وتصيب منه ما لا يصيب غيرك، أى: أن لديه قدرة على كسب المال ليست لغيره، وكانت العرب تتماح بكسب المال وجمعه، وقد كان لرسول الله ﷺ في التجارة نصيب وافر، قال النووي: يمكن تصحيح هذا إذا قيل: تكسب المال العظيم الذى يعجز عنه غيرك، ثم تجود به فى وجوه الخير، وأبواب المكارم، كحمل الكُلِّ، وصلة الرحم، وقرى الضيف، والإعانة على نوائب الحق.

«وَتَقْرِي الضَّيْفَ» ما يقدم إكرامًا للضيف، ويقال للطعام الذى يقدم له: قَرَى.

«وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ» النوائب: جمع نائبة، وهى الحادثة الشديدة، وإنما قالت أمنا خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «نَوَائِبِ الْحَقِّ» لأن النائبة قد تكون فى الخير، وقد تكون فى الشر، وهى كلمة جامعة لما تقدم من الأوصاف التى ذكرتها.

وهذا الموقف من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا معه ﷺ: من أشرف المواقف التى تُحمد لامرأة فى الأولين والآخرين: طمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدة له: أن الأبرار من أمثاله لا يخذلون أبدًا، وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم الجزلة والمناقب السمحة؛ فإنما ذلك ليجعله: أهلاً لإعزازه وإحسانه، وأنه لا يصيبه مكروه، لما جعل الله فيه من مكارم الأخلاق، وكرم السمائل، وخصال الخير، وعظيم الشيم، ونبيل الصفات... ومن كانت هذه أوصافه فسوف ينجيه الله من مصارع السوء، وفى هذا من التسلية والتأنيس والتبشير لرسول الله ﷺ الشىء الكثير من أم المؤمنين خديجة حين توقع ﷺ ضرراً أو خاف نزوله به، فذكرت له رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من أسباب السلامة ما يُطمئن نفسه ويدفع عنها كل همٍّ وغمٍّ،

وفي هذا أعظم دليل، وأبلغ حجة على كمالها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضاهَا؛ لأن للنبوة أثقالاً ومؤنة لا يحملها إلا أهل القوة وأولوا العزم من الأنبياء والرسل (٢٠٠).

«فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ: حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ: اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ» وفي رواية أخرى: «يا عمّ» وهي عند البخارى في تفسير سورة العلق، وهي في أولى روايتي الإمام أحمد؛ بل: وصححها الحاكم وابن حبان، فلم ينفرد بها الإمام مسلم، قال النووي: سَمَّتهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عمًّا مجازًا للاحترام، وهذه عادة العرب في آداب خطابهم، يخاطب الصغير الكبير: بياعم، احترامًا له، ورفعًا لمرتبته، ولا يحصل هذا الغرض بقولها: يا ابن عم: وإن كان ابن عمها حقيقة، فإنه: ورقة بن نوفل بن أسد، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد، وهكذا هو في الأصول في الأول (عم) وفي الثانى (ابن عم) وكلاهما صحيح، والله أعلم.

وهذا الكلام من الإمام النووي مع نفاسته؛ لكنه لم يُرضِ الحافظ ابن حجر حيث قال: وقع في مسلم (يا عم) وهو وَهْمٌ، لأنه وإن كان صحيحًا لجواز إرادة التوقير، لكن القصة لم تتعدد، ومخرجها متحد، فلا يحمل على أنها قالت ذلك مرتين، فتعين الحمل على الحقيقة، وهذا الحكم يطرد في جميع ما أشبهه (٢٠١).

وأقول: ما المانع أن تكون عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قد سمعت الحديث من النبي ﷺ أكثر من

(٢٠٠) شرح النووي لصحيح مسلم ٢/٢٠٢ بتصرف.

(٢٠١) يراجع: شرح النووي لصحيح مسلم ٢/٢٠٣، وفتح البارى ١/٢٥.

مرة، أو أنها حدثت بلفظه مرّة، وبمعناه مرّة أخرى، وقد أكدت الحقيقة قبل بقولها: «وَهُوَ ابْنُ عَمِّ حَدِيحَةَ أَخِي أَبِيهَا» كما ورد في بعض روايات البخارى: «قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» وفي بعضها الآخر: «قَالَ مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» فالوهم في رواية: «يا عَمِّ» مستبعد؛ لما قدمناه، ومادام الجمع ممكنا بين الروايات؛ فهو أولى من توهين إحداها، فهو ابن عمها حقيقة، إذ اسمه: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي القرشي، قد كره عبادة الأوثان، وطلب الدين في الآفاق، وارتحل إلى الشام، مفارقاً لقومه مع زيد بن عمرو بن نفيل، وعثمان بن الحويرث، وعبيدالله بن جحش، يطلبون الدين الصحيح، فتنصروا كلهم، لأنهم وجدوه أقرب العقائد إلى الحق حين ذلك، إلا زيد بن عمرو بن نفيل فإنه رأى في تلك العقيدة تحريفاً وتأويلاً، وتبديلاً وتخليطاً، فأبت فطرته قبولها، فرجع ينتظر ظهور النبي الذي أزف زمانه، واقترب أوانه، واستمر على فطرته وتوحيده، ولكنه توفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمسة أعوام (٢٠٢).

أما ورقة، فقد أعجبه دين النصرانية، ولعله لقي من الرهبان من بقى على دين عيسى، الذي لم يبدل، فدخل في النصرانية، وقرأ الكتب، وسمع من التوراة والإنجيل، وكان قد تعلم اللسان العبراني، والكتابة العبرانية، فكان يكتب الكتاب العبراني، كما كان يكتب الكتاب العربي، وقد تمكن من ذلك، حتى صار يكتب من الإنجيل أى موضع شاء بالعربية، أو بالعبرانية على السواء، لتمكنه من اللسانين معاً، ولهذا أخبر بشأن النبي، والبشارة به، وغير ذلك مما أنكره وكنمه أهل الكتاب، وأفسده أهل التحريف والتبديل، وهو عم خديجة: إكراماً وتوقيراً لمكانته وكبر سنه، والله أعلم.

(٢٠٢) وقد سبق تفصيل خبره، وتمحيص الأحاديث الواردة في ذلك تحت عنوان: «تحقيق حول إسلام زيد بن عمرو بن



«قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى» يعنى: أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقال: نمست الرجل، ونامسته: ساررته، ونمست السر؛ أى: كتتمته، قال الهروى: سمي جبريل بذلك: لأن الله تعالى خصه بالغيب والوحي (٢٠٣).

وهذا دليل على فقهه وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ: حيث لم يذكر عيسى، مع أنه متأخر، وكان على شريعته، لأن كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مشتمل على أكثر الأحكام، وكذلك الكتاب الذى ينزله الله على رسوله ﷺ مهيمناً على ما سبقه.

أو: لأن موسى بُعِثَ بالنقمة على فرعون ومن معه، وكذلك وقعت النقمة على يد النبى ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو: أبو جهل بن هشام، ومن معه بيدر.

أو: قاله تحقيقاً للرسالة، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسى، فإن كثيرين من اليهود ينكرون نبوته، كما أن شريعة عيسى متممة لشريعة موسى ﷺ.

وهذا القول من ورقة موافق لمقالة الجن حين سمعت القرآن كما قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف].

ومن راحة عقل ورقة: أنه توسم النبوة في شخص رسول الله ﷺ قبل بعثته، لما ظهر عليه من الدلائل والآيات، وانطبع فيه من عظيم الصفات، وجميل الأخلاق، ولما كانت تحدته عنه خديجة، وتصفه له، ولذا لما أخبرها رسول الله ﷺ بما وقع له في الغار: انطلقت به إلى

ورقة، ووقفت به عليه، وقالت: ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فلما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى، قال: هذا الناموس الذى أنزل على موسى.

«لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْخُرِجِي هُمْ؟!» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ! لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُوْدِي وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا» أي: تمنى أن يكون شابًا فتيا قويًا متمكنًا من الإيوان، والعلم النافع، والعمل الصالح، حتى ينصر النبي ﷺ ويؤازره، ويحميه في مدة النبوة وأيامها، ويجاهد معه الكفار الذين سيكذبونه، ويعادونه، ويؤذونه، ويقاتلونه، ويخرجونه، كما عرف ذلك من الكتب المتقدمة، وأصل الجذع: من أسنان الدواب، وهو ما كان منها شابًا فتيا، وهو هنا استعارة (٢٠٤).

قال الإمام ابن القيم: وأسلم القسُّ ورقة بن نوفل، وتمنى أن يكون جدعًا إذ يُخْرِجُ رسول الله ﷺ قَوْمَهُ، ولذا ذكره الحافظ ابن حجر في القسم الأول من الإصابة، وقال: ذكره الطبري، والبغوي، وابن قانع، وابن السكن، وغيرهم في الصحابة، ثم نقل عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي مسرة - واسمه: عمرو بن شرحبيل، وهو من كبار التابعين - أن ورقة قال للنبي ﷺ: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم، وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل، وأنت سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركنى ذلك لأجاهدَنَّ معك، ثم قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وهذا أصرح ما جاء في إسلام ورقة (٢٠٥).

قال الإسماعيل: مَوَّهَ بَعْضُ الطَّاعِنِينَ عَلَى الْمُحَدِّثِينَ فَقَالَ: كَيْفَ يَجُوزُ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَرْتَابَ فِي نَبَوْتِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى وَرَقَةَ وَيَشْكُو لِحَدِيحَةٍ مَا يَخْشَاهُ؟ .. وَلِئِنْ جَازَ أَنْ يَرْتَابَ مَعَ مَعَايِنَةِ النَّازِلِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، فَكَيْفَ يَنْكُرُ عَلَى مَنْ ارْتَابَ فِيهَا جَاءَهُ بِهِ مَعَ عَدَمِ الْمَعَايِنَةِ؟

(٢٠٤) ينظر: النهاية ١/٢٥٠. ويراجع: البداية والنهاية ٣/٨، ٩، وفتح الباري ١/٢٥، ٨/٧٢٠.

(٢٠٥) زاد المعاد ٣/٢١، والإصابة ١٠/٣٠٤: ٣٠٧، وفتح الباري ٨/٧٢٠.

قال الإسماعيلي: والجواب: أن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد: من ذلك، فلما فجئه الملك فجئه بغته؛ أمر خالف العادة والمألوف: فنفر طبعه البشري منه وهاله ذلك، ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل طباع البشر كلها، فلا يُعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه؛ حتى إذا اندرج عليه وألفه استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي أُلّف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له، فهونت عليه خشيته بما عرفته من أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفة بصدقته ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه: أيقن الحق واعترف به (٢٠٦).

«ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَّةُ أَنْ تُؤْفَى» أي: لم يلبث، ولم يمكث طويلاً، فرحمه الله ورضى عنه، لأنه صدر منه تصديق بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل (٢٠٧).

وهذا أقوى وأصح مما ورد في السيرة عن ابن إسحاق قال: حدثني هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال، والمشركون يعذبونه، وهو يقول: أَحَدٌ، أَحَدٌ، فيقول ورقة: أَحَدٌ، أَحَدٌ والله! يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بنى جُحج، فيقول: أحلف بالله! لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً (٢٠٨)، أي: رحمة به، وعطفاً عليه، وتوجعاً له، وفي ذلك دلالة على تأخر وفاته قليلاً بعد زمن النبوة، لكن ذلك السند مرسل حيث وُلِدَ عروة

(٢٠٦) فتح الباري ١٢/٣٦٠، وسبل الهدى والرشاد ٢/٣٦٨.

(٢٠٧) لسان العرب ٦/٤٤٣٠، والبداية والنهاية ٣/٩، وفي فتح الباري ١/٢٧ كلام نفيس في هذا الشأن فليراجعه من أحب.

(٢٠٨) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١٨، وزاد المعاد ٣/٢٢.

بن الزبير في أوائل خلافة عثمان، وتوفي سنة أربع وتسعين من الهجرة، فهو من أوسط طبقات التابعين (٢٠٩).

«وَفَتَرَ الْوَحْيُ فِتْرَةً» والمعنى: انقطع الوحي واحتبس مدة من الزمان ليست بطويلة، وهذا فترة قليلة ليستريح رسول الله ﷺ من هول ما رأى ومفاجأة الملك له وحيدا في الغار إذ كان «يَرْجُفُ فُؤَادُهُ» وترعد وتضطرب «بَوَادِرُهُ».

فمعنى فتر الوحي: هدأ بعد حدة، يقال: فتر الماء إذا ضَعَفَ حره؛ ولذا عبر عن تواصل الوحي وتواليه في حديث جابر المتفق عليه بقوله: «فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

قال الحافظ ابن حجر: «فَحَمِيَ الْوَحْيُ» أي: جاء كثيرا، وفيه مطابقة لتعبيره عن تأخره بالفتور، إذ لم يتنه إلى انقطاع كلي، حتى يوصف بالضد وهو البرد، وقوله: «وَتَتَابَعَ» تأكيد معنوي، ويحتمل أن يراد بحمي: قوى، وتتابع: أى تكاثر، وفي بعض الروايات: «وتواتر» وهو مجيء الشيء يتلو بعضه بعضا من غير تخلل.

وكانت مدة تلك الفترة نحوًا من شهر، لقوله ﷺ في حديث جابر (٢١٠): «جَاوَزْتُ بِحِرَاءِ شَهْرًا فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي، نَزَلْتُ، فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيْتُ، فَنظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرْ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يعنى: جبريل - فَأَخَذْتَنِي وَجَفَّةً شَدِيدَةً، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثَّرُونِي، فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً»

(٢٠٩) تقريب التهذيب ص ٣٨٩.

(٢١٠) ومن ثم: كان الإمام الزهري يحدث عن أبي سلمة، عن جابر بهذا الحديث عقب تحديثه بحديث عائشة المتقدم؛ الذى سبق تخريجه تحت رقم ١٨٨، حتى ظن بعض الناس: أن حديث جابر هذا معلق الإسناد، والحق أنه متصل بإسناد حديث عائشة، وهكذا أخرجهما الشيخان.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ (٢١١).

وروى ابن سعد بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً، وهذا يخالف ما وقع في تاريخ الإمام أحمد عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين.

وهذا مرسل لا يثبت، ولا ينبغي أن يعارض به ما ورد في الأحاديث الصحيحة، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده، وهو ربيع الأول، بعد إكماله ﷺ أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان من السنة نفسها، ثم فتر الوحي تلك الفترة، ليستريح رسول الله ﷺ من شدته وعناقه، وليذهب عنه ﷺ من الروح ما كان قد وجده، وليحصل له التشوف إلى العود وليتشر خبره في بطانته وعشيرته، ومن يستمع لقوله، ويصغى إليه، ويقارنوا بينه وبين غيره، حتى يعرفوا ما اختص به دون غيره، وما امتاز به على من سواه.

ولهذا حزن النبي ﷺ حزناً شديداً، حين فتر عنه الوحي بعض الوقت، مخافة أن يكون ثمة شيء، أو حدث أمرٌ تحولت به النبوة عنه، أو انقطع بسببه الوحي، وهذا الحزن منه ﷺ أمر طبيعي؛ بل شيءٌ حتمي، لأن الرسالة والوحي ليسا من الأشياء التي يستهان بها، أو لا يأسف على فواتها، ولذا فإن حزنه ﷺ ذاك مما يحسب له، ويحمد عليه، ولا ينبغي أبداً أن يتهم فيه بقادح أو أن يُطعن عليه بسببه، قال الإسماعيلي: كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي، فيتدرج فيه ويتمرن عليه، فشق عليه فتوره، إذ لم يكن خوطب عن الله تعالى بعد: أنك رسول

الله ومبعوثاً إلى العباد، فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدئياً به ثم لم يرد استتمامه، فحزن لذلك حتى إذا اندرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه: فتح الله له من أمره بما فتح (٢١٢).

ومن ثم ذكر أن الوحي أبطأ عن رسول الله ﷺ في بعض الأوقات، كما ثبت ذلك في الصحيح عند تفسير سورة الضحى، وما ذكره السيوطي في سبب نزولها، وسبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٣١﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] (٢١٣).

بل كان النبي ﷺ يأنس بنزول جبريل ويشتاق إليه إذا تأخر نزوله، ففي صحيح البخاري وجامع الترمذي ومسنَد الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَبِيبِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُزَوِّرَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تُزَوِّرُنَا» قَالَ: فَتَزَلْتُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٦٤].

وبعد أن سردنا لفظ حديث عائشة المتفق عليه في بدئ الوحي، وتعرفنا بإيجاز على بعض معانيه: نتوقف عند بعض أجزاءه لنجلى الحقائق التالية:

وفي قول عائشة: «ثم حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ» دليل على أن هذا الأمر لم يكن من عند نفسه، ولا بتفكير منه ﷺ، ولا بإعداد لذلك كما زعم بودلي، ومن لفَّ لفه، وإنما كان هذا بإلهام من الله تعالى

(٢١٢) ينظر في ذلك: الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١/١٣١، وفتح الباري ١/٢٧/٢٨، و١٢/٣٦٠، و٣٦١، وعمدة القاري ١/٥٥، ٥٦.

(٢١٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: تفسير سورة الضحى ٧٠٩/٨: ٧١١، وأسباب النزول للسيوطي ص ١١٥، ١٨١، ١٨٢، وحديث: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُزَوِّرَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تُزَوِّرُنَا» أخرجه البخاري ح ٣٢١٨ و٤٧٣١ و٧٤٥٥ واللفظ له، والترمذي ح ٣١٥٨، وأحد ح ٢٠٤٣ و٢٠٧٨ و٣٣٦٥.

له ﷺ، ومن ثم كان الفعل - حُبِّبَ - مبنياً للمفعول، قال الحافظ ابن حجر لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كلُّ من عند الله، أو لينبه على أنه لم يكن من باعث الشر، أو يكون ذلك من وحي الإلهام (٢٢٩).

ورواية ابن إسحاق تصرح بذلك إذ فيها تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَحَبَّبَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الْخُلُوةَ، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلو وحده» (٢٣٠).

وما وقع من النبي ﷺ عند مفاجأة الوحي له أول مرة فإنه مثل ما حدث لكليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أمره ربه بإلقاء العصا: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه]، ففر خائفاً كما وصفه الله عز وجل في كلامه العزيز: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ حتى طمأنه الله وآنسه بقوله سبحانه: ﴿يَمْسُقْ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأُمْنِينِ﴾ [القصص] ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه]، فهذا الفزع أمر فطري، وشيء طبيعي، لا يدوم به العبد، ولا يعاتب عليه، ولا يُتَّقَصُّ به، والله أعلم.

وفي قولها: «حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ...»: أوضح دلالة على أن النبي ﷺ كان في غاية التيقظ والانتباه حين جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ - لأول مرة - بالآيات الأولى من صدر سورة العلق.

وهذا الحديث الصحيح أبلغ رد على الرواية الضعيفة التي ذكرها ابن إسحاق، وتناقلها عنه

(٢٢٩) فتح الباري ١/٢٢، ٢٣ وراجع ما تقدم ص ١٢٦، وص ١٤٣ وما بعدها.

(٢٣٠) والسيرة النبوية لابن هشام ١/٢٣٤ وسندها صحيح، قال ابن إسحاق فذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها حدثته أن أول ما بدى به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به: الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلو فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

غيره من كُتَّاب السيرة ؛ حتى بعد أن تجاوزت مرحلة الجمع والتصنيف إلى مرحلة النقد والتمحيص، فهذا آخر كتاب وَقَفْتُ عليه في هذا العلم يقول فيه صاحبه (٢٣١): أما الخبر الذي أورده ابن إسحاق عن كيفية بدء الوحي، والذي قال فيه «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ...» فهو يخالف في الظاهر حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخاري ومسلم الذي فيه التصريح بأن مجيء الوحي كان في حالة اليقظة، وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نزول الوحي، ولذا قال السهيلي: وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي ﷺ جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة، توطئة وتيسيراً عليه ورفقا به، لأن أمر النبوة عظيم، وعبئها ثقيل والبشر ضعيف، وقال ابن كثير بما قاله السهيلي ثم زاد: «...وقد جاء مصرحا بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، أنه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة» وقال في مكان آخر: «ويحتمل أن هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلة إذ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة، والله أعلم» (٢٣٢).

وقال أحد شيوخنا المعاصرين: لقد نقل ابن إسحاق أن أول نزول جبريل عليه كان في الرؤيا إيناساً له، وتمهيداً للمواجهة في اليقظة، قال ابن إسحاق... ثم ذكر الرواية سنداً ومتناً إلى الآيات الخمسة الأولى من سورة العلق، ثم قال: وكان هذا الموقف قبل نزول جبريل عليه في اليقظة، وفي شهر رمضان الذي نزل عليه فيه يقظة تهيئة وتمهيداً وإيناساً وإعداداً (٢٣٣).

(٢٣١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية للدكتور مهدي رزق الله أحمد. الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ. ١٩٩٢ م.

(٢٣٢) المصدر السابق ص ١٤٨، ١٤٩، وانظر أيضاً الروض الأنف ٢/٣٩٢، ٣٩٣، والبداية والنهاية ٣/٤، ٥، ١٤، ١٥.

(٢٣٣) ينظر كتاب: قيس من نور النبوة ص ١٢، ١٣، تحت عنوان: «الوحي إلى الرسول ﷺ» للأستاذ الدكتور عزت



والذى أراه أن رواية ابن إسحاق ضعيفة سندًا وممتًا، ولا حاجة لكل هذه الفروض والاحتمالات التى حاول بها العلماء التوفيق بينها وبين حديث عائشة المتفق عليه.

### لَمْ يُوحَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَنَامًا

أجمع أهل العلم من المفسرين وغيرهم على أن القرآن الكريم لم يوح إلى النبي ﷺ شيء منه منامًا، وإذا وُجد في بعض الأحاديث ما يتوهم منه ذلك: فإنهم فسروه بما كان يلاقه ﷺ من ثقل الوحى وشدته، فيظن البعض أنه نائم، وليس كذلك في الحقيقة؛ بل هو متفرغٌ للوحى، منشغلٌ به عن كل شيء حوله، كما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ هَلْ تُحَسُّ بِالْوَحْيِ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ! أَسْمَعُ صَلَاحًا لَمْ أَسْكُتْ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تَفِيضُ» (٢٣٩).

وفىما يلى ذكر لتوجيهات العلماء حول نزول سورة الكوثر؛ لأنه أصرح حديث يمكن أن يَفْهَمُ منه بعض الناس أن شيئًا من القرآن أوحى إلى النبي ﷺ فى المنام ولفظه عند الإمام مسلم بسنده، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً، ثُمَّ

عطية.

(٢٣٩) مسند الإمام أحمد ٢/٢٢٢ وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ تحت رقم ٧٠٧١ والعجب من الشيخ شعيب الأرنؤوط حيث ضعف هذا الحديث من أجل ابن لهيعة!! وذلك فى تحقيقه للمسند ١١/٦٤٢، والحق كما قال الهيثمى: رواه أحمد والطبرانى، وإسناده حسن. مجمع الزوائد ٨/٢٥٦ لأن: عبد الله بن لهيعة بن عقبه المصرى؛ وثقه أحمد وقال: من كان مثل ابن لهيعة بمصر فى كثرة حديثه، وضبطه، وإتقانه؟! وراوى هذا الحديث عنه هو: قتيبة بن سعيد، كان يتتبع أصوله، وشيخه يزيد بن أبى حبيب: ثقة، فقيه، مات قبل ابن لهيعة بِنَيْفٍ وأربعين سنة، فحديثه عنه قبل الاختلاط، وقد قال الحافظ الذهبى عن ابن لهيعة: حدث عنه طائفةٌ قبل أن يكثر الوهم فى حديثه، فحديثهم عنه أقوى، وبعضهم يصححه، ولا يرتقى إلى هذا. تذكرة الحفاظ ١/٢٣٧. والتهذيب ٥/٣٧٣: ٣٧٩.

رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتُ سُورَةِ» فقراً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴿٢﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٣﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٤﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكُوثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَاتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ! إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحَدَثْتَ بِعَدِّكَ» (٢٤٠).

قال الإمام الرافعي في أماليه: فَهْمٌ فَهْمُوا من الحديث أن سورة الكوثر نزلت في تلك الإغفاءة، وقالوا: من الوحي ما كان يأتيه في النوم لأن رؤيا الأنبياء وحى، قال: وهذا صحيح - يعنى أن الرؤيا وحى - لكن الأشبه أن يقال: القرآن كله نزل في اليقظة، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة، أو عُرض عليه الكوثر الذى وردت فيه السورة، فقرأها عليهم وفسرها لهم، قال: وورد في بعض الروايات أنه أغمى عليه، وقد يحمل ذلك على الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحي، قال الحافظ السيوطى: الذى قاله الرافعى في غاية الاتجاه، وهو الذى كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه، والتأويل الأخير أصح من الأول لأن قوله: «أنزل على آفأ» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نقول: نزلت في تلك الحالة، ليس الإغفاءة إغفاءة نوم، بل الحالة التى كانت تعتريه عند الوحي، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا.

والتوجيه الأول الذى ذكره الإمام الرافعى: أنه ﷺ خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة

(٢٤٠) (أغفى) فسرها النووي بالنوم، (فَيُخْتَلَجُ) أى: يطرد ويبعد عن الحوض أو نهر الكوثر، قال النووي: يختلج، أى: يتنزع ويقطع. والحديث في صحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب: حجة من قال بالبسمة آية من أول كل سورة سوى براءة ١١٢/٤، ١١٣ شرح النووي، ومسند الإمام أحمد ٣/١٥٢، وفي جامع الترمذى: كتاب التفسير/ باب: ومن سورة الكوثر ٤١٨/٥، ٤١٩ مختصراً، وقال الترمذى: حسن صحيح. وينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطى ١/٢٣.

في اليقظة من قبل، هو أيضا صحيح، وأنه لا يقل شيئا عن التأويل الثاني الذي رجحه الإمام السيوطي، لأن الأدلة تدعمه وتؤكدده أيضا.

فالصحيح أن نقول: إن سورة الكوثر نزلت أكثر من مرة، فَحَدَّثَ كُلُّ صَحَابِيٍّ بِمَا شَاهَدَهُ وَرَأَاهُ، فأنس وهو من أهل المدينة روى ما حدث للنبي ﷺ في مسجد المدينة، ففي رواية علي بن حُجْرٍ أحد شيوخي مسلم اللذين روى عنهما الحديث: «بَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَبِينُ أَظْهَرْنَا فِي الْمَسْجِدِ...» الحديث.

وسورة الكوثر مكية في قول أكثر أهل العلم، قال الإمام الشوكاني: وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة: «أن سورة الكوثر نزلت بمكة» وبه قال الكلبي ومقاتل، وهي مدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة (٢٤١).

والمثبت في المصاحف المطبوعة: أن سورة الكوثر مكية نزلت بعد سورة العاديات، وهذه رواية من شهد نزولها بمكة من الصحابة.

أخرج الإمام أحمد وغيره بسند صحيح (٢٤٢) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أُنزِلَتْ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ مَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، شَرَابُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

وقال الحافظ أبو عبد الله الحاكم في التفسير من كتابه المستدرک: فأما قوله عز وجل:

(٢٤١) فتح القدير للشوكاني ٥/٥٠٢.

(٢٤٢) صححه المرحوم أحمد شاكر تحت أرقام ٥٣٥٥، ٥٩١٣ واللفظ له، ٦٤٧٦ وهو آخر حديث في مسند عبد الله بن عمر، والترمذي في جامعه: كتاب تفسير القرآن/ باب: ومن سورة الكوثر ٥/٤١٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ فقد اختلف الصحابة في تأويلها، وأحسنها ما روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في روايتين الأولى منهما - فذكرها - بسنده من كلام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو وضع يمينك على شمالك في الصلاة، والرواية الثانية - ذكرها - بسنده، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا جبريل ما هذه النحية التي أمرني بها ربي؟» قال: إنها ليست بنحية ولكنه يأمرك إذا تحرمت - أي: أحرمت - للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة في السموات السبع، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رفع الأيدي من الاستكانة التي قال الله عز وجل: ﴿فَمَا آسْتَكَاثُوا لَهُمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون] (٢٤٣).

وهذه الرواية مع ما فيها من ضعف، لكنها مع ما قبلها تفيد ما قرره العلماء: أن السورة الواحدة قد يتكرر نزولها، وليس في رواية ابن عمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما يشير إلى نزولها منامًا، والله أعلم.

(٢٤٣) المستدرک ٥٣٧/٢، ٥٣٨، وتعقبه الذهبي في الرواية الثانية بقوله: إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه، وأصبح شيعي متروك عند النسائي، ورواه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصلاة/ باب: رفع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس فيه ٧٥/٢، ٧٦ من طريق الحاكم، وبلغه، والآية ٧٦ من سورة المؤمنون، كما عزا الإمام الشوكاني الحديث إلى ابن أبي حاتم، وابن مردويه. فتح القدير ٥٠٤/٥.

## فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا

بعد أن ذكر الإمام البخارى حديث عائشة بطوله على وجهه الصحيح عدة مرات بإسناده الذى قال فيه: «حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ... الحديث» أورد في المرة الأخيرة له بهذا الإسناد ثم رواه بإسناد آخر ذُكرت فيه زيادةٌ في آخره وبيّن مع غيره من سائر المحدثين انقطاع إسناد هذه الزيادة ووهنها من جهتي السند والمتن جميعاً، وفيما يلي نص هذين الإسنادين للحديث مع الزيادة التي وردت بالإسناد الثانى عند الإمام البخارى؛ مع تعقيبات العلماء على نقضها وردّها ورفض ما جاء فيها:

قال الإمام البخارى: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ (ح) وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ... وَفَتَرَ الْوَحْيُ فِتْرَةً، حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ، فِيمَا بَلَغْنَا، حُزْنَا عَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ، تَبَدَّى لَهُ جِرْيَلٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِدَلِّكَ جَأْشُهُ، وَتَقَرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فِتْرَةُ الْوَحْيِ، عَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذُرْوَةِ جَبَلٍ، تَبَدَّى لَهُ جِرْيَلٌ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ».

فأول من روى هذه الزيادة هو الإمام عبدالرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري بلاغاً في آخر الحديث الموصول، وأخرجها عنه كذلك الإمام أحمد في المسند، والبخارى في التعبير عن عبدالله بن محمد، عن عبدالرزاق، وابن حبان، وأبو نعيم في دلائل النبوة من طريقه (٢٤٤)، كلهم

(٢٤٤) أخرجها عبدالرزاق في مصنفه: كتاب المغازي / باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٣٢١/٥: ٣٢٣، عن معمر عن الزهري .. به، والإمام أحمد في مسنده ٢٣٢/٦، ٢٣٣ من طريق معمر عن الزهري .. به، وابن حبان في صحيحه:

ينقل عن الزهري قوله في الزيادة: «فيا بلغنا»، والإمام البخاري باتفاق جميع المحدثين هو أول من اعتبر السند المتصل ركنا رئيسًا في صحة الحديث، وهو أول من صنف في الصحيح المجرد، وسمى كتابه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه.

ومدار هذه الزيادة على عبدالرزاق، وهو إمام ثقة، قال فيه الحافظ الذهبي: الحافظ الكبير، صاحب التصانيف، وثقه غير واحد، وحديثه مخرج في الصحاح، وله ما ينفرد به (٢٤٥).

وربما يقال: إن عبدالرزاق قد انفرد بهذه الزيادة عن معمر من بين سائر أصحابه، لأن كل من روى الحديث غيره عن معمر لم يدرج فيه هذه الزيادة.

ومعمر: إمام حجة، أحد الأعلام، قال ابن معين: هو من أثبت الناس في الزهري (٢٤٦).

والزهري: أعلم الحفاظ، فكيف يُقبَل ما رواه بلاغًا بلا إسناد؟! وهذا هو أصل ضعف إسناد هذه الزيادة، روى البيهقي عن يحيى بن سعيد قال: مرسل الزهري شر من مرسل غيره، لأنه حافظ، وكلما قَدِرَ أن يُسَمَّى سَمَى! وإنما يَتْرُكُ من لا يستجيز أن يُسَمَّى (٢٤٧).

وهذه الزيادة من هذا القبيل، حيث إنها منقطعة قد رواها الزهري بلاغًا، وهو من صغار التابعين، وجل روايته عنهم، وأقلها عن صغار الصحابة (٢٤٨)، فكيف بالكبار منهم، لاسيما من شهدوا بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ!!!

الإحسان بترتيب ابن حبان: كتاب الوحي ١/١١٩، ١٢٠ من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن الزهري.. به، بمثل رواية عبدالرزاق، وينظر: دلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٦٨: ١٧٠، ومقدمة ابن الصلاح في معرفة أنواع علوم الحديث: الثالثة والسادسة من مسائل الصحيح.

(٢٤٧: ٢٤٥) ينظر تذكرة الحفاظ ١/١٠٨: ١١٣، ١٩٠، ٣٦٤ وتدريب الراوي ١/١٩٦، ٢٠٥.

(٢٤٨) ينظر: تقريب التهذيب ص ٧٥ المقدمة.

إذا فما ورد في هذه الزيادة غير ثابت عن النبي ﷺ، ولم يقل شيئاً منه ولا فعله، وقد نبه على ذلك كل من ذكروا هذه الزيادة من الأئمة بأميرين:

الأول: في الرواية ذاتها، إذ فيها: حزن النبي ﷺ فيما بلغنا... إلخ، فلا سند يعتمد عليه، ولا رواية يبحث عنها، أو يركن إليها.

الثاني: أنهم يذكرون عقبها حديث جابر الصحيح في فترة الوحي إلى الزهري بالسند نفسه الذي يروونه عنه في حديث عائشة الأول، ويفهم من صنيعهم ذلك: أن الزهري نفسه كان يحدث بحديث جابر عقب حديث عائشة.

ففي مصنف عبدالرزاق بعد فراغه من حديث عائشة: قال معمر، قال الزهري: فأخبرني - فحرف الفاء هذا يفيد العطف على رواية سابقة، والتعقيب بأخرى لاحقة، وذلك في مجلس واحد- أبو سلمة بن عبدالرحمن، عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الذي جاءني بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض، فَجَثَّتْ<sup>(٢٤٩)</sup> منه رعباً، ثم رجعت فقلت: زملوني، زملوني، ودثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدْثِرُ ﴿٢٥٠﴾ قُمْرًا فَانْدِرْ ﴿٢٥١﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ﴿٢٥٢﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٢٥٣﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٢٥٤﴾﴾ [المدثر] (٢٥٠).

وقال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، قال: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن

(٢٤٩) بفتح الفاء والجيم بعدهما همزة مكسورة فمثلثة ساكنة، وفي رواية (فجثت) بمثلثة بدل الهمزة، ومعناها: فزعت، وذعرت، وخفت، النهاية ١/٢٣٢، ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢٥٠) مصنف عبدالرزاق: كتاب المغازي، بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٥/٣٢٣، ٣٢٤، ودلائل النبوة لأبي نعيم

عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين، فذكر حديثها المتقدم في بدء الوحي، إلى قولها: ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتى الوحي، ثم قال عقبه: قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبدالرحمن أن جابر بن عبدالله الأنصاري قال... فذكر الحديث بنحو رواية عبدالرزاق، غير أنه زاد في آخره: ﴿فَحَمِيَ الْوَحْيَ وَتَتَابَعُ﴾ (٢٥١).

قال الحافظ ابن حجر: قوله: «قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة» إنها أتت بحرف العطف، ليعلم أنه معطوف على ما سبق، كأنه قال: أخبرني عروة بكذا، وأخبرني أبو سلمة بكذا، وأخطأ من زعم أن هذا معلق، وإن كانت صورته صورة التعليق، ولو لم يكن في ذلك إلا ثبوت الواو العاطفة، فإنها دالة على تقديم شيء عطفته - وهو حديث عائشة المتقدم -، ثم قال ابن شهاب - أي بالسند المذكور - وأخبرني أبو سلمة بخبر آخر، وهو حديث جابر عن فترة الوحي (٢٥٢).

وكذلك الإمام أحمد، مع أنه قد جمع في مسنده مرويات كل صحابي على حدة، دون الالتزام بالوحدة الموضوعية، لكنه لما روى حديث عائشة المتقدم عن عبدالرزاق عن معمر عن الزهري، قال: فذكر حديثاً (٢٥٣)، لعله يشير إلى حديث جابر الذي أخرجه قبل ذلك في المسند من طريق يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: يا أيها المدثر، فقلت: أو اقرأ؟ فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: ﴿جاورت بحراء شهراً فلما

(٢٥١) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي ١/٢٧ ح ٤، وفي كتاب التفسير/ باب تفسير سورة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ٨/٧١٥، وأخرجه في مواطن أخرى من صحيحه، ينظر كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر ٨/٦٧٦: ٦٧٩، وفي كتاب الأدب باب رفع البصر إلى السماء ١١/٥٩٥، ٥٩٦.

(٢٥٢) فتح الباري ١/٢٨.

(٢٥٣) مسند الإمام أحمد ٦/٢٣٢، ٢٣٣.



قضيت جوارى، نزلت، فاستبطنت بطن الوادى، فنُوديتُ، فنظرت أمامى وخلفى، وعن يمينى وعن شمالى، فلم أر أحداً، ثم نُوديتُ فرفعتُ رأسى، فإذا هو على العرش فى الهواء -يعنى جبريل- فأخذتنى رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثرونى، دثرونى، فدثرونى وَصَبُوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدْتِرُّ ﴿٢٥٤﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢٥٥﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٢٥٦﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٢٥٧﴾﴾ (٢٥٤).

وهكذا أخرجه مسلم، وابن حبان فى صحيحيهما عقب إخراجهما لحديث عائشة، وقال ابن حبان: إن أول ما أنزل من القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدْتِرُّ﴾ وفى خبر عائشة: ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وليس بين هذين الخبرين تضاد، إذ الله عز وجل أنزل على رسول الله ﷺ: ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو فى الغار بحراء، فلما رجع إلى بيته: دثرته خديجة وصبت عليه الماء البارد، وأنزل عليه فى بيت خديجة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدْتِرُّ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢٥٥﴾ الآيات، من غير أن يكون بين الخبرين تهاترا أو تضاد (٢٥٥).

وقال الإمام مسلم فى صحيحه: وحدثنى محمد بن رافع، حدثنا عبد الرزاق، أخبر معمر، قال: قال الزهرى: فذكر بهذا الإسناد حديث عروة عن عائشة، وحديث أبى سلمة عن جابر (٢٥٦).  
فدل هذا كله، على أن ابن شهاب الزهرى كان يحدث بالحديثين معاً، كما روى عنه غير

(٢٥٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٠٦، ٣٠٧، ٣٩٢.

(٢٥٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/١٤٣: ١٤٥، وصحيح ابن حبان: كتاب بدء الوحي/ باب ذكر القدر الذى جاور المصطفى ﷺ بحراء عند نزول الوحي عليه ١/١٢١، ١٢٢، وينظر البرهان فى علوم القرآن ١/٢٠٦: ٢٠٨.

(٢٥٦) صحيح مسلم فى الكتاب والباب المتقدمين ١/١٢٩: ١٤٥.

واحد مما سبق بيانه، وأن الصواب في رواية حديث عائشة بدون تلك الزيادة، كما أخرجه مسلم، والبخارى في جُلِّ مواضعه، وغيرهما والله أعلم.

وأيضًا إن متنها ونصها فيه نكارة ومخالفة لما رواه الثقات الأثبات: أن مدة فترة الوحي كانت شهرًا واحدًا كما في صحيح مسلم وغيره كما في حديث جابر عند الإمام مسلم وغيره؛ بل ذكر ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أيامًا لا يرى جبريل، فحزن حزنا شديدًا، ولا تعارض بينهما فالشهر أيام معدودات كما ورد ذلك في صيام رمضان.

ثم من هو هذا الراوى المعلوم الذى كان يتتبع رسول الله ﷺ في الفترة الأولى من بدء الوحي؟! ومن الذى أخبره بما يعتمل في نفس رسول الله ﷺ وما يجيش في صدره حتى يُخبر عنه بهذا الخبر؟!!

«وفتر الوحي؛ حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارًا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل، لكى يُلقى منه نفسه: تبدى له جبريل فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له: مثل ذلك».

وهناك ردٌّ آخرٌ لشيخنا الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللهُ حيث كتب تحت عنوان: رواية موهمة، ما حاصله:

وهذه الرواية - يعنى ما ذكره الزهرى بلاغًا من زيادة في حديث بدء الوحي - ليست على شرط الصحيح، لأنها من البلاغات، وهى من قبيل المنقطع، والمنقطع من أنواع الضعيف، ولعل البخارى ذكرها لينبئنا إلى مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحي، الذى لم تذكر فيه هذه الزيادة.

ونحن لا ننكر أنه ﷺ قد حصلت له حالة أَسَى وْحُزْنٍ عميقين على انقطاع الوحي خشية أن يكون ذلك عدم رضا من الله، وهو الذى يهون عليه كل شيء من لأواء الحياة، وشدائدها. والتعليل الصحيح لكثرة غشيانه ﷺ في مدة الفترة رؤوس الجبال وشواهقها أن الانسان إذا حصل له خير أو نعمة في مكان ما، فإنه يجب هذا المكان، ويتلمس فيه ما افتقده، فلما انقطع الوحي: صار ﷺ يكثر من ارتياد قمم الجبال، ولاسيما حراء، رجاء أنه إن لم يجد جبريل في حراء، فليجده في غيره، فأراه راوى هذه الزيادة وهو يرتاد الجبال فظن أنه يريد هذا، وقد أخطأ الراوى المجهول في ظنه قطعاً.

وليس أدل على ضعف هذه الزيادة وتهافتها من أن جبريل كان يقول للنبي كلما أوفى بِذُرْوَةِ جبل: «يا محمد إنك رسول الله حقاً» وأنه كرر ذلك مراراً، ولو صح هذا لكانت مرة واحدة تكفى في تثبيت النبي وصرفه عما حدثته به نفسه كما زعموا (٢٥٧).

وبهذا نكون قد تعرفنا -بحمد الله وتوفيقه- على بعض الجوانب من حياته ﷺ الأولى قبل نزول الوحي عليه ﷺ؛ مع الاستدلال على كل منها، ودفع ما يثار من شبه حول بدئ الوحي إلى رسول الله ﷺ؛ ليتأكد لدى الجميع: أنه ﷺ من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، وأن الله عز وجل اختاره واصطفاه لإتمام نعمته وإكمال دينه.

وهذا الوحي قد جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِ الرُّوحَ التِّى أَحْيَتِ الْعَالَمَ مِنْ مَمَاتِهِ، وَابْتَعَثَتْهُ مِنْ رِقَادِهِ، وَكَانَ هُوَ النُّورَ الَّذِى أَنْقَذَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ دِيَابِجِ الظُّلُمَاتِ، وَمَتَاهَاتِ الْأَوْهَامِ وَالبَدْعِ وَالضَّلَالَاتِ، كَمَا وَرَدَ التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾

[الأنعام: ١٢٢]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿الرَّ كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۗ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

فمن آمن به وعمل بمقتضاه ثبت له الفلاح في الدارين، وتحققت له السعادة في الحياتين، وكان من الفائزين، قال تبارك اسمه في كلامه العزيز: ﴿فَمَنْ آتَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤] (٢٦١).

وبهذا كانت حياته ﷺ قبل البعثة دليلاً على صدقه بعدها، ولسوف يتأكد ذلك من وقائع سيرته ﷺ من البعثة إلى الهجرة، وبالله الثقة ومنه التوفيق.

### فِقْهُ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَفَضْلُهُمْ

ونتحدث أولاً عن أول من شهد هذا الضياء: فاهتدى به ونال كل نعماء، فنبداً بأمر المؤمنين خديجة بنت خويلد، وورقة بن نوفل رضي الله عنهما اللذين ورد ذكرهما في حديث عائشة المتقدم عن بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ثم تُتبعهما أول السابقين في إعتناق هذا الدين.

(٢٦١) وقد خصصت دراسةً مستقلةً عن جمع القرآن مرتب السور والآيات بين يديه ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين، كي يكتمل بحث الوحي، والحمد لله على التوفيق.

## ١- خَدِيجَةُ أَوْلُ مَنْ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَأَزْرَتْ رَسُولَهُ ﷺ

ومن أصح ما نقل من كلام الأئمة، ما ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المناقب / باب: فضل خديجة بنت خويلد: زوجة رسول الله ﷺ عن الزبير بن بكار قال: وأم بنى رسول الله ﷺ وبناته غير إبراهيم، خديجة بنت خويلد، وكانت في الجاهلية تسمى: الطاهرة، وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب.

وقال الطبراني: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وهي أم ولده الذكور والإناث إلا إبراهيم فإنه من سُرِّيَّتِهِ مارية القبطية، وعن الزهري قال: لم يتزوج رسول الله ﷺ على خديجة حتى ماتت، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٢٦٢).

قال ابن إسحاق: وآمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بها جاءه ﷺ من الله وآزرتة - أي: أعانتة - على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بها جاء به، فخفف الله بها عن رسوله، لا يسمع شيئاً يكرهه: من ردِّ عليه، وتكذيب له؛ فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها، إذا رجع إليها فتشبهت، وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها (٢٦٣).

وهي أول مَنْ آمَنَ بالنبي ﷺ من بنى آدم، قال الحافظ ابن حجر في ترجمتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وهي أول من صدقت ببعثته مطلقاً، وأصرح ما وقفتُ عليه في نسبتها إلى الإسلام - وأنها أول من آمنت بالرسالة-: ما أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة بسند ضعيف، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أشعرتِ بأن الذي كنت أراه قد بدا لي، وبسط لي بساطاً

(٢٦٢) مجمع الزوائد ٩/٢١٨: ٢٢٠.

(٢٦٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٤٠، وفقه السيرة للغزالي ص ١٠٢.

كريباً، وبحث لى من الأرض، فنبع الماء فعلمنى الوضوء، فتوضأت وصليت ركعتين» فقالت خديجة: أرنى كيف أراك؟! فأراها النبى ﷺ: ثم صلت معه، وقالت: أشهد أنك رسول الله (٢٦٤).

وأقوى مما ذكره الحافظ ابن حجر، وإن كان فيه نوع من التخصيص: ما رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، عن أبى رافع قال: «أول من أسلم من الرجال على بن أبى طالب، وأول من أسلم من النساء خديجة» وكذلك: ما أخرجه الحاكم بسنده، وأقره عليه الذهبى، عن ربيعة السعدى قال: أتيت حذيفة بن اليمان وهو فى مسجد رسول الله ﷺ، فسمعتة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمد ﷺ»، وأخرج نحوه موقوفا على ابن شهاب الزهرى من قوله، وقال ابن سيّد الناس تحت عنوان: ذكر أول الناس إيماناً بالله ورسوله ﷺ: «أول الناس إيماناً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى بن كلاب فيما أتت به الآثار، وذكره أهل السير والأخبار، منهم: ابن شهاب، وقاتدة وغيرهما، ثم روى بسنده عن الزهرى قال: «كانت خديجة أول من آمن برسول الله ﷺ» ثم قال ابن سيد الناس: وهو قول موسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدى والأموى، وغيرهم» (٢٦٥).

(٢٦٤) الإصابة ١٢/٢١٣: ٢١٨، ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ١٧٤، ١٧٥ من حديث طويل، وفى سنده: النضر بن سلمة بن شاذان المروزى، كان مقيماً بمدينة رسول الله ﷺ ويكنى: أباً محمد، قال ابن حبان: سكن مكة، ولا تحل الرواية عنه إلا للاعتبار، وقال أبو حاتم: كان يفتعل الحديث، ولم يكن بصدوق. الجرح والتعديل ٨/٤٨٠، وميزان الاعتدال ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢٦٥) راجع: مجمع الزوائد ٩/٢١٩، ٢٢٠، والمستدرک على الصحيحين: كتاب معرفة الصحابة ٣/١٨٤، وعيون الأثر ١٧٨/١.

## فَضْلُهَا وَرِجَاحَةُ عَقْلِهَا وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ

وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التي تدل على فضلها ورجاحة عقلها، وتؤكد ما ذكرناه عنها قبل رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مع ذكر استنباطات العلماء من هذه الأحاديث:

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ خَدِيجَةٌ قَدْ أَتَتْكَ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ: فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ» (٢٦٦).

ومما يدل على وفور فقهها، ورجاحة عقلها، وصحة فهمها أنها قالت - كما ورد في بعض روايات الحديث عنها - «إن الله هو السلام ومنه السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته» حيث لم تقل في ثنائها على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وعليه السلام» كما وقع من بعض الصحابة، ففي الحديث المتفق عليه، عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى جَبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَلَمَّا انصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ

(٢٦٦) صحيح البخارى: كتاب مناقب الأنصار/ باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ١٣٣/٧، ١٣٤، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ١٨٨٧/٤، ومسند الإمام أحمد ٢٣١/٢، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، ذكر البيان بأن جبريل عليه السلام أقرأ خديجة من ربه السلام ٧٣/٩، ومستدرک الحاكم: كتاب معرفة الصحابة ١٨٥/٣ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأقره الذهبي، ثم أخرج له شاهداً من حديث أنس بن مالك ١٨٦/٣ وصححه على شرط مسلم.

ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَنْخَبِرُ بَعْدُ مِنَ الْكَلَامِ مَا شَاءَ» (٢٦٧).

أما خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد عَرَفَتْ بثاقب فكرها: أن الله لا يُرَدُّ عليه السلام، كما يُرَدُّ على المخلوقين، لأن السلام اسم من أسماء الله، وهو أيضًا دعاء بالسلامة، وكلاهما لا يصلح أن يرد على الله، فكانها قالت: كيف أقول عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب، ومنه يحصل، فلا يليق بالله إلا الثناء عليه ولذا جعلت مكان ردِّ السلام عليه: الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله، وما يليق بغيره فقالت: «وَعَلَى جِبْرِيلَ السَّلَامُ» ثم قالت: «وعليك يا رسول الله السلام» ويستفاد منه: رد السلام على من أرسل السلام، وعلى من بلغه، وقد بلغها جبريل من ربه السلام بواسطة النبي ﷺ احترامًا للنبي ﷺ (٢٦٨).

### بِشَارَتِهَا بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ وَالْحِكْمَةِ مِنْهُ

كما أمره أن يشرها بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب إكرامًا لصنيعها وإخلاصها، ومكافأة على سعيها وسبقها، وجزاء الفعل غالبًا ما يذكر بلفظه، وإن كان أشرف منه، وكثيرًا ما يكون من جنسه، وإن كان أكرم منه، وصدق الله إذ يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ

(٢٦٧) صحيح البخارى: كتاب الاستئذان/ باب: السلام اسم من أسماء الله تعالى ١١/١٣، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب: التشهد ١/٣٠١، ٣٠٢، وسنن أبي داود: كتاب الصلاة/ باب: التشهد ١/٢٥٤، وسنن النسائي: كتاب الافتتاح/ باب: كيف التشهد الأول ٢/٢٤٠، وسنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب: ما جاء في التشهد: ١/٢٩٠، ومسنند الإمام أحمد ١/٣٨٢، ٤١٣، وسنن الدارمي: كتاب الصلاة/ باب: التشهد الأول ١/٢٥٠، ٢٥١، ومسنند الطيالسي ص ٣٣، ٣٤، ومنحة المعبود ١/١٠٢، ومصنف عبدالرزاق: كتاب الصلاة/ باب: التشهد ٢/٢٠٠، والسنن الكبرى للبيهقي: كتاب الصلاة/ باب: مبتدء فرض التشهد ٢/١٣٨.

(٢٦٨) فتح البارى ٧/١٣٩، ومجمع الزوائد ٩/٢٢٥.



إِلَّا إِلَّا حَسَنُ ﴿٦٦﴾ [الرحمن].

قال العلماء في معنى الحديث «مِنْ قَصَبٍ» المراد به: لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف، قال السهيلي: النكتة في قوله (مِنْ قَصَبٍ) ولم يقل من لؤلؤ، أن في لفظ القصب: مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، قال الحافظ ابن حجر: وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنبيائه، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط؛ كما وقع لغيرها، واختيار لفظ (البيت) لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث نشأ على في بيتها، وهو صغير، ثم تزوج من ابنتها فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكان منها الحسن والحسين، وهؤلاء هم أهل البيت كما صرح به رسول الله ﷺ في حديث أخرجه الترمذي وأحمد وصححه ابن حبان والحاكم، أن النبي ﷺ حين أنزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب]، في بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَجَلَّلَهُمْ بِكَسَاءٍ، وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَجَلَّلَهُ بِكَسَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا» (٢٦٩).

وقال السهيلي: لذكر (البيت) معنى لطيف، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بُعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها.

وقال أبو بكر الإسكافي في فوائد الأخبار: المراد به بيت زائد على ما أعدَّ الله لها من ثواب عملها، ولهذا قال: «وَلَا نَصَبَ» أى: لم تتعب بسببه، «وَالصَّحْبَ»: الصياح والمنازعة برفع الصوت، والمناسبة في نفى هاتين الصفتين التعب والمنازعة عن بيتها في الجنة: أنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أجابت رسول الله ﷺ إلى الإسلام طوعاً من بادئ الأمر، فلم توجه إلى رفع صوت، ولا منازعة، ولا تعب في ذلك؛ بل: أزالته عنه ﷺ كل نصب، وأنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذى بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعالها (٢٧٠).

### حَفِظَهُ ﷺ لُودَهَا وَعَهْدَهَا

ولقد عرف النبي ﷺ لها قدرها ومنزلتها في حياتها وحفظ لها ودها وعهدا بعد وفاتها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. أخرج الإمام أحمد، والحافظ ابن عبد البر، من طرق إلى: مجالد بن سعيد، وهو حسن الحديث (٢٧١) عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ حَتَّى يَذَكَرَ خَدِيجَةَ، فَيُحَسِّنُ الشَّنَاءَ عَلَيْهَا، فَذَكَرَهَا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ فَأَدْرَكْتَنِي الْغِيْرَةَ فَقُلْتُ: هَلْ كَانَتْ إِلَّا عَجُوزًا، فَقَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا، فَغَضِبَ حَتَّى اهْتَزَّ مَقْدَمُ شَعْرِهِ مِنْ الْغَضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «لَا وَاللَّهِ! مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا: آمَنْتُ بِى إِذْ كَفَرَ النَّاسُ،

(٢٧٠) ينظر: فتح البارى ١٣٨/٧.

(٢٧١) مجالد بن سعيد: الجمهور على تضعيفه، لأنه اختلط في آخر عمره؛ لكن روايته لهذا الحديث مقبولة، قد أخرجها: الإمام أحمد في مسنده ١١٧/٦، ١١٨ من طريق: عبدالله بن المبارك، عنه، والإمام ابن عبد البر في الاستيعاب ٢٨٤/١٢، ٢٨٥ من طريق: ابنه إساعيل بن مجالد، عنه، وهما من أعلم الناس بحديثه، الأول لإمامته، والثاني لقرابته، قال ابن مهدي: رواية القدماء عنه: كهشيم، وشعبة، وحامد بن زيد: مقبولة، وقال ابن عدى: له عن الشعبي، أحاديث صالحة، يعني: كما في سند هذا الحديث حيث تحقق فيه الأمران معاً، قال يعقوب بن سفيان: صدوق، وأخرج له مسلم مقروناً، ينظر: تهذيب التهذيب ٤٠/١٠، ٤١.

وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي بِهَا لَهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا وَلَكَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ» قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبدًا.

وفي رواية قالت عائشة: ... وقد هلكت في دهر -تعنى خديجة- فغضب رسول الله ﷺ غضبًا ما رأيتَه غضب مثله قط، وقال: «إن الله رزقها مني ما لم يرزق أحدًا منكن» قلت: يا رسول الله: اعف عني، والله لا تسمعي أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشئ تكرهه.

وفي رواية أخرى قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها، واستغفار لها، قال ﷺ: «وَرُزِقْتُ مِنْهُ الْوَلَدَ إِذْ حُرِّمْتَنِي مِنْهُ» فغدا على بها وراح شهرًا (٢٧٢)، أي: فعل ذلك ﷺ زجرًا لها، حتى لا تعود لمثلها.

وأصل الحديث في الصحيحين وغيرهما، عن عائشة قالت: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْرَهُ ذِكْرَهَا، وَرَبًّا دَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَعْضَاءَ، ثُمَّ يَبْعُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرَبًّا قُلْتُ لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةً إِلَّا خَدِيجَةُ!! فَيَقُولُ: «إِنَّمَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ» وفي رواية مسلم: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا» (٢٧٣).

(٢٧٢) الروايتان ذكرهما الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب: فضل خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله ﷺ ٢٢٤/٩، وقال: رواه الطبراني وأسانيده حسنة، وينظر: مسند الإمام أحمد ١١٧/٦، ١١٨، والمعجم الكبير للطبراني ١٣/١٥: ٢٣/٢٣ ح ٢١: ٢٣.

(٢٧٣) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار (واللفظ له) باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ١٣٣/٧، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ١٨٨٨/٤، وجامع الترمذي: كتاب المناقب/ باب: فضل خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٧٠٢/٥، وسنن ابن ماجه: كتاب النكاح/ باب: الغيرة ٦٤٣/١، ومسند الإمام أحمد ٥٨/٦، ١٥٤، ٢٧٩، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم/ باب: ذكر إكثار المصطفى ﷺ ذكر خديجة بعد وفاتها ٧٢/٩، ٧٣، والسنن الكبرى للبيهقي: كتاب القسم والنشوز، غيرة

حقاً: قد كانت خديجة أم المؤمنين بلا مدافعة: خير نساء هذه الأمة في الآخرة والأولى، فرضى الله عنها وأرضاها، وجزاها بفضلها وكرمه عن دينه ونبيه خير وأوفر الجزاء (٢٧٤).

وقد ذكرنا في البحث السابق «من نشأته ﷺ إلى بعثته» تحت عنوان: «كَيْفِيَّةُ زَوْاجِهِ ﷺ الْمُوَافِقَةُ لِإِضْطِفَاءِ اللَّهِ لَهُ كَمَا نَقَلَهَا الْخُلَفَاءُ عَنِ السَّلَفِ» أن زواجها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من خير البرية ﷺ كان مكتمل الشروط والأركان وفق النكاح الشرعى الذى أقره الإسلام؛ لكن المستشرقين اتخذوا من الأحاديث الضعيفة مادةً للطعن في شخصها والنيل من مكانتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بالرغم من وضوح الحق بالبراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

## ٢- زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِي

وكذلك بادر زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ إلى الدخول في الإسلام، وكان غلاماً لأم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فوهبته للنبي ﷺ لما تزوجها، فصار أحب الناس لديه وأكرمهم عنده؛ إذ رفض الذهاب مع والده إلى أهله وعشيرته، وآثر البقاء بجوار رسول الله ﷺ، وهذا دليل على فقهه ورجاحة عقله، وكفاه شرفاً أنه الصحابى الوحيد الذى ذكر الله عز وجل اسمه صريحاً في كتابه، حيث قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

النساء ووجدهن ٣٠٧/٧.

(٢٧٤) ينظر: المزيد من أخبارها، والأحاديث الواردة في فضلها في: الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/٨: ١١، ١٥٦، ١٤١/١/١ ط التحرير، وصحيح البخارى ٣/٦١٥، ١٣٣/٧، ١٣٤، ٣٢٦/٩، ٤٣٥/١٠، ٤٣٥/١٣، ٤٥٣/١٣، وصحيح مسلم ٤/١٨٨٦: ١٨٨٩، ومستند الإمام أحمد ١/٨٤، ١١٦، ١٣٢، ١٤٣، ٢٩٣، ٣١٦، ٣١٥/٣، ٣٥٥/٤، ٣٥٦، ٣٨١، وصحيح ابن حبان ٩/٧١: ٧٣، ومستدرک الحاكم ٢/٥٩٤، ٥٩٥، ١٦٠/٣، ١٨٤، ١٨٦، وينظر: البداية والنهاية ٢/٢٩٣: ٢٩٨، ٢/٣: ٢١، وسير أعلام النبلاء ٢/١٠٩: ١١٧، ومجمع الزوائد ٩/٢١٨: ٢٢٥.

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَأَتَقَى اللَّهَ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ط  
فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ  
إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦٧﴾ [الأحزاب].

قال الزهري والواقدي: ما نعلم أن أحدًا أسلم قبل زيد بن حارثة.

وقد زوجه رسول الله ﷺ من حاضته: أم أيمن، فولدت له: أسامة بن زيد؛ الذي كان  
أحبَّ الناس بعد أبيه إلى رسول الله ﷺ.

كما أكرم الله عز وجل زيد بن حارثة بالشهادة في سبيله حيث قُتل وهو أمير في غزوة مؤتة  
سنة ٨ من الهجرة مقبلاً غير مدبر، وقال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي، فسألته  
فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه أحبُّ إلى رسول الله من أبيك، قال  
الحافظ ابن حجر: صحيح؛ فرضى الله عنهم أجمعين (٢٨٣).

### ٣- أَبُو بَكْرٍ أَوَّلُ السَّابِقِينَ وَأَنْفَعُهُمُ لِلدِّينِ

وكان أول من استجاب للإسلام من الرجال الأحرار ذوى المكانة والشرف صديق هذه  
الأمّة، وأكملها إيماناً وأسبقها إلى دين الله؛ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واسمه: عبدالله بن أبى  
قحافة عثمان بن عامر القرشى، صحب النبي ﷺ عامًا واحدًا قبل البعثة وقبل الإيذان به،  
ورافقه طول إقامته بمكة، ولازمه في الهجرة، وفي الغار، وفي المشاهد كلها، وكانت الراية معه  
يوم تبوك، وحج في الناس في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، ثم كان أول الخلفاء بعد رسول

(٢٨٣) وقصة زيد، عند: ابن هشام ١/٢٤٧: ٢٤٩، وزاد المعاد ٣/٢٠ والإصابة ١/٤٥١ ترجمة أسامة، و٤/٤٧: ٥٠ ترجمة

الله ﷺ توفي سنة ١٣ هجرية عن ثلاث وستين سنة (٢٨٤).

فلما حازَ قصبَ السبقِ إلى اعتناقِ هذا الدين: أزر رسولَ الله ﷺ ودعا معه إلى الله على بصيرة، فكان بحق أفضل هذه الأمة وأنفعها لدين الله (٢٨٥).

وقد اختلف العلماء في أي هؤلاء الثلاثة كان أسبق إلى الإسلام أولاً بعد أم المؤمنين خديجة - رضوان الله عليها - وقد أجاب الإمام أبو حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالجمع بين هذه الاختلافات: بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالى زيد بن حارثة، ومن الغلمان على بن أبي طالب رضی اللهُ عنهم أجمعين.

قال الحافظ ابن كثير: وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم، إذ كان صدرًا معظماً، ورئيسًا في قريش مكرماً، وصاحب مال، وداعية إلى الإسلام، وكان محبباً متألفاً يبذل المال في طاعة الله ورسوله، قال ابن إسحاق: وكان أبو بكر رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ (٢٨٦).

(٢٨٤) الإصابة ٦/١٥٥: ١٦١.

(٢٨٥) يراجع: مصنف عبدالرزاق ٥/٣٢٥، وابن أبي شيبة ١٤/٧٤ ط الهند، وما سبق في أول هذا البحث أن معرفة المبشرات برسول الله ﷺ ليست شرطاً لحصول الإيذان.

(٢٨٦) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٥٠: ٢٥٢، والسيرة لابن كثير ١/٤٣٢.

وذكر الحافظ ابن كثير، عن الحافظ أبي الحسن خيثمة بن سليمان<sup>(٢٨٧)</sup> بسنده، عن عائشة قالت: خرج أبو بكر يريد رسول الله ﷺ وكان له صديقاً في الجاهلية، فلقيه فقال: يا أبا القاسم! فقدت من مجالس قومك، واتهموك بالعيب لأبائهما وأمها، فقال رسول الله: «إني رسول الله، أدعوك إلى الله» فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر، فانطلق عنه رسول الله ﷺ وما كان بين الأخشين أحد أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر، ومضى أبو بكر، فراح لعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزيبر بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، فأسلموا، ثم جاء الغد بعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة بن الجراح، وعبدالرحمن بن عوف، وأبي سلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، فأسلموا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد أسلم بيت أبي بكر بإسلامه، ففي صحيح البخارى ح ٤٧٦ تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوِيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ...»<sup>(٢٨٨)</sup>.

ومما يدل على فضله وسبقه إلى الإسلام، وتصديقه ومؤازرته لرسول الله ﷺ: ما أخرجه البخارى، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَن رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ»<sup>(٢٨٩)</sup>، فَسَلَّمَ

(٢٨٧) قال الذهبي: الإمام الثقة، مصنف فضائل الصحابة، كان جوالاً، صاحب حديث، توفي سنة ٣٤٣ هـ عن ثلاث وسبعين سنة، سير أعلام النبلاء ٤١٢/١٥: ٤١٦ وسنده إلى عائشة كما نقله ابن كثير هكذا: قال حدثنا عبيدالله بن محمد بن عبدالعزيز العمرى قاضى المصيصة، حدثنا أبو بكر عبدالله بن عبيدالله بن إسحاق بن محمد بن عمران بن موسى بن طلحة بن عبيدالله، حدثني أبي عبيدالله، حدثني عبدالله بن محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة، قال: حدثني أبي محمد بن عمران، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، السيرة النبوية لابن كثير ٤٣٨/١، ٤٣٩، وقال الحافظ ابن حجر: هذا سند مسلسل بالطلحين، الإصابة ٣٨٦/٨، وانظر ما سيأتى في الهامش ٢٩٥.

(٢٨٨) انظر: البداية والنهاية ط دار الفكر ٢٩/٣، ٣٠ في قصة إسلام أبي بكر، وما سيأتى في الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفْضِلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ» هامش ٢٠٤.

(٢٨٩) (غَامَرَ) أى: خاصم، والمعنى: دخل في غمرة الخصومة، والغامر: الذى يرمى بنفسه فى الأمر العظيم كالحرب

وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ! فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ: أَنْتُمْ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ<sup>(٢٩٠)</sup>، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟»<sup>(٢٩١)</sup> مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

وفي رواية قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ؛ فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَأَنْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ، حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِمِثْلِهِ، ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي آخِرِهِ: «عَامَرٌ»: سَبَقَ بِالْحَقِيرِ<sup>(٢٩٢)</sup>.

وله شاهد عند الطبراني بسند صحيح، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ نَالَ مِنْ عُمَرَ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا أَحِي، فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، فَغَضِبَ عُمَرُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَانْتَهَوْا إِلَيْهِ وَجَلَسُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَسْأَلُكَ أَحْوَكُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ فَلَا

وغيرها، فتح الباري ٢٥/٧ وسيأتي عن قريب تفسير أبي عبدالله البخاري لهذه الكلمة.

(٢٩٠) أي: تذهب نضارته، ويتلون عمرًا من شدة الغضب، المصدر السابق.

(٢٩١) (تَارِكُوا لِي صَاحِبِي) هكذا الرواية في موضعي البخاري، بحذف النون في (تَارِكُوا) قال أبو البقاء: إن حذف النون من خطأ الرواة، لأن الكلمة ليست مضافة ولا فيها ألف ولا ميم، وإنما يجوز الحذف في هذين الموضعين، والأولى من تحطئة الرواة: توجيه الرواية بأن يكون (صَاحِبِي) مضافًا إلى كلمة (تَارِكُوا) وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور، (لي) فتكون الجملة هكذا: تاركوا صاحبي لي، وفي هذا جمع بين إضافتين إلى نفسه ﷺ تعظيمًا للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله أعلم. فتح الباري ٢٥/٧، ٢٦.

(٢٩٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب: قول النبي ﷺ «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا» ١٨/٧، وفي كتاب

التفسير: ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ٣٠/٨.



تَفْعَلُ؟» فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، مَا مِنْ مَرَّةٍ يَسْأَلُنِي إِلَّا وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَمَا مِنْ خَلْقٍ اللَّهُ بَعْدَكَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَنَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا مِنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُؤْذُونِي فِي صَاحِبِي، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّاهُ صَاحِبًا لَأَخَذْتُهُ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ اللَّهِ...» الحديث. قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح (٢٩٣).

وقد ذكر الشيخ محمد سالم البيحاني بعض مناقب الصديق نذكر منها ما يلي:

سَيِّدُنَا الصِّدِّيقُ عَبْدُ اللَّهِ ❀❀❀ خَيْرُ إِمَامٍ أَمْرٍ وَنَاهِي  
وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ الرِّجَالِ ❀❀❀ وَأَعْتَقَ الصِّدِّيقُ مِنْ مِثْلِ بِلَالٍ  
وَأَسْلَمَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرَةُ ❀❀❀ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ  
وَأَنْفَقَ الْأَمْوَالَ حَتَّى لَمْ يَدَعْ ❀❀❀ لِنَفْسِهِ شَيْئًا وَنِعْمَ مَا صَنَعَ  
وَنَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أُمَّيَّهِ ❀❀❀ سُورَةُ (وَاللَّيْلِ) أَتَتْ مَرْوِيَّةَ

فهؤلاء الذين حازوا قصب السبق إلى الإسلام وتصديق النبي ﷺ كانوا كثيرين؛ منهم على سبيل المثال: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وابن عمها ورقة بن نوفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اللذين سبق ذكرهما في حديث بدء الوحي، ثم على بن أبي طالب أول الفتيان، وزيد بن حارثة أول الموالى، وأبو بكر الصديق الذي أسلم على يديه تسعة في أول يومين من إسلامه هم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو

عبدة بن الجراح، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبي الأرقم. كما أسلم بيتُ أبي بكر بإسلامه؛ فكان حقاً أوَّلَ السابقين، وأنفعهم للدين، وكان كل واحدٍ منهم لا يعلم بإسلام غيره؛ حتى يظن أنه ثالثُ ثلاثة في السبق إلى الإسلام، أو رابع أربعة.. وهكذا. فأبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كانت له قبيلة تحميه، وكان صدرًا معظمًا في قريش، على سعة من المال، وكرم الأخلاق، يبذل المال في سخاء، عفيفًا محببًا في قومه، حسن المجالسة، طيب العشرة... ومع ذلك وغيره فقد نال شرف التعذيب في الله، وتعرض للضرب والأذى، حيث كان أوَّلَ خطيبٍ في الإسلام.

### السَّابِقُونَ الَّذِينَ امْتَحِنُوا بِالْفِتْنَةِ وَالْأُسُوءَةُ بِهِمْ فِي ذَلِكَ

ومن الذين أوذوا في الله: جماعةٌ قد أعتقهم الصديق، وهم من الأرقاء، أسلموا: فعذبهم مواليهم، منهم: بلال بن رباح الحبشي؛ وأمه حمامة، وعامر بن فهيرة، كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وأبو فكيهة، كان عبدًا لصفوان بن أمية بن خلف، ومنهم امرأة تسمى: زَيْنُرة عُدبت في الله حتى عميت، فلم يرضاها ذلك إلا إيمانًا، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم، لو كان ما أتى به محمد خيرًا ما سبقونا إليه: أفتسبقنا زَيْنُرة إلى رشد؟! فأنزل الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا آفَكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف] (٢٩٦).

(٢٩٦) خبر زينة: رواه ابن إسحاق في السيرة ٢٩١/١ معلقًا، والبلاذري في أنساب الأشراف ١٩٦/١ تحقيق د/ محمد حميد الله، ط دار المعارف بمصر، المجلد الأول... والبيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٨٢، ٢٨٣ وسبب نزول آية الأحقاف،

ومن أعتقهم أبو بكر بعد شرائهم: أم عيس، كانت أمة لبني زهرة، وكان يعذبها الأسود بن  
عديغوث.

وكفى الصديق شرفاً وفضلاً، أن يعطيه الله عز وجل في الآخرة جزاء أعماله، التي قدمها  
ابتغاء وجه ربه، وأن يُنَزِّلَ اللهُ فِي حَقِّهِ: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن  
نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤١﴾ [الليل].

إن أولئك السابقين الذين أودوا في الله كأبي بكرٍ وغيره: كان الخطب عليهم هيناً، لتفرق ما  
نالهم وعدم استمراره، أما الذين لحقوا بهم في السبق إلى اعتناق الإسلام؛ فإنهم كانوا تحت سيطرة  
الأعداء وفي قبضتهم، بسبب ضعفهم أو استرقاقهم، ومن ثمَّ: كانت فنتهم أشدَّ والتنكيلُ بهم  
أعظم... وغالب هؤلاء الذين عذبوا في ذات الله؛ قد صبروا واحتسبوا ابتغاء وجه الله وطلباً  
لمرضاته، وأن هذا الأذى كان حلواً في أعينهم: ما دام فيه رضا الله، فلم يتحولوا عن دينهم، ولم  
يخيدوا عنه: حتى أظهر الله الإسلام على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض، وقادة الدنيا بعد أن  
كانوا مستضعفين فيها، كما قال جل ذكره: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي  
الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ [القصص].

فقد ضرب السابقون الأولون من المسلمين المثل الأعلى في صلابة موقفهم، وتمسكهم  
بعقيدتهم، وشدة بأسهم فيما واجهوه من ابتلاء، وصبرهم على ما حل بهم من ألوان الفتنة  
والتعذيب على أيدي ذويهم وأقربائهم من المشركين، ولا عجب: فأولئك أقوام اختارهم الله  
لنصرة دينه وصحبة نبيه، وصدق سبحانه في وصفه لهم، ومدحه إياهم بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٠٨﴾ [الأحزاب].

وصدق من قال: فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ❀❀❀ إِنَّ التَّشْبُهَ بِالرَّجَالِ فَلَاحُ  
ومن ثمَّ: فعلى المؤمنى فى كل الأحوال، وجميع الأقطار، وكافة الأعصار: أن يقتدوا بسلفهم،  
ويحسنوا التأسى بجميل فعالمهم، مع قيامهم بواجب دينهم، وحقه عليهم، وأن يوثقوا صلتهم  
بخالقهم ومالك أمرهم، متضرعين إليه مخلصين له فى دعائهم، صادقين فى ابتهاهم والتجائهم:  
أن يكشف عنهم ما نزل بهم، وأن يحفظهم فيما بقى من أعمارهم، وألا يعذبهم على يد عدوهم ولا  
بعذاب من عنده: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً  
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٩﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ  
لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١١٠﴾ [المتحنة].

وذلك دون أن يتمنى أحد من اللاحقين: أنه لو كان من السابقين لفعل وفعل!! بل عليه أن  
يسد الثغرة التى هو فيها، ولا يؤتى الإسلام من جهته أبدأ، وقديماً شكاً بنو إسرائيل لكليم الله  
موسى ما نزل بهم من ذل وهوانٍ وتعذيبٍ وقتلٍ على يد فرعونَ وجنوده، فوعظهم ونصحهم كما  
قص علينا ربنا ذلك فى كلامه العزيز: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ  
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف].

وكذلك قال سبحانه لأقوام من قبلنا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ  
لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس].

وهذه نصيحة من المقداد بن عمرو، المشهور: بالمقداد ابن الأسود، أحد السابقين الذين قال فيهم ابن مسعود - في الحديث الآتي عند الهامش رقم: ٣٠١-: «أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ...» فذكره فيهم.

أخرج الطبراني بسند صحيح، عن جبير بن نفير أحد المخضرمين، وأجلة التابعين قال: جَلَسْنَا إِلَى الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، وَاسْتَمَعْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَا رَأَيْتَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيْبَهُ اللَّهُ عَنْهُ، لَا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُحِبُّوهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ.

ثم قال مخاطبًا لجلسائه: أَلَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَجِدْكُمْ أَنْ لَا تَعْرِفُوا إِلَّا رَبِّكُمْ؛ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفَيْتُمْ الْبَلَاءَ بغيرِكُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فِتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ؛ لَمْ يَرَوْا أَنَّ دِينَنَا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ وَأَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَهُ لِلْإِيْمَانِ، لَيَعْلَمَنَّ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ مَنْ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ، وَهُوَ يَعْلَمَنَّ أَنَّ حِمِيمَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا الَّتِي قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان] (٢٩٧).

(٢٩٧) قال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد في أحدها: يحيى بن صالح، وثقه الذهبي، وتكلموا فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: كتاب المغازي والسير/ باب: علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه ١٧/٦. وأقول: يحيى بن صالح الحمصي، أخرج له الشيخان أيضا، ووثقه ابن معين وغيره، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال الذهبي: حافظ فقيه. الجرح والتعديل ١٥٨/٩، وتذكرة الحفاظ ٤٠٨/١، والحديث ليس في الطبراني فقط كما ذكر الهيثمي؛ بل أخرجه الإمام أحمد والطبراني وغيرهما بأسانيد صحيحة، وصححه ابن حبان، ينظر: المسند ٢/٦، ٣ ح ٢٣٩٢٢، والمعجم الكبير

وَلِنِعْمَ مَا أَدَّبَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ

عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

وما أجمل توجيهه ﷺ في قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» (٢٩٨).

وفي هذه الوصية: تعليمٌ للتابعين أن لا يتمنوا عين النعمة؛ وإنما يجوز لهم: أن يتمنوا مثل النعمة، وبهذا لا يكون هناك تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣١]، وبين قوله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ...» متفقٌ عليه من حديث عبد الله بن عمر، وابن مسعود (٢٩٩).

وبهذا الصقل والإعداد للمؤمنين: وصلوا إلى ذروة المعالي، وصاروا سادة الخلق؛ فلم تغرهم كثرتهم ولا قوتهم، ولم يُعجبوا بأنفسهم؛ بل: دائماً يلجأون إلى ربهم ويستعينون به، واثقين بأن النصر من عنده، وقد جربوا ذلك في وقائع عديدة، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

للطبراني ٢٠/٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٧٧ ح ٦٠٠، ٦٠٨، ٦٥٧، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالها ونسائهم/ باب: ذكر تفريق المصطفى ﷺ بين الحق والباطل بالرسالة ٨/١٧٤، ١٧٥ ح ٦٥١٨، وحلية الأولياء لأبي نعيم ١/١٧٥، ١٧٦، وقد زدت بعض الجمل المعارضة للتوضيح، وللفادة: انظر حديث حذيفة ليلة الأحزاب ٢/٢٥٨. (٢٩٨) متفقٌ عليه، البخارى ح ٢٩٦٦ و ٣٠٢٥، ومسلم ح ١٧٤٢.

(٢٩٩) صحيح البخارى: كتاب العلم/ باب الاغْتِيَابِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ... وفي كتاب فضائل القرآن/ باب اغْتِيَابِ صاحب القرآن، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فَضْلِ مَنْ يَقْرَأُ بِالْقُرْآنِ وَيُعَلِّمُهُ وَفَضْلِ مَنْ تَعَلَّمَ حِكْمَةً مِنْ فَهْمِهِ أَوْ غَيْرِهِ فَعَمِلَ بِهَا وَعَلَّمَهَا.

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ [التوبة].

وكذلك يقول جل في علاه: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك].

ومع كل ذلك الإيذاء والتعذيب والفتنة والتنكيل... فقد بادر العديد من أهل مكة وغيرها إلى اعتناق الإسلام ونبذ ما سواه، واستجابوا لله ولرسوله، وكان الكثيرون من هؤلاء السابقين يَسْتَحْفُونَ بآبائهم حفاظاً عليه، وصيانة له، حتى كان الواحد منهم لا يعلم بإسلام غيره.

أخرج البخارى فى مواطن من صحيحه، عن سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَإِنِّي لَكُنْتُ الْإِسْلَامَ» (٣٠٠).

فهذا الخبر من سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عما قد علمه، وليس إخباراً عن الواقع وحقيقة الأمر، ولقد كان رسول الله ﷺ لا يطلب من أحد أن يستعلن بدينه، وفقاً به وشفقة عليه، وإذا أصر أحدهم على الجهر والاستعلان: لم يمنعه ﷺ من ذلك، كما سيأتى فى قصة إسلام أبى ذر، وعمرو بن عبسة السلمى.

وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه بسند حسن، وصححه ابن حبان والحاكم، عن عبدالله بن مسعود قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ:

(٣٠٠) صحيح البخارى: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب سعد بن أبى وقاص ٨٣/٧ ح ٣٧٢٦، ٣٧٢٧ (واللفظ له) وفى كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام سعد ابن أبى وقاص ١٧٠/٧ ح ٣٨٥٨.

فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ: فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَالْبَسُوهُمْ أَذْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُواهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدَّ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوَلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ، أَحَدٌ<sup>(٣٠١)</sup>.

ونلاحظ أن بلالاً لم يكن وحده هو الذى صبر على التعذيب، وثبت على معتقده، ولم يوافق المشركين، ولا طواعهم فى النطق بكلمة الكفر... بل كان معه على هذا الحال غيره من السبعة المذكورين وآخرون سواهم من السابقين الذين لم يُذكروا فى هذا الحديث.

فهذه أول شهيدة فى الإسلام: سمية بنت خباط، والدة عمار، قال الحافظ ابن حجر: كانت مولاة لأبى حذيفة بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وكانت سابعة سبعة فى الإسلام، عذبا أبو جهل، وطعنها بحربة فى قبلها، فماتت، فكانت أول شهيدة فى الإسلام.

وقال ابن إسحاق: حدثنى رجال من آل عمار بن ياسر أن سمية أم عمار عذبا آل بنى المغيرة على الإسلام، وهى تأبى غيره حتى قتلوها.

(٣٠١) معنى قوله: (وَإِتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا) أى: وافقهم، وأجابهم، وطواعهم فيما يريدون، والحديث فى المسند ١/٤٠٤، وصححه الشيخ شاکر تحت رقم ٣٨٣٢، وسنن ابن ماجه: المقدمة، فى فضائل أصحاب رسول الله، فضل سلمان وأبى ذر والمقداد ١/٥٣ ح ١٥٠، وقال فى الزوائد: إسناده ثقات، وصحيح ابن حبان: كتاب إخباره عن مناقب الصحابة، ذكر صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٩/١٠٧ الإحسان، والمستدرک: كتاب معرفة الصحابة ٣/٢٨٤ وصحح إسناده الحاكم، وأقره الذهبى، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب المرتد، المكره على الردة ٨/٢٠٩، لكن فى سننه عندهم: عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبى النجود الكوفى، وهو صدوق فى الحديث، حجة فى القراءة، قال الذهبى: وثق. الكاشف ٢/٤٩.

وخبر إعتاق أبى بكر لبلال: رواه ابن إسحاق فى السيرة ج ١ ص ٣٩٠: ٣٩٢ وقد صرح بالسباع، وسنده مرسل، عن عروة، وابن سعد فى طبقاته ج ٣ ص ٢٣٢ والطبرانى فى الكبير ج ١ ص ٣٣٦، ٣٣٧ مختصراً مرسلًا، عن عروة.



وأخرج ابن سعد بسند صحيح، عن مجاهد قال: أول شهيدة في الإسلام سمية والدة عمار بن ياسر، وكانت عجوزاً كبيرة ضعيفة، ولما قُتِل أبو جهل يوم بدر: قال النبي ﷺ لعمار: «قَتَلَ اللَّهُ قَاتِلَ أُمَّكَ» (٣٠٢).

وكان من هؤلاء الذين عذبوا وأوذوا في سبيل الله فصبروا طلباً لمرضاة الله: ياسر مع زوجته سمية، وابنها عمار، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح إلى سالم بن أبي الجعد (٣٠٣) أنه قال: دَعَا عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ... فَبَعَثَ - يَعْنِي: عُمَانُ - إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَقَالَ: أَلَا أَحَدُكُمْ عِنْدَهُ؟ يَعْنِي: عَمَّارًا، أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخِذَا بِيَدِي نَتَمَسَّيْ فِي الْبَطْحَاءِ، حَتَّى آتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ - يَعْنِي: عَمَّارًا - يُعَذَّبُونَ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!! أَلَدَّهَرُ هَكَذَا؟ - أَى: أَيْسْتَمِرُّ هَذَا الْحَالُ مَا دَامَتِ الْحَيَاةُ؟ - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اصْبِرْ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ». يَعْنِي: ثِقَةٌ مِنْهُ ﷺ بِرَبِّهِ فِي إِجَابَتِهِ دَعْوَتَهُ. وَفِي رِوَايَةِ الطَّبْرَانِيِّ، عَنْ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَبِي عَمَّارٍ، وَأُمِّ عَمَّارٍ: «اصْبِرُوا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّةُ» (٣٠٤).

(٣٠٢) الإصابة ١٨٩/٨، ١٩٠، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٢٠/١، ٣١٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٧/٨ ط الكتب العلمية بيروت، والحديث مرسل، رجاله ثقات، وينظر: سيرة ابن إسحاق ص ١٧٢ تحقيق محمد حميد الله، والسير والمغازي ص ١٩٢ تحقيق: سهيل زكار، كلاهما لابن إسحاق.

(٣٠٣) المسند ١/٦١، ٦٢ وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: كتاب المناقب، فضل عمار بن ياسر وأهل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٢٩٢/٩، ٢٩٣، لكن سالم بن أبي الجعد لم يدرك عثمان بن عفان، فحديثه عنه منقطع، قال الحافظ ابن حجر: سالم بن أبي الجعد، أحد ثقات التابعين، ذكره بعضهم في المخضرمين، وهذا باطل، فقد جزم أبو حاتم الرازي بأنه لم يدرك ثوبان، ولا أبا الدرداء، ولا عمرو بن عبسة، فضلاً عن عثمان، فضلاً عن عمر، فضلاً عن أبي بكر. الإصابة ٣/٢٢٤، ٢٢٥ القسم الرابع من حرف السين.

(٣٠٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات، ومجمع الزوائد ٢٩٣/٩.

وعن جابر أن النبي ﷺ مر بعمار بن ياسر، وبأهله يعذبون في الله عز وجل فقال ﷺ: «أبشروا آل ياسر، موعِدُكُمْ الْجَنَّةُ» قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير إبراهيم بن عبدالعزيز المقوم، وهو ثقة (٣٠٥).

فتلك أحاديث يقوى بعضها بعضًا تدل بمجموعها على أن احتمال الإيذاء والصبر عليه؛ أفضل من مطاوعة الكافرين وموافقهم، وسيجلى ذلك في التحقيق التالي.

### تَحْقِيقٌ حَوْلَ فِتْنَةِ السَّابِقِينَ وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ

فنبات بلال على عقيدته وتمسكه بدينه، وإصراره على إظهاره وإعلانه مها كلفه ذلك من عناء ومشقة: هو الأفضل للمؤمن، والأكمل للمسلم، وقد جعل الله له في العاقبة الأجر والنصر، وكما قيل: على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

وهذا خباب بن الأرت، أحد السابقين إلى الإسلام، وكان ممن عذبوا في الله وهو يشكو لرسول الله ﷺ ما يفعل به وبأمثاله، فحدثه رسول الله ﷺ عما لاقاه المؤمنون في الأمم السابقة من النكال والتعذيب دون أن يصر فهم ذلك عن دينهم، أو يحولهم عن معتقدهم، أخرج البخاري وغيره من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيَمْسَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حِمِّهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنِ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَمَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ

تَسْتَعْجِلُونَ» (٣٠٦).

ولقد روى الحافظ أبو عمر ابن عبد البر بسنده، أن عمر بن الخطاب سأل خباباً عما لقي من المشركين في ذات الله - يعنى: من التعذيب - فقال: يا أمير المؤمنين! أنظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيتُ كالسيوم!! تأذياً من هول ما رآه في ظهره من آثار التعذيب التي مضت عليها أعوام عديدة، فقال خباب: لقد أوقدت لي نار، وسُحِبْتُ عليها، فما أطفأها إلاَّ ودك ظهري. يعنى: ما يسيل منه من الدم والشحم.

وأما ما فعله البعض الآخر من الصحابة من موافقة للكافرين على ما يقولون، ومطاوعتهم فيما يطلبون، فلا حرج في ذلك لمن علم من نفسه عدم الصبر على التعذيب، حتى ولو نطق بكلمة الكفر، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل] (٣٠٧).

وهذا من فضل الله ورحمته على هذه الأمة، أما من قبلهم: فلا يقبل منهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف].

وأجد لزاماً على، ومن حق القارئ لدى: أن نقف معاً لنفصّل القول في تلك القضية، حتى

(٣٠٦) صحيح البخارى: كتاب المناقب/ باب: علامات النبوة ٦/٦١٩، وفي كتاب مناقب الأنصار/ باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين ٧/١٦٤، ١٦٥، وكتاب الإكراه (واللفظ له) باب: من اختار الضرب والهوان على الكفر ١٢/٣١٥، وسنن أبي داود: كتاب الجهاد/ باب: في الأسير يكره على الكفر ٣/٤٧، ومسند الإمام أحمد ٥/١٠٩، ١١٠، ١١١، ٦/٣٩٥، و السنن الكبرى للبيهقي: كتاب السير/ باب: مبتدأ الخلق ٩/٥.

(٣٠٧) يراجع في ذلك: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/١٨٠: ١٨٢، وفتح الباري ١٢/٣١٢، وبذل المجهود ١٢/١٦٢، ١٦٣.

يكون التأسي والافتداء من الخلف بسلفهم على بينة وبصيرة، ويتحقق الهدى والانتفاع في الدارين بقصص هذه السيرة، وذلك لأن أهم ما تمتاز به هذه الدراسة التحليلية، لوقائع وأحداث السيرة النبوية هو: تجلية الفهم الصحيح لأمثال تلك المشكلات.

ولنبداً أولاً: بأقوال أهل العلم في المراد من تلك الآية الكريمة، وما يستفاد منها من أحكام وفوائد عظيمة، ثم تتبع ذلك ببيان ما يباح للمكره فعله، وما ينبغي أن يقوم به من الأولى والأفضل: مع الإشارة إلى نماذج أخرى واقعية من سلف هذه الأمة المرضية.

فالكافر المرتد هو الذي نطق لسانه بالكفر، وانشرح به صدره، بعد أن كان مستبصراً مطمئناً بالإيمان، فهذا قد غضب الله عليه في الدنيا، وأعدَّ له العذاب العظيم في الآخرة.

واستثنى الله سبحانه وتعالى من ذلك: من تكلم لسانه بالكفر، ولكن قلبه مطمئن بالإيمان، ويأبى من داخله ما نطق به لسانه مكرهاً، وإنما وافق الكافرين وطاوعهم مكرهاً لما ناله منهم من ضرب وأذى، فهذا لا يدخل في ذاك الحكم؛ بل هو معذور في الدنيا، مغفور له في الآخرة.

والإكراه يكون من ظالم قادر على تنفيذ ما يهدد به: من قتل أو إتلاف عضو أو سجن أو ضرب، أو اعتداء على عرض أو مال، وغير ذلك، ولا يستطيع أحد دفعه أو رده إلا الله.

ومن ثمَّ: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل أنه لا إثم عليه، بشرط: أن يتلفظ بلسانه فقط، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإن طواع قلبه لسانه في الكفر: كان آثماً كافراً؛ لأن ذلك الذي أكرهه لا سلطان له على قلبه وباطنه، وإنما سلطته على لسانه وظاهره؛ بل قال بعض المحققين: إن المكره على الكفر ينبغي عليه عند التلفظ به قصد التورية واستعمال المعارض من الكلام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كما ذكر عن أحد العلماء في زمن الإمام أحمد بن حنبل عند الفتنة بالقول بخلق القرآن: أنه دُعي للقول بذلك فقال: القرآن، والتوراة والإنجيل،

والزبور؛ - يُعَدُّهُنَّ عَلَى أَصَابِعِ يَدِهِ - هذه الأربعة مخلوقة، يقصد هو بقلبه أصابع يده التي عدد عليها أسماء هذه الكتب الأربعة، وفهم الذي أكرهه: أنه يريد الكتب المنزلة، فنجا ذلك العالم، ولم يضره فهم من أكرهه.

أما إذا أعجله الذي أكرهه دون روية؛ ولم يخطر بباله شيعى من التورية أو المعاريض، فقال ما أكره عليه خشية القتل أو إتلاف بعض أعضائه: فإنه لم يكن حيثئذ كافراً.

وقد استحب العلماء استعمال المعاريض والتورية بالألفاظ لمعنى الكفر من غير اعتقاد له، لأن إظهار الكفر محظور شرعاً وعقلاً، فيكون المكره بمنزلة من سبق لسانه بالكفر دون تعمد أو قصد.

ولما سمح الله جَلَّ جَلَالُهُ من الإكراه بترك الإيمان به ظاهراً مع أنه أصل الدين وأساسه، ولم يؤخذ من كفر به مكرهاً: قاس العلماء على ذلك فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه على شيء منها لم يعاقب عليه، ولا يترتب على فعله حكم.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما من كلام يدرأ عنى سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكلماً به، لكن العلماء أجمعوا على أنه يستثنى من ذلك: ما إذا أكره على قتل غيره، أو الاعتداء على محارمه بظلم لا يستطيع رده، ولا يمكنه التحلل منه، فإنه لا يسوغ له الإقدام على شيء من ذلك، مهما حل به من بلاء وحصل له من تهديد، لأنه لا يحل له أن يفدى نفسه بغيره ولا أن يستحيى نفسه بقتل سواه، فلا يقتل من يساويه فى الحرمة استبقاءً لنفسه، ولا يجوز له أن يقدم على ظلم الناس بانتهاك حرمتهم حفظاً لحرمة، فلا يحمى نفسه بالتعدى على غيره؛ بل عليه أن يصبر لما نزل به من بلاء حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، أو يقبضه إليه على أحسن حال، وينزله أرفع الدرجات

مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (٣٠٨).

أخرج الإمام النسائي بسند صحيح من حديث طارق بن شهاب رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغُرْزِ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» (٣٠٩).

وله شاهد حسن من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» أَوْ «أَمِيرٍ جَائِرٍ» (٣١٠).

وله طريق أخرى عنه - عند الإمام أحمد من حديث طويل فى آخره: «أَلَا وَأكْبَرُ الْغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرٍ عَامَّةٍ، أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مَهَابَةٌ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ، أَلَا إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ».

وفى رواية: «وَمَا شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْ كَلِمَةِ عَدْلٍ تُقَالُ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، فَلَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ اتِّقَاءُ

(٣٠٨) يراجع فى هذا التحقيق: أحكام القرآن للجصاص، ٣/ ١٩١: ١٩٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٧:

١١٨٢، وتفسير القرطبي ١٠/ ١٨٠: ١٨٣.

(٣٠٩) سنن النسائي: كتاب البيعة/ باب: فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر ٧/ ١٨١ ح ٤٢٢٠، لكن طارق بن شهاب: رأى النبى ﷺ ولم يسمع منه، كذا قال أبو داود. تقريب التهذيب. ص ٢٨١ والحديث يقويه ما بعده ويشهد له.

(٣١٠) سنن أبى داود (واللفظ له) كتاب الملاحم/ باب: الأمر والنهى ٤/ ٥١٤ ح ٤٣٤٤، وجامع الترمذى: كتاب

الفتن/ باب: أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ٤/ ٤٠٩ ح ٢١٧٤ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب،

وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢/ ١٣٢٩ ح ٤٠١١، وفى سننه عندهم: عطية بن

سعد العوفى، وهو صدوق يخطئ كثيرا، وكان شيعيا مدلسا. تقريب التهذيب ص ٣٩٣، ولكن تابعه عن أبى سعيد فى

روايته الإمام أحمد التاليتين: أبو نضرة المنذر بن مالك، وهو ثقة كما فى التقريب ص ٤٥٦ فالحديث حسن بطريقه،

ويتقوى بما قبله.

النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالْحَقِّ إِذَا رَأَوْهُ أَوْ شَهِدَهُ» ثُمَّ بَكَى أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ مَنَعَنَا ذَلِكَ (٣١١).

قال الخطابي: إنما صار ذلك أفضل الجهاد، لأن من جاهد العدو: يكون مترددًا بين رجاء وخوف لا يدري: هل يَغْلِبُ أو يُغْلَبُ؟ أما صاحب السلطان: فهو مهوور في يده، فهو إذا قال الحق، وأمر بالمعروف، فقد عَرَّضَ نفسه للتلف، وأهدف لنفسه الهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف، والله أعلم (٣١٢).

ومن هنا اتفق العلماء على أنه يجوز للمُكْرَه على الكفر: أن يَتَلَفَّظَ بِالْكَفْرِ دُونَ أَنْ يَعْتَقِدَهُ بقلبه، وذلك إبقاءً لمهجته حذر الهلاك والتلف، واتقاءً لما يصيبه من نكال أو تعذيب لا يطيقه، كما فعل عمار بن ياسر، أخرج الحاكم بسند وثق رجاله إلى أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له: «ما وراءك» قال: شرٌّ يا رسول الله ما تُرَكْتُ حتى نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، قال: «إن عادوا فعد» (٣١٣).

(٣١١) الرواية الأولى في المسند ١٩/٣، والثانية ٦١/٣، وصحح إسنادهما الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم، في تكملته لتحقيق الشيخ أحمد شاكر في المسند ٦٧/٢٢ ح ١١١٦٠، والمستدرک: كتاب الفتن والملاحم ٥٠٥/٤، ٥٠٦، وقال الحاكم: هذا حديث تفرد بهذه السياقة: على بن زيد بن جدعان القرشي، عن أبي نضرة، والشيخان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم يحتجا بعلى بن زيد، وقال الذهبي: ابن جدعان: صالح الحديث، وأقول: ابن جدعان احتج به مسلم في المتابعات، وحديثه هنا يرتقى بالمتابعة المتقدمة، عن محمد بن جحادة، وهو ثقة، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد عند أبي داود وغيره، والله أعلم.

(٣١٢) هامش سنن أبي داود ٥١٤/٤ بتصرف.

(٣١٣) المستدرک: كتاب التفسير ٣٥٧/٢، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره

وهذا القول من رسول الله ﷺ لعمار، إنما هو على سبيل الجواز، وبيان الإباحة، وليس على جهة الإيجاب؛ بل ولا على الندب، لأن الأفضل للمؤمن والأولى به: أن لا يظهر الكفر، ولا يتكلم به حتى ولو قتل، فعليه أن يطيب نفساً بالموت، كما فعل بلال وخباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما أشرنا إلى ذلك سلفاً، لأن في ذلك إعزازاً للدين، وغيظاً للكافرين.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما في قصة الصحابي الجليل عبدالله بن حذافة وأصحابه مع ملك الروم، وقد تناقلها أصحاب التاريخ وأهل السير، وانظر ما سيأتي في الجزء الثاني من هذا الكتاب تحت عنوان: «عاصم بن ثابت ورفاقه والاقْتداء بصنيعهم».

### الدَّعْوَةُ مِنْ بَدءِ البَعْثَةِ

وبهذا العرض المستفيض لأحداث الأعوام الثلاثة الأولى من الدعوة: نستطيع أن نؤكد أنَّ رسولَ الله ﷺ قد دعا الناس إلى الدخول في دين الله تعالى سرّاً وجهاً من بدء البعثة؛ امتثالاً لقول الله تعالى في أول نداءٍ خصّه به ﷺ وأول أمرٍ وجّههُ إليه بالرسالة: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدِينَةَ ﴿٦٦﴾ فَمَنْ فَأَنْذِرْ ﴿٦٧﴾﴾ [المدثر].

الذهبي، والسنن الكبرى للبيهقي: كتاب المرتد/ باب: المكره على الردة ٢٠٨/٨، ٢٠٩ عن الحاكم... به، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وثقه أحمد وابن معين، وقال أبو حاتم: لا يسمى، منكر الحديث. تهذيب التهذيب ١٢/١٦١، والجرح والتعديل ٩/٤٠٥ عن محمد بن عمار بن ياسر، ذكره ابن حبان في الثقات، والبخارى في الأوسط: فصل من مات بين الستين إلى السبعين، وهو يروى عن أبيه كما في التهذيب ٩/٣٥٩ لكن روايته لهذا الحديث ظاهرها الإرسال، لأنه لم يشهد قطعاً تلك القصة، ولم يذكر أنه رواها عن أبيه أو سمعها منه، كما أخرج هذا الحديث معضلاً، عن أبي عبيدة المتقدم؛ ابن جرير ٤/١٢٢، ونقله عنه ابن كثير ٤/٥٢٥ كلاهما في التفسير، وأبو نعيم في الحلية ١/١٤٠، نحو رواية الحاكم والبيهقي، فالله أعلم.



وهذا بخلاف ما ذهب إليه كثيرون من كُتّابِ السيرة؛ حيث فهموا أن رسول الله ﷺ استخفى بدعوته وأسَرَّ بها مدة ثلاث سنين استنادًا إلى ما نقله ابن هشام، عن ابن إسحاق من قوله: ثم دخل الناس إلى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدِّث به، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْرُهُ ﷺ أن يصدع بها جاءه منه، وأن يُبَادِي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى ﷺ واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه (٣٢٠).

وهذا الفهم من قول ابن إسحاق الذي نقله عنه ابن هشام: فيه نظر، لأنني لما وقفت على كلام ابن إسحاق في كتبه الأصلية التي طُبعت مؤخرًا: وجدت أن ابن إسحاق نفسه ليس جازمًا أن النبي ﷺ استخفى بدعوته مدة ثلاث سنين: فكيف يُعتمدُ عليه في ذلك؟! وهاك قوله الذي أثبتته في كتبه: وكان ﷺ ربما أخفى الشيء واستتر به إلى أن أمر بإظهاره ثلاث سنين من مبعثه (٣٢١).

فهذا القول - كما ترى - ليس قاطعًا باستخفاء النبي ﷺ بدعوته من بدء بعثته؛ بل الذي ظهر لنا بالأدلة، ومراجعة النصوص في مصادرها، والمقارنة بينها: أن النبي ﷺ لم يتأخر يومًا واحدًا عن إعلان دعوته إلى الناس حسب ما أمره الله تعالى به، ولم يتوان ﷺ لحظة واحدة عن تبليغ ما أوحى إليه من ربه.

وسوف نُفصِّلُ القولَ ونبسِطُهُ ضمنَ التحقيقات والاستنباطات الموثقة بالأدلة من الكتاب والسنة، وذلك في الموضوعات الآتية، وبالله الثقة، ومنه العون والمدد.

(٣٢٠) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٢، ٢٦٣.

(٣٢١) سيرة ابن إسحاق ص ١٢٦ فقرة ١٨٨ تأليف محمد بن إسحاق بن يسار، المتوفى سنة ١٥١ هـ تحقيق وتعليق: د/محمد حميد الله، مطبعة: محمد الخامس بمدينة فاس، المغرب ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م، وكتاب السير والمغازي ص ١٤٥ تحقيق د/سهيل زكار، ط دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

## إِسْلَامُ أَبِي ذَرٍّ وَصَدْعُهُ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ

وهذه قصة إسلام أبي ذرِّ الغِفَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٣٢٧) كما أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِإِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ؟ قَالَ - أَيْ: أَبُو جَمْرَةَ - قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ، فَبَلَّغْنَا أَنَّ رَجُلًا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزُعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقُلْتُ لِأَخِي: انْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، كَلِّمُهُ وَأُنَبِّئْ بِخَبْرِهِ، فَاَنْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ، فَقُلْتُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ، وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ، وَفِي رِوَايَةٍ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشَّعْرِ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَشْفِينِي مِنَ الْخَيْرِ، وَفِي رِوَايَةٍ: مَا شَفَيْتَنِي بِمَا أَرَدْتُ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصَا (٣٢٨)، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لَا أَعْرِفُهُ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ؟ قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَاَنْطَلَقَ إِلَى الْمَنْزِلِ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَاَنْطَلَقْتُ مَعَهُ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلَا أَخْبِرُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَسْأَلَ عَنْهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ، قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ - أَيْ: آن - لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ؟ قَالَ: قُلْتُ لَا، قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي، قَالَ فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ، وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ؟ قَالَ قُلْتُ لَهُ: إِنْ كَتَمْتَ عَلِيًّا؛ أَخْبَرْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ، قَالَ قُلْتُ لَهُ: بَلَّغْنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزُعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيَكَلِّمَهُ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِينِي مِنَ الْخَيْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ، فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ، هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ، فَاتَّبِعْنِي، ادْخُلْ حَيْثُ ادْخُلُ، فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي،

(٣٢٧) مشهور بكنيته، قد اختلف في اسمه واسم أبيه، والأكثر على أن اسمه: جندب بن جنادة، كان طويلاً، نحيفاً، أسمر اللون، يوازي ابن مسعود في العلم، وقد توفي قبله بالريذة سنة ٣١ من الهجرة، ومناقبه كثيرة. الإصابة ١٠٥/٧: ١٠٩، وقد رويت قصة إسلامه في الصحيح على أكثر من صفة، نذكر إحداها فيما يأتي.

(٣٢٨) في رواية مسلم: «فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً» أَيْ: قَرَبَةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ.

وَأَمُضِ أَنْتَ، فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ، حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: اغْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، فَعَرَضَهُ، فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي، فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ: اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ» فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِأَضْرَحَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ إِنْني أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ، فَقَامُوا، فَضَرَبْتُ لِأَمُوتَ، فَأَذْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنِهِمْ فَقَالَ: وَيَلِكُمْ! تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارِ، وَمَتَجَرِّكُمْ وَمَتْرَكُمْ عَلَى غِفَارِ؟! فَأَقْلَعُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ، رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ، فَقَالُوا، قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ فَصْنِعَ بِي مِثْلَ مَا صْنِعَ بِالْأَمْسِ، وَأَذْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ، قَالَ: فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٢٩).

ويستفاد من ذلك: أن قريشا كانت تضرب وتعذب من أسلم إذا علمت به، ولو كان من غير أهل مكة، كما فعلت بالصحابي الجليل: أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جهر فيهم بكلمة التوحيد، مع أن رسول الله ﷺ قد طلب منه كتمان إسلامه شفقة عليه، ورفقا به، لكنه أثار الجهر بكلمة الحق بين المشركين، فضر به ضربا لا يبالي أحدهم لو مات بسببه، ولم يستنقذه منهم سوى العباس بن عبدالمطلب، حيث خوفهم من قومه أن يقطعوا عليهم طريق تجارتهم التي يعيشون عليها.

(٣٢٩) صحيح البخارى: كتاب المناقب/ باب: قصة إسلام أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٥٤٩/٦، ٥٥٠ ح ٣٥٢٢، وفي كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام أبي ذر الغفاري ١٧٣/٧ ح ٣٨٦١، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب: من فضائل أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١٩٢٣/٤: ١٩٢٥ ح ٢٤٧٤، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/٤، ١٦٥، ط التحرير - القاهرة. وفي حديث عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر بأطول من هذا، وبألفاظ مختلفة عند مسلم ٤/١٩١٩: ١٩٢٣، ومسنَد الإمام أحمد ٥/١٧٤، ١٧٥، وابن سعد في الطبقات ٤/١٦١: ١٦٣، وفي مسند الطيالسي ص ٦١، ٦٢ مختصرا ح ٤٥٨.

كما يستفاد منها: أن عمليات القهر والإيذاء قائمة لمن عرّف إسلامه، وكان هؤلاء يأتون إلى دار الأرقم، أو حيث يكون رسول الله ﷺ: فيخفف آلامهم، ويمسح جراحهم، ويثبتهم. وكذلك يستفاد من تصرف علي بن أبي طالب بالرغم من حداثة سنه: أنه العاقل الفقيه الذى حنكته التجارب، وذلك واضح فى تصرفه مع أبي ذر منذ لقيه فى المسجد إلى أن أدخله على رسول الله ﷺ فى دار الأرقم بن أبي الأرقم.

### الدُّرُوسُ وَالْعِبَرُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ

نستطيع أن نؤكد أن النبى ﷺ لم يَسْتَخْفِ بالدعوة فى الأعوام الأولى، وذلك بما رواه ابن هشام نفسه حينما ذكر إسلام أبى بكر، قال: فلما أسلم أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله (٣٣٠).

ومن المعروف أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أوائل من أسلم؛ إن لم يكن أول المسلمين، من الرجال البالغين، فكيف يُظهِرُ إسلامه فى الفترة التى من المفترض أنها سرية؟! ومع ذلك كلّه: لم أُغْفَل قول من قال بسرية الدعوة فى تلك الفترة، لأن التخفى والاستسرار له فوائده إذا حدث ما يقتضيه وحصل ما يستدعيه، وذلك واضح فى الموضوعات التالية، ثم نَخْلُصُ بعدها إلى هذه النتيجة: «إذْن لم يَسْتَخْفِ ﷺ بدعوته» بل: لم نُبْعِدْ إذا قلنا: إن هذا الدين عالمى منذ بعثة النبى ﷺ، وإن بدأ بدعوة الأقربين من عشيرته فى أم القرى.

## ١- فقه الصحابة في التخفي والاختفاء بهم في ذلك عند الفتن

من واقعية هذا الدين أنه لا يطلب من الناس ما لا يطيقون، وبما أن الناس ليسوا جميعاً في مستوى واحد في قدرتهم على تحمل الفتنة، فإن الاستخفاء يتيح لبعضهم شيئاً من الأمن ولو إلى مدة من الزمن قبل أن يُكتشف أمرهم، وقد كان ﷺ حريصاً على إبعاد الأذى عن أتباعه ما أمكنه ذلك.

وكذلك المؤمنون في أي زمان كانوا وفي أي مكان حلوا، إذا نزلت بهم فتنة أو أصابهم ابتلاء: جاز لهم أن يعودوا إلى الاستسرار، ويلجأوا إلى الاستخفاء أسوة بالنبي ﷺ وأصحابه في هذه الفترة.

أخرج البخاري وغيره من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اَكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ مِنَ النَّاسِ» فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ، فَقُلْنَا: نَخَافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ؟! فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وَحَدَهُ وَهُوَ خَائِفٌ<sup>(٣٣١)</sup>.

وفي رواية مسلم وغيره يقول حذيفة: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْصُوا لِي كَمَ يَنْفُذُ الْإِسْلَامَ» قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّ مِائَةٍ إِلَى السَّبْعِ مِائَةٍ؟ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا» قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مَنَا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا<sup>(٣٣٢)</sup>.

(٣٣١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب: كتابة الإمام الناس ١٧٧/٦، ١٧٨، والسنن الكبرى للبيهقي: كتاب قسم الفع والغنيمة/ باب: السنة في كتاب أسامى أهل الفع ٣٦/٦، ويراجع: فتح الباري ١٧٤/٧، وما سبق تحت عنوان: «إسلام أبي ذر»، وحديث خباب بن الأرت عند هامش ٣٠٦.

(٣٣٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب: الاستسرار بالإيمان للخائف ١٣١/١ ح ٢٣٥، والسنن الكبرى للنسائي: كتاب السير/ باب: إحصاء الإمام الناس ٢٧٦/٥ ح ٨٨٧٥، وسنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب: الصبر على البلاء ١٣٣٦/٢ ح ٤٠٢٩، ومسند الإمام أحمد ٣٨٤/٥.

ومعلوم أن هذا الحديث كان بعد أن كثر المسلمون بالمدينة، وبعد أن أمن الناس بهجرتهم إلى رسول الله ﷺ وجهادهم معه، حتى إن حذيفة الذي أسلم بعد الهجرة (٣٣٣) يتعجب من خوف رسول الله ﷺ على المسلمين حتى أمر بعدهم وإحصائهم وتسجيل أسمائهم في صحف وسجلات، ولعل ذلك وقع عند خروجهم إلى أحد أو الخندق أو صلح الحديبية.

وشاهد حذيفة ابتلاء المسلمين بعد رسول الله ﷺ واستخفاءهم بدينهم واستسراهم بصلاتهم، في أواخر خلافة عثمان من بعض أمراء الكوفة الذين كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولا يقيمونها على وجهها، حتى كان بعض الوريين يصلى وحده سرا، ثم يصلى مع أولئك الأمراء، خشية الفتنة ومحافضة على وحدة كلمة المسلمين (٣٣٤)، وقد وقع ما هو أشد من ذلك بعد حذيفة في زمن الحجاج وغيره، وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، وعلم من أعلام النبوة الباهرة حيث أخبر ﷺ بالشئ قبل وقوعه، وبالأمر قبل حدوثه (٣٣٥).

(٣٣٣) في صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب: الوفاء بالعهد ٣/١٤١٤ ح ١٧٨٧ عن حذيفة قال: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي... قَالَ: فَأَخَذْنَا كُمًّا قُرَيْشٍ قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصُرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نَقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْحَبْرَ، فَقَالَ: «انصُرُوا! نَفِي هُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ». وينظر: الإصابة ٢/٣٩، ٤٠.

(٣٣٤) ينظر: ترجمة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي ولي إمرة الكوفة من سنة خمس وعشرين إلى سنة تسع وعشرين من الهجرة، في: الإصابة ٦/٤٨١، وفتح الباري ٦/١٧٨، وشرح النووي لصحيح مسلم ٢/١٧٩ حيث قال النووي: هذا الإسناد كله كوفيون، يعنى: سند حديث حذيفة «أحْضُوا لِي كَمَّ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ».

(٣٣٥) وكيف يكون العمل في هذه الأزمان؟! بعد حذيفة الذى توفي سنة ست وثلاثين من الهجرة، وقد صح عنه قوله: أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَيَّ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب: إخبار النبي فيها يكون إلى قيام الساعة ٤/٢٢١٧، وفتح الباري ٦/١٧٨.

أخرج الشيخان واللفظ لمسلم، عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ» (٣٣٦).

وعند مسلم عنه قال: وَاللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ، فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَسْرًا إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتْنََ: «مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكْدُنُ يَدْرُنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتْنٌ كَرِيحِ الصَّيْفِ، مِنْهَا صَعَارٌ، وَمِنْهَا كِبَارٌ» قَالَ حُدَيْفَةُ: فَذَهَبَ أَوْلَيْتِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي (٣٣٧).

وهكذا تعد فترة الاستخفاء: مرحلة تدريب على واقع جديد يتدرب فيه المسلم على المفاهيم الجديدة، كما يتعرف على أعضاء مجتمعه المسلم، مما يقوى صلة المسلمين ببعضهم، ويرفع من معنوياتهم... وهذا ما يجعلهم أكثر قدرة على تحمل البلاء عند وقوعه، وأكثر تعاونًا وتساندًا عند الحاجة.

## ٢- الحيلة والحذر مع اتساع نطاق الدعوة

قد دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سرًا وجهاً، وأمر الناس ببند عبادة الأوثان، فاستجاب له من شاء من أحداث الرجال وأشرف الناس، حتى كثر من آمن به في عشائر كثيرة

(٣٣٦) صحيح البخارى: كتاب القدر/ باب: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ ٤٩٤/١. وصحيح مسلم: كتاب الفتن

وأشراط الساعة/ باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة ٤/٢٢١٧.

(٣٣٧) صحيح مسلم ٤/٢٢١٦، الكتاب والباب المتقدمين.

ويطون متفرقة، ودخل الناس في الدين واحداً بعد واحد، من داخل مكة وخارجها، كما مر شيء من ذلك قريبا، ونضيف هنا:

ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بسنده، عن أبي أمامة قال: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَتَمُّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا فَفَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ» فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ، لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ» قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي» قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِي أَهْلِي، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ: أَنْتَ الَّذِي لَقَيْتَنِي بِمَكَّةَ؟» قَالَ: فَقُلْتُ بَلَى، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ... ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالْوُضُوءِ، وَالنَّبِيِّ ﷺ يَجِيبُهُ... الْحَدِيثُ مَطُولًا (٣٣٨).

(٣٣٨) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب: إسلام عمرو بن عبسة ١/٥٦٩: ٥٧١، وليس له في صحيح مسلم سوى هذا الحديث، وأخرج له الإمام أحمد هذا الحديث مفردًا، مع غيره من أحاديث أخرى لعمرو بن عبسة في المسند ١/١١١: ١١٤، ٣٨٥، وكان عمرو بن عبسة قد هاجر بعد ذلك في الفترة التي بين خيبر، وبين فتح مكة وشهدها معه ﷺ وتوفي في آخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. الإصابة ٤/٤٤٥: ٤٤٧، وفي سؤاله النبي ﷺ بقوله: «مَا أَنْتَ؟» أي:



وفي معنى قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» هو اسم جنس، وتعيينه بأبي بكر وبلال فيه نظر، لأنه قد سبق جماعة إلى الإسلام قبل عمرو بن عبسة، وأنه قد مضت فترة من الزمن حتى سمع وهو يبيلده أخبار رسول الله، فأتى يبيحث عنه حتى أسلم، ثم إن المسلمين في ذلك الوقت كانوا يستسرون بإسلامهم ويخفونه، حتى لا يطلع أحد من أهليهم وقراباتهم على إيمانهم، فضلاً عن أهل البادية من الأعراب، والقادمين من بلاد أخرى، والله أعلم (٣٣٩).

كما كانت المبالغة في السرية والكتمان، والحرص على الاستخفاء: من أجل مصلحة الدعوة الناشئة، وذلك واضح في جوابه ﷺ لعمرو بن عبسة السلمى حين سأله: من معك على هذا؟ فقال: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» حتى ظن عمرو أنه رابع أربعة في الإسلام، وما علم أنه ﷺ قد أخبره بجنس من آمن به، ولم يخبره بعدد من أسلم ولا بأسمائهم حرصاً على سلامتهم من الأذى والتعذيب، وكذلك كان أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى أنه رابع الإسلام أيضاً، وكل منهما لا يدري متى أسلم الآخر، وهذا عمار بن ياسر - كما أخرج ذلك البخاري عنه - يقول: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةٌ أَعْبُدُ - جمع عبد - وَأَمْرَاتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ (٣٤٠).

قال الحافظ ابن حجر في بيان معنى حديث عمار في أول من أسلم: أما الأعبد فهم: بلال، وزيد بن حارثة، وعمار بن فهيرة مولى أبي بكر، فإنه أسلم قديماً مع أبي بكر، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية بن خلف، وكان يعذبه على الإسلام، فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وأما الخامس فيحتمل أن يفسر بـ (شقران)، فقد ذكر ابن السكن في كتاب: «الصحابة» عن عبد الله بن داود أن

يسأله عن صفته ﷺ ولا يسأل عن ذاته.

(٣٣٩) البداية والنهاية ٣/٣١، ٣٢، وفتح الباري ٧/١٧٠.

(٣٤٠) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب: قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً» ١٨/٧، وفي كتاب

مناقب الأنصار/ باب: إسلام أبي بكر الصديق ٧/١٧٠.

النبي ﷺ ورثه من أبيه هو وأم أيمن، وذكر بعض شيوخنا بدل أبي فكيهة عمار بن ياسر، وهو محتمل، وكان ينبغي أن يكون منهم أبوه وأمّه، فإن الثلاثة كانوا ممن يعذب في الله، وأمّه أول من استشهدت في الإسلام، وأما المرأتان: فخديجة وأم أيمن أو سمية، وفي هذا الحديث: أن أبا بكر أول من أسلم من الأحرار مطلقاً، ولكن مراد عمار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حيثئذ جماعة ممن أسلم لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم، وذلك بالنسبة إلى من اطلع على إسلامه ممن سبق إسلامه (٣٤١).

ومن هنا: كان من يأتي من خارج مكة - وهو يريد الدخول في الإسلام - يكره أن يسأل عن رسول الله ﷺ أحدًا لعلمه أن قومه يؤذونه ﷺ بسبب قصد من يقصده، ويكرهون أن يظهر أمره فلا يدلون عليه من يسأل عنه؛ بل يمنعونه من الاجتماع به، ويخادعون حتى ينصرف عن مراده، وإلا آذوه وعذبوه، كما هو واضح في قصة إسلام أبي ذر الغفاري.

### ٣- عالمية الإسلام من مُبتدأ البعثة

كما كانت عالمية الإسلام واضحة منذ بدء البعثة، حيث انتشر الإسلام في عشائر قريش وبطونها الأربعة عشر بمكة انتشارًا متوازنًا، فمثلاً: علي بن أبي طالب الذي كان أول الفتيان إسلامًا وهو في نحو العاشرة من عمره: من بني هاشم، وأبو بكر الصديق أول الرجال البالغين إيمانًا: من بني تيم، وعثمان بن عفان: من بني أمية، والزبير بن العوام: من بني أسد، وعبدالرحمن بن عوف: من بني زهرة، وعثمان بن مظعون: من بني جمح.. وهكذا.

وما يدل كذلك على أن الإسلام لم يكن خاصًا بقريش وأهل مكة: أن كثيرين قد اعتنقوه

وهم من خارج مكة مثل: عبدالله بن مسعود الذى كان من قبيلة هذيل، وأبى ذر: من غفار، وعمار بن ياسر: من عنس، وعمرو بن عبسة: من سليم، وغير ذلك ممن سبقت الإشارة إلى إسلامهم فى تلك الفترة التى حددها ابن إسحاق وغيره بثلاث سنين (٣٤٢).

بل: إن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قد أعلم نبيه الخاتم محمداً ﷺ بعظم مَهْمَتِهِ، وضخامة مسؤوليته، وأنه سيلاقى من قومه العنت والمشقة والتكذيب والإيذاء، فمن تأمل افتتاحية سورة القلم - ثانية سور القرآن الكريم نزولاً على النبي ﷺ: رأى كيف نفى الله جَلَّ جَلَالُهُ عن نبيه ﷺ التهمة التى سيتهمه بها المشركون، وأكد نفيها بجميع المؤكدات، ثم أثبت له كذلك المثوبة الدائمة، والأجر الذى لا ينقطع، ثم وصفه بأرقى أوصاف الخلق، وأعظمها قدرًا، وأعلاها مكانة، وذلك واضح فى قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

ثم بين له فى ختام السورة ذاتها بعض ما يفعله المشركون به أو يتحدثون به عنه، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُرْزِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥﴾﴾ [القلم].

ونلاحظ كيف دافع الله جَلَّ جَلَالُهُ عن نبيه ﷺ ونفى عنه التهمة قبل أن يسجلها على قائلها، ثم وضع المهمة التى من أجلها بعث خاتم النبیین فقال تبارك اسمه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [القلم].

(٣٤٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٢/١، والسيرة النبوية الصحيحة ١٢٢/١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، وراجع كلام الإمام ابن حزم عن نسب رسول الله ﷺ ص ٦٥، ٦٦.

ثم توأصل الصقل والإعداد للنبي ﷺ فنزلت سورة المزمل تأمر النبي ﷺ بقيام الليل، وتبين له عظم المهمة التي سيقوم بها: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل].

ثم حثته على دوام ذكره لخالفه، وأمرته بالصبر والثبات على ما سيلاقه، والاستعانة بالله وحده على الأداء والتبليغ: ﴿وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَتَّبِعِلَّا﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل].

ثم جاءت السورة الرابعة: سورة المدثر فأمرته بمباشرة مهمته: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيَنُ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْبِرُ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر].

وبدهى أن يبدأ ﷺ دعوته بالأقربين من عشيرته، والمقيمين في بلده كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

غير أن هذا لا يثنيه عن المهمة التي بعث من أجلها، والغاية التي أرسل لتحقيقها، فتأتى خاتمة سورة التكوير وهي السورة السابعة لتصحيح في جميع المكلفين: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير].

وربما يستغرب البعض أو يتعجبون: كيف يتحدث الله جَلَّالَهُ عَن عَالَمِيَةِ الرِّسَالَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يُوَدِّ فِيهِ النَّبِيُّ لَوْ آمَنَ أَحَدُ زَعَمَاءِ الْكُفْرِ أَوْ اهْتَدَى بَعْضُ أُمَّةِ الضَّلَالِ، حَيْثُذْ يَكُونُ قَدْ تَحَقَّقَ أَمَلٌ كَبِيرٌ، وَهَدَفٌ عَظِيمٌ، غَيْرَ أَنَّ عَالَمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ: يَأْمُرُ نَبِيَّهُ ﷺ بِالْمَضَى فِي

الدعوة حتى يتحقق ما أَرَادَهُ اللهُ، فيقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في ختام السورة الثامنة والثلاثين نزولاً على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة ص].

ثم يفتح السورة الثانية والأربعين في ترتيب نزول القرآن بقوله **جَلَّ جَلَالُهُ**: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وهكذا استقر هذا الأمر في قلب النبي ﷺ، ورسخ في عقيدته حتى إنه كان يحدث المستضعفين، الذين عذبوا وأوذوا في الله، بذلك لكي: يثبت إيمانهم، ويشتد أزهرهم، وتقوى عزائمهم في تحمل الخطوب ومواجهة الفتن، والصبر على البلاء.

بل: قد كان النبي ﷺ مدة حياته كلها يسعى لتحقيق عالمية الإسلام، ويوقن بحصولها: ثقةً منه ﷺ في وعد ربه له بظهور هذا الدين، وانتشاره في العالمين.

روى الإمام أحمد والبخارى (واللفظ له)، عن عدى بن حاتم قال: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَاَ إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَاَ إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ! هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنَّ الطَّعِينَةَ (٣٤٣) تَرْتَحِلُ

(٣٤٣) (الْحَيْرَةُ) بكسر المهملة، وسكون المثناة التحتانية، وفتح الراء: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، يقال: كانت متصلة بالخليج العربي الآن، وكانت بلاد ملوك العرب الذين يخضعون لحكم الفرس، وكان ملك الحيرة يومئذ: إياس بن قبيصة الطائي، وليها تحت حكم كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر، وقد أطال ياقوت الحموي الحديث عن سبب تسميتها بالحيرة، فليرجع إليه من أراد. معجم البلدان ٢/٣٢٨: ٣٣١، وينظر: فتح الباري ٦/٦١٣.

و(الطَّعِينَةُ) المرأة في هودجها، وهي في الأصل اسم للهودج، وتطلق أيضاً على: الراحلة التي يُرْحَلُ وَيُطْعَنُ عليها. ينظر: النهاية ٣/١٥٧.

مِنَ الْحِيَرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَاؤُ طَيِّبٍ  
 الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا (٣٤٤) الْبِلَادَ؟ «وَلَيْنَ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى» قُلْتُ: كِسْرَى بِنُ  
 هُرْمَزٍ؟! قَالَ: «كِسْرَى بِنُ هُرْمَزٍ، وَلَيْنَ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ  
 أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَكَيْلَقِينَ اللَّهَ أَحَدَكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ  
 وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانٌ يُزَجِّمُ لَهُ، فَلْيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُنَبِّئْكَ رَسُولًا فَيُيَلِّغُكَ؟! فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ  
 أُعْطِكَ مَا لَا وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى! فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ  
 فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ  
 شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيَرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ  
 إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَسَحَ كُنُوزُ كِسْرَى بِنُ هُرْمَزٍ، وَلَيْنَ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرُونَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو  
 الْقَاسِمِ ﷺ: «يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ...» (٣٤٥).

(٣٤٤) (دُعَاؤُ) بضم الدال المهملة، وفتح العين المهملة المشددة، آخره راء: جمع داعر، وهو: قاطع الطريق الذى يستخدم  
 ما وهبه الله له من القوة والمهارة فى الإفساد وترويع الناس، و(طَيِّبٌ) قبيلة مشهورة، منها: عدى بن حاتم الطائى راوى  
 الحديث، (سَعَرُوا الْبِلَادَ) يعنى: ملأوا الأرض شرًّا وأكثروا فيها الفساد، وأوقدوا نار الفتنة، وهو مستعار من توقد النار  
 واستعارها، فتح البارى ٦١٣/٦ بتصرف.

(٣٤٥) يعنى: ذهباً أو فضة يتصدق به صاحبه فلا يجد محتاجاً يقبل منه صدقته لانعدام الفقراء فى ذلك الزمان، قيل هذا  
 سيكون فى زمن نزول عيسى عليه السلام فى هذه الأمة قرب الساعة، ورجح الحافظ ابن حجر أنه إشارة إلى ما حدث فى زمن  
 عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ حيث كان الرجل المتصدق يأتى بالمال فلا يجد محتاجاً يدفع إليه المال، وهذا واضح فى قول  
 عدى بن حاتم: «وَلَيْنَ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرُونَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ» الحديث أخرجه بهذا اللفظ، البخارى فى  
 صحيحه: كتاب المناقب/ باب: علامات النبوة ٦/٦١٠، ٦١١ ح ٣٥٩٥، ونحوه عند: الإمام أحمد فى مسنده ٤/٢٥٧،  
 ٣٧٨ ح ١٨٢٦٠، ١٩٣٧٨ وفيه: «فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ» وفى رواية أخرى له: «فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ» بالراء والزى ومعناها  
 معروف متقارب، وينظر: فتح البارى ٦١٣/٦.

وهذا الحديث يؤكد أنه ﷺ كان مدة حياته كلها يسعى لتحقيق عالمية الإسلام، ويوقن بحصولها: ثقةً منه ﷺ في وعد ربه له بظهور هذا الدين، وانتشاره في العالمين.

وَعِزُّهَا الْإِسْلَامُ وَهُوَ الْبَاقِي ❀❀❀ فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَفَاقِ

قَدْ نَسَخَ اللَّهُ بِهِ الْأَدْيَانَ ❀❀❀ وَأَصْلَحَ الْأَزْوَاحَ وَالْأَبْدَانَ

وبعد هذه الدروس وتلك الاستنباطات والفوائد العديدة؛ نخلص إلى النتيجة التالية:

### إذْنٌ: لَمْ يَسْتَخْفِ ﷺ بِدَعْوَتِهِ

لقد بدأ ﷺ دعوته قوية صريحة، حيث أسلم عدد لا بأس به يقرب أو يزيد على ستين صحابياً وصحابية، وهم الذين جاء في تراجمهم أن إسلامهم كان قبل دخول دار الأرقم، منهم: خديجة أم المؤمنين، وعلى بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر، وعثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبوسلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وزوجه فاطمة، وابن مسعود، وعياش بن أبي ربيعة، وعبدالله بن جحش، ومعمر بن الحارث، وحاطب بن عمرو، وواقد بن عبدالله بن مناف، وعثمان بن مظعون، وأخواه: عبدالله وقدامة، وعامر بن ربيعة، وخنيس بن حذافة.

ثم وقفت قريش في وجه الدعوة، فالتحق ﷺ دار الأرقم لا ليستخفيَ هو فيها، فقد كانت قريش كلها تعلم بدعوته، وإنما ليتهاج لأتباعه الجدد الاستخفاء لدفع العدوان عن أنفسهم إذا حدث ما يقتضي ذلك يوماً ما.

وهذا هو الصواب الذي نراه في هذه القضية، كما سبق أن أوضحنا ذلك تحت عنوان: «الدعوة من بدء البعثة» وفي الدروس المستفادة من تلك الفترة، وكذلك سبقت الإشارة أيضاً

عند إسلام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى: أن أخ الأشعث بن قيس لأمه واسمه: عفيف، وكان تاجراً، له علاقة بالعباس، فالتقيا أيام الحج قال: فيينا نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصلي تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلى وخرج غلام يصلى معه فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟!... الحديث ضعيف وإن صححه بعضهم، وقد سبق تخريجه وتحقيقه تحت عنوان: «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلُ الْفَتِيَانِ إِسْلَامًا» والشاهد فيه قول عفيف الكندي: ليتنى كنت آمنت يومئذ فأكون ثالثاً مع علي بن أبي طالب وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فيستفاد منه رؤية قريش للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يعبد ربه، وأنهم كانوا على علم بدعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم ينكر أحد منهم عليه، ولم يتعرضوا له، والله أعلم.

كما يمكن أن نتساءل هنا: كيف وصل الخبر إلى: عمرو بن عبسة، وهو بعيد عن مكة!!؟

لا شك أن الاستخفاء كان لمن يرغب فيه، ولو لم يكن كذلك لمنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا ذر كما مر في الحديث السابق في إعلان إسلامه (٣٤٦).

ثم إن المتأمل في كتب السيرة: يلحظ أنها لم تتوقف طويلاً عند ذكر تلك المدة التي أطلق عليها بعضهم: المرحلة السرية في الدعوة، وحددوها بثلاث سنين؛ بل لم نجد لها عنواناً مستقلاً، أو فصلاً خاصاً، وإنما ورد الحديث فيها مجملًا ضمن الحديث عن الدعوة.

ولقد أغفلت بعض المصادر ذكر هذه الفترة إغفالاً تاماً، كعروة بن الزبير، في: «مغازي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وقريباً من ذلك فعل ابن حزم؛ فإنه بعد أن ذكر المسلمين الأوائل، وعد منهم ما يزيد على الأربعين، قال: ثم أعلن رسول الله بالدعاء إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ وجاهرته قريش بالعداوة والأذى.

(٣٤٦) راجع ما سبق تحت عنوان: «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلُ الْفَتِيَانِ إِسْلَامًا»، و«قصة إسلام أبي ذر»، وحديث عمرو بن



فكلمة (أعلن) هي الكلمة الوحيدة التي تشير إلى أنه قبل ذلك لم يكن في حالة من الإعلان، وهذا لا يعنى أنه كان في حالة من السر، فقد لا يعلن الإنسان عن أمر، ومع ذلك لا يتوخى السرية فيه (٣٤٧).

وليس في القرآن الكريم ما يشير إلى ما اصطلاح عليه كثيرون من كتاب السيرة: بالدعوة السرية، لكننا نرى الآيات الكريمة الآمرة بالدعوة صريحة واضحة تؤيد ما ذكرناه سلفاً، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر].

وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾.

وفي السورة نفسها: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ومن اليقين الذي لا شك فيه: أنه ﷺ قام بتنفيذ هذه التوجيهات والأوامر فور صدورها؛ مع ما تحمله كلمة الإنذار من القوة والوضوح.

ولهذا المعنى - والله أعلم - لم يتوقف الإمام ابن القيم عند ما يسمى: بالدعوة السرية، حينما تحدث عن مراحل جهاده ﷺ بل قال: وشرع ﷺ في الجهاد من حيث بُعثَ إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى فإنه لما نزل عليه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَتِيَابَكَ

(٣٤٧) ينظر: مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (النسخة المستخرجة) جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، من منشورات مكتب التربية العربي، وجوامع السيرة لابن حزم ص ٤١.

فَطَهَّرَ ﴿٤﴾ [المدثر]، شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً،  
وسراً وجهازاً، ولما نزل عليه ﴿فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾﴾ صدع بأمر  
الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله: الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى،  
والأحمر والأسود، والجن والإنس (٣٤٨).

ومما ورد على سبيل المثال بشأن آية الشعراء، ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما، عن ابن  
عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٦﴾ أَنَّى النَّبِيُّ  
ﷺ الصَّفَا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى: «يَا صَبَاحَاهُ» فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بَيْنَ رَجُلٍ يَمِجِيءُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ  
رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! يَا بَنِي فَهْرٍ! يَا بَنِي لُؤَيٍّ! أَرَأَيْتُمْ  
لَوْ أَخْبَرْتُمْكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ صِدْقَتُمُونِي؟!» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:  
«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو هَبٍ: تَبَّأَ لَكَ سَائِرِ الْيَوْمِ! أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟  
فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿٧﴾﴾... ﴿٨﴾ سورة المسد بتمامها (٣٤٩).

وهكذا كانت مبادرته ﷺ سريعة لتنفيذ أمر ربه، وكذلك شأنه ﷺ في كل أوامر الله تعالى.  
فنحن على يقين من أن الرسول ﷺ لم يَسْتَحْفِ بِدَعْوَتِهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، مِنْذُ كَلَّفَ بِهَا،  
وإن كانت في البدء موجهة إلى من يتوسم فيهم الاستجابة وعدم الإنكار.

وذهب إلى هذا الرأي الأستاذ محمد عزة دروزة، فقال: إن الدعوة بدأت علنية وبقوة، خلافاً  
لما روى أنها بدأت سرية، وكل ما يمكن أن يقال إزاء ما ورد في الروايات التي تروى أقوال

(٣٤٨) زاد المعاد لابن القيم ١٢/٣.

(٣٤٩) البخارى ح ٤٩٧٢، ومسلم ح ٣٥٥، وانظر ما يأتي: من إيذاء أبي هب وزوجه أم جميل لرسول الله ﷺ من

الهامش ٣٦٥ إلى ٣٦٨.

بعض أصحاب رسول الله ﷺ مثل ما روى في قصة إسلام عمر حيث سأل: أنحن على حق أم باطل، فقال له رسول الله ﷺ: «بل على حقٍ» فقال: ففيم التخفى إذن، إن النبي ﷺ كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم: حماية لأصحابه، غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرَةً، وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة، وإيمان النبي بالله وبرسالته. ونقل هذا أيضًا: الشيخ صالح أحمد الشامي (٣٥٠).

كما أن قريشًا لم تعلن عداوتها للنبي ﷺ وأصحابه من اليوم الأول؛ وإنما استمعت وسكتت، ولعلها ظنت النبي ﷺ واحدًا من المتألهين الذين عرفوا قبله ﷺ باسم الحنفاء، ولم يقف أحدٌ في وجههم؛ بل تُركوا وشأنهم، من أمثال: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل (٣٥١).

قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يتعد منه قومه، ولم يردوا عليه فيما بلغنى حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته (٣٥٢).

وقد استمرت هذه الفترة حتى نهاية العام السادس من البعثة، يوم أسلم عمر، وظهر المسلمون، وانتهى دور دار الأرقم فيما يبدو.

وفي تلك الفترة كان الناس بين معلنٍ ومُستخفٍ، فهذا عمر بن الخطاب قبل إسلامه يرى أمَّ عبدالله بنت أبي حثمة، زوج عامر بن ربيعة، وهي تعد نفسها للرحيل مع زوجها إلى الحبشة،

(٣٥٠) ينظر كتاب: «سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم» ١/١٥٤، ١٥٥، وكتاب: «السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة» ص ١٧: ٢٠، ط الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٣٥١) راجع ما ذكر عن كلٍّ منهما فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٠٦: ١١١، و١٣٢: ١٣٨، و١٨٤، ١٨٥.

(٣٥٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٤.

فيقول لها: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتونا وقهرتمونا... (٣٥٣)، إنها وزوجها بكل هذا الوضوح يعلنان عن الخروج، وعمر نفسه يوم أسلم بعد ذلك لم يكن يدرى أن أخته وزوجها قد أسلما... إنها قضية كانت متروكة للأفراد الذين يسلمون، فيكون إعلان إسلامهم حسب رغبتهم. وسيأتى مزيد لذلك عند إسلام عمر إن شاء الله تعالى ١/٢٦٠: ٢٦٧.

### هجرة الصحابة إلى أرض الحبشة

وهنا جاء التفكير بمكان آمن يهاجرون إليه، فكان توجههم الأول نحو أرض الحبشة بأمر رسول الله ﷺ لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد.

وقد صورت أم سلمة زوج النبي ﷺ وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى - الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة فقالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، فلا يصل إليه شيء يكرهه إلا ما يتأل من أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه» فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دارٍ إلى خير جارٍ، فأمنّا على ديننا، ولم نخش منه ظملاً» (٣٧٨).

وهذا المدح والثناء من أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ: لا

(٣٥٣) القصة صحيحةٌ بمجموع طرقها، وستأتى بتامها في: «إسلام عمر بن الخطاب» عند الهامش ٣٩٩.

(٣٧٨) فتح الباري ١٨٩/٧، وسيرة ابن إسحاق ١٩٤، وسيرة ابن هشام ١/٣٣٤ بإسنادٍ حسن، فرواية يونس بن بكير توبعت برواية البكائي، وابن إسحاق صرح بالتحديث، وهو إمامٌ في المغازي.

يتعارض مع قول أسماء بنت عميس رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المذكور في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخواني لي، أنا أصغرهما، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: بضعا، وإما قال ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، قال: فركبنا سفينة فألقتنا سفيتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال: أعطانا منها، وما قسم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفيتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم، قال: فكان ناس من الناس يقولون لنا يعنى لأهل السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة، قال: فدخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة وأساء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحريةية هذه؟ فقالت أسماء: نعم! فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت كلمة: كذبت يا عمر! كلا، والله كتتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعط جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البُعْداء البُعْضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وإيم الله! لا أطمع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ! ونحن كنا نُؤدِّي ونُخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، ووالله! لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك، قال: فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به

أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ، قال أبو بردة: فقالت أسماء، فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني (٣٧٩).

ومنذ ذلك اليوم أُطلق على هؤلاء الصحابة لقب: أصحاب الهجرتين، لأنهم هاجروا إلى الحبشة وهاجروا إلى المدينة.

وتتضح الصورة أكثر لكل من تأمل مجادلة أسماء بنت عميس لعمر بن الخطاب حيث قال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم، فقالت: كلا والله! كتتم مع رسول الله ﷺ يُطعمُ جائعكم ويعظُ جاهلكم، وكنا في دار البُعْدَاءِ البُغْضَاءِ في الحبشة وذلك في الله ورسوله... ونحن كنا نُؤدِّي ونُخَافُ... وقد فَصَلَ رسول الله ﷺ الأمر بينهما بقوله: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَالْأَصْحَابِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ» فعظم الفرغ بين مهاجرة الحبشة.

وذلك لأن أم سلمة لم تمكث طويلاً في الحبشة؛ بل عادت مع زوجها إلى مكة، ثم كانوا أول أهل بيت هاجر إلى المدينة، كما أن أسماء بنت عميس؛ قد مكثت مدةً طويلةً في الحبشة تزيد على عشر سنين، فتحدثت عما لقيته من إيذاء، وتعرضت له من ابتلاء، بعيداً عن وطنها في تلك البلاد، لأنها لم تهجر إلى المدينة إلا في أول العام السابع بعد الهجرة مع جعفر وأصحابه حين قدموا على النبي ﷺ بعد فتح خيبر.

(٣٧٩) قولها لعمر: «كذبت» معناه: أخطأت، «يأتونني أرسالا» أى: أفواجًا، جماعة بعد جماعة، والحديث في صحيح البخارى: ٢٣٧/٦، ١٨٨/٧، ٤٨٤، ٤٨٧، ح ٣٨٧٦، وصحيح مسلم: واللفظ له كتاب الفضائل/ باب: من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ١٩٤٦/٤، ١٩٤٧ ح ٢٥٠٣، ومسند الإمام أحمد ٣٩٥، ٣٩٤/٤ مختصرًا، وينظر: شرح النووى لصحيح مسلم ٦٤/١٦: ٦٦.

ومن الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين (٣٨٠)، وكانت الهجرة الأولى في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار (٣٨١).

ثم أرسلت قريش: عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي ويطارقتة، فقابلا النجاشي طالبين إليه إعادة من هاجر من المسلمين، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فسألهم عن دينهم، فقال جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الملك! كنا قومًا على الشرك، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسئ الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نُحل شيئًا ولا نُحرمه، فبعث الله إلينا نبيًا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره، فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال جعفر: نعم، قال: هلم فاتل عليّ ما جاء به، فقرأ عليه صدرًا من كهيعص يعني: أول سورة مريم، فبكى والله النجاشي حتى أخضل - بلل - لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، وانطلقوا راشدين، ولما أخفقت محاولة وفد قريش في استعادتهم، أثار عمرو بن العاص في اليوم التالي موقف المسلمين من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل النجاشي إليهم فسألهم، فقال له جعفر: نقول هو عبدالله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فقال النجاشي: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا

(٣٨٠) صحيح البخارى: فتح البارى ٧/١٨٧.

(٣٨١) فتح البارى ٧/١٨٧، ١٨٨ وهو قول الواقدي وإن لم يصرح الحافظ باسمه كما في طبقات ابن سعد ١/٢٠٤،

ويذكر ابن إسحاق أنهم عشرة رجال وأربع نسوة. سيرة ابن هشام ١/٣٤٤.

العُود، - وأشار إلى عود يُمسك به في يده - وأعطى النجاشي الأمان للمسلمين، فأقاموا مع خير جار في خير دار (٣٨٢).

ثم إن عامة أهل الحبشة كانوا كفارًا سوى النجاشي الذي كان يستخفى بإسلامه عن قومه ويدرأهم ويوارى لهم، ولا يخفى: أن هجرة الوطن تَصْعُبُ على المرء، وهو لا يفعل ذلك إلا مضطراً، وقد كان المسلمون المهاجرون عربًا يعيشون في وسطٍ غريبٍ، لا تربطهم به وشائج رحمٍ ولا لُغَةٍ، فضلاً عن كونه وسطاً نصرانياً يخالفهم في المعتقد، إلا النجاشي فإنه أسلم وَوَرَى بإسلامه أمام قومه (٣٨٣).

ومبادرة قريش لإرسال وفد لاستعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة: تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية، ومَلِكُهَا عُرف بالعدل، وهي قريبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطراً على قريش في المستقبل.

ومما يبعث على العجب والإكبار لموقف المهاجرين؛ بيانهم لعقيدتهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بصراحة ووضوح، على الرغم من مخالفتها للعقيدة النصرانية السائدة في الحبشة، فلم يلجأوا إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين خوفاً من تسليمهم لقريش، فأحسن الله عاقبتهم وأمنهم في دار

(٣٨٢) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢١٣: ٢١٧، والسيرة النبوية لابن هشام ٢٨٩/١: ٢٩٣ بإسنادٍ حسن، إلى أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولعل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي حكى خبر النجاشي سمعته من أم سلمة. ينظر: السيرة النبوية لابن إسحاق ص ١٩٧: ١٩٩.

(٣٨٣) لقد أرسل النبي ﷺ رسالة إلى النجاشي في عام إرساله الكتب إلى ملوك الأرض يدعوه إلى الإسلام، وقد بين حديثٌ صحيحٌ أنه غير النجاشي المسلم: أصحمة، فعن أنس: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ: يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكَيَسَّ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ». صحيح مسلم ١٣٩٧/٣ ح ١٧٧٤.



هجرتهم (٣٨٤).

وفي أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة حَدَّثَ أَنَّ صَلَّى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ، فَسَجَدَ فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ، وَسَجَدَ كُلُّ مَنْ كَانَ حَاضِرًا؛ إِلَّا اثْنَيْنِ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَشَاعَ أَنْ قَرِيشًا قَدْ أَسْلَمَتْ (٣٨٥).

وقد ذهبت روايات مرسلة صحيحة السند إلى مرسلها وهم: سعيد بن جبير، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وأبو العالية إلى أن الشيطان ألقى على لسان الرسول ﷺ في قراءته في صلاته تلك العبارة: تلك الغرائق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى.

كما ذهبت روايات مرسلة أخرى ضعيفة الأسانيد إلى مرسلها إلى أن العبارة قالها الشيطان وسمعها المشركون دون المسلمين، فسجد المشركون بسجود المسلمين، والحديث المرسل ضعيف عند المحدثين، وما ذكر في الأحاديث التي قَوِيَ سندها: يصطدم مع عصمة النبوة في قضية الوحي ويعارض التوحيد الذي هو أصل العقيدة الإسلامية، لذلك فإنها مرفوضة متناً؛ حتى لو ثبت تعدد مخارجها عند الإمام الشافعي الذي يحتج بالحديث المرسل إذا رَوَى مِنْ وَجْهِهِ مَعْتَبَرَةً؛ لأنها لم تستجمع بقية الشروط التي اشترطها، وقد يكون التابعون الثلاثة رَوَوْهَا عَنْ شَيْخٍ وَاحِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ، فَيُنْتَهَى إِلَى التَّفْرُدِ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ الْإِرْسَالِ، فَحَيْثُذُ كَانَ السَّنَدُ مَعَ الْمَتْنِ

(٣٨٤) ذكر الطبراني في المعجم الكبير ١٠٩/٢: ١١١، والذهبي في السيرة النبوية ص ٢٢١، ٢٢٢ من حديث جعفر بن أبي طالب، أن النجاشي سأل المسلمين: «أَيُّذِيكُمْ أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَأَمَرَ مُتَادِيًا فَتَادَى: مَنْ آذَى أَحَدًا مِنْهُمْ، فَأَغْرَمُوهُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ، ثُمَّ قَالَ: يَكْفِيكُمْ؟ فَقُلْنَا: لَا، فَأَضَعَهَا». وإسناده ضعيف لأن مداره على: أسد بن عمرو الكوفي، عن مجالد بن سعيد، وكلاهما: ضعيف، وقد وثَّقا. مجمع الزوائد ٣٠/٦، وللإمام ينظر ١٥٧/٢: ١٥٩، و٢٦٨: ٢٧٥

(٣٨٥) صحيح البخاري: فتح الباري ٢/٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٦٠، و٦١٤/٨، وصحيح مسلم ٤٠٥/١، وراجع الألباني: نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق.

ضعيفاً باتفاق جميع المحدثين.

ولعل سجود المشركين مع الرسول ﷺ لما اعتراهم من خوف ودهشة وهم يستمعون إلى القرآن بيانه الساحر، وروعة تصويره لمشاهد هلاك الأمم السالفة؛ كما كان ذلك سبباً في إسلام عمر الذي كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، تأمل وتدبر قوله تعالى في ختام سورة النجم:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾ وَثَمُودًا ﴿٣٧﴾ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٣٨﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٣٩﴾ وَالْمُؤَنَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَغَشَّيْنَا مَا غَشَّىٰ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٤٢﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٤٣﴾ أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٤٤﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٤٥﴾ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٤٦﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٤٨﴾ فَاسْتَجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴿٤٩﴾﴾ (٣٨٦).

فبلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة: أن أهل مكة أسلموا، فرجع أناسٌ، منهم: عثمان بن مظعون إلى مكة، فلم يجدوا ما أخبروا به صحيحاً فرجعوا، وخرج معهم جماعة إلى الحبشة، وهي الهجرة الثانية، وسرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية، وهم فوق الثمانين رجلاً، وقال ابن جرير: كانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم، قيل: إن عدة نسائهم كانت ثمانى عشرة امرأة (٣٨٧).

ولقد ذكر ابن إسحاق دوافع الهجرة الثانية فقال: فلما اشتد البلاء، وعظمت الفتنة، توثبوا

(٣٨٦) تفسير الألوسى، المسمى: روح المعاني ١٧/١٧ ط المنيرية، وكتاب: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات

المشككين ص ٣٩١: ٣٩٤ تحت عنوان: «الشیطان يوحى إلى محمد ﷺ» للدكتور عبدالصبور مرزوق.

(٣٨٧) فتح الباری ٧/١٨٩ في شرح باب: هجرة الحبشة.

على أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت الفتنة الآخرة: التي أخرجت من كان هاجر من المسلمين، بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم إلى أرض الحبشة<sup>(٣٨٨)</sup>، يعنى: أن الابتلاء والتنكيل كان أعظم من ذى قبل.

وفي تلك الفترة: توفي عبيدالله بن جحش<sup>(٣٨٩)</sup> زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، فخطبها رسول الله ﷺ وتزوجها وهى بالحبشة: زوجه إياها النجاشى ومهرها أربعة آلاف، وكان وليها فى عقد الزواج خالد بن سعيد بن العاص؛ أقرب عاصب لها، وهو أحد السابقين الأولين، وكان جهازها كله من عند النجاشى؛ ولم يرسل إليها رسول الله ﷺ بشيء، ثم أرسلها النجاشى مع شرحبيل بن حسنة إلى رسول الله ﷺ سنة أربع من الهجرة<sup>(٣٩٠)</sup>.

وقد تزوج رسول الله ﷺ بثلاث عشرة امرأة، منهن سريتين، وكانت أولاهن تزويجاً:

(٣٨٨) السير والمغازى لابن إسحاق ص ٢١٣، تحقيق سهيل زكار.

(٣٨٩) المشهور عند أهل المغازى أنه تنصّر قبل وفاته. كما فى كتاب: السير والمغازى، لابن إسحاق ص ٢٥٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٨/١ عن الواقدى.

(٣٩٠) مسند الإمام أحمد ٤٢٧/٦ ح ٢٧٤٠٨، وسنن أبى داود ٥٦٩/٢ ح ٢٠٨٦، بإسناد صحيح، وسنن النسائى ١١٩/٦ ح ٣٣٥٠، ومستدرک الحاكم ١٨١/٢، وصححه وأقره الذهبى، كلهم من حديث: أم حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وله روايات أخرى مرسله، وفى صحيح ابن حبان: عن عائشة قالت: «هاجر عبيدالله بن جحش بأم حبيبة بنت أبى سفيان وهى امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة: مرض، فلما حضرته الوفاة: أوصى إلى رسول الله ﷺ، فتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، وبعث بها النجاشى مع شرحبيل ابن حسنة». موارد الظمان ص ٣١٢ ح ١٢٨٣ وسنده حسن، لأن فيه: عبدالرحمن بن خالد بن مسافر النهemy: صدوق. تقريب التهذيب ص ٣٣٩، لكنه خالف بزيادته: «أوصى إلى رسول الله ﷺ» معمرًا ويونس، عن الزهرى، حيث رَوَى الحديث، عن أم حبيبة بدون تلك الزيادة، وهما أوثق منه، ويرى النسائى أن رواية ابن مسافر، عن الزهرى فى طبقة رواية ابن أبى ذئب، عن الزهرى التى قيل إنها عرض، وقيل مناوله دون سماع، لذلك فإن مسألة الوصية لا تثبت حديثيًا. تهذيب التهذيب ٣٠٥/٩، والله أعلم، وراجع ص ٢١٠.

أم المؤمنين سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ القرشية: أول امرأة تزوّجها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة، ثم عائشة بنت أبي بكر، وزَيْنَب بنت خُزَيْمَةَ الهلالية التي كانت تنفق على المساكين وتطعمهم؛ فسميت: أم المُسَاكِين، مكثت مع النبي ﷺ بضعة أشهر ثم ماتت وهي في سن الثلاثين، سنة ٤هـ، ثم حَفْصَةَ بنت عمر، ثم أم سَلَمَةَ بنت أبي أميَّة، ثم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن أمية، ثم زَيْنَب بنت جحش، ثم جُوَيْرِيَةَ بنت الحَارِث، ثم صَفِيَّة بنت حيي، ثم مَيْمُونَةَ بنت الحَارِث الهلالية؛ أخت زينب بنت خزيمة لأُمها.

والسُّرَيَّتَانِ هما: رَيْحَانَةُ النضيرية، التي مَاتَتْ في حياته ﷺ بعد عودته من حجة الوداع، ودفنها بالبقيع، والثانية هي: مَارِيَةُ الْقُبْطِيَّةُ أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وقد توفي ﷺ عن تسع زوجات ومارية، رضى الله عن أمهات المؤمنين أجمعين (\*).

وقد هاجر معظم مهاجرة الحبشة إلى المدينة بعد استقرار الإسلام فيها، وتأخر جعفر بن أبي طالب ومن معه إلى فتح خيبر سنة ٧هـ (٣٩١).

(\* تُراجع تراجمهم رضى الله عنهم في كتب الصحابة، ويُنظر: فتح الباري ١/٢٥٦.

(٣٩١) فتح الباري ٧/٤٦٣، غزوة خيبر.

## إِسْلَامُ النَّجَاشِيِّ وَمَنْ شَابَهُهُ فِي صَنِيعِهِ

النجاشي: لقب لملك الحبشة، واسمه: أَصْحَمَةُ بن أبحر، أسلم قديماً ولم يهاجر، وكان عوناً للمسلمين في صدر الإسلام، مات في رجب سنة تسع من الهجرة، وقيل قبل ذلك (٣٩٢).

وفي بيان إسلامه: أنقل مكتفياً بالتحقيق والتوثيق؛ ثم استنباط ما يستفاد من هذا الكلام النفيس الذي ذكره الإمام ابن تيمية في أوسع مصنفاته حيث قال رَحِمَهُ اللهُ في تأصيله لبيان قاعدة جامعة ما نصه: «... وكذلك الكفار: من بلغه دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فأمن به وبما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشي وغيره، ولم تُمكنه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعاً من الهجرة، وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يُعلِّمه جميع شرائع الإسلام: فهذا مؤمن من أهل الجنة، كما كان مؤمن آل فرعون من قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون؛ بل: وكما كان يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفاراً ولم يُمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام؛ فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٢٤].

وكذلك النجاشي، هو وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام؛ بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ

(٣٩٢) ينظر تفصيل ترجمته في القسم الثالث من حرف الألف من كتاب الإصابة للحافظ ابن حجر ١/٣٤٧ ط الأولى دار

بالمدينة: خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفهم صفوفًا وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات (٣٩٣) وقال: «إن أتحا لكم صالحًا من أهل الحبشة مات».

وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دَخَلَ فيها، لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت؛ بل قد رُوِيَ أنه لم يصلِّ الصلوات الخمس ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه فيكرونها عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم.

ونحن نعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن، والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاء أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه... والنجاشي ما كان يمكن أن يحكم بحكم القرآن؛ فإن قومه لا يقرونه على ذلك، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين وبين التتار قاضيًا؛ بل وإمامًا، وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك؛ بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها...

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرُونَ على التزامه؛ بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها.

ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا

(٣٩٣) انظر في ذلك: صحيح البخارى: كتاب الجنائز/ باب: الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه ح ١٢٤٥ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ «نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا» وشرحه في فتح البارى ١١٦/٣، ١١٧، وفي باب: من صف صفيين أو ثلاثة على الجنائز خلف الإمام ح ١٣١٧ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَى النَّجَاشِيَّ، فَكُنْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي أَوْ الثَّلَاثِ» وصحيح مسلم: كتاب الجنائز/ باب: في التكبير على الجنائز ٦٥٦/١: ٦٥٨ الأحاديث من ٩٥١: ٩٥٣.

قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾ [آل عمران].

وهذه الآية قد قال طائفة من السلف: إنها نزلت في النجاشي... ولم يذكر هؤلاء من آمن بالنبي ﷺ بالمدينة، مثل: عبدالله بن سلام وغيره ممن كان نصرانياً، لأن هؤلاء صاروا من المؤمنين فلا يقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يقول أحد: إن اليهود والنصارى بعد إسلامهم وهجرتهم ودخولهم في جملة المسلمين المهاجرين المجاهدين يقال: إنهم من أهل الكتاب، أى: من جملتهم وقد آمنوا بالرسول.

كما قال تعالى في المقتول خطأ: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء].

فهو من العدو، ولكن هو كان قد آمن، وما أمكنه الهجرة وإظهار الإيثار والتزام شرائعه، فسماه مؤمناً لأنه فعل من الإيثار ما يقدر عليه.

وهذا كما أنه قد كان بمكة جماعة من المؤمنين يَسْتَخْفُونَ بِيَابِنِهِمْ وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٤﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٧٥﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء]. فعذر سبحانه المستضعف العاجز عن الهجرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

وَالْوَالِدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ [النساء].

فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم، فقد سقط عنهم ما عجزوا عنه؛ فإذا كان هذا فيمن كان مشركاً وآمن؛ فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن؟! (٣٩٤).

ويستفاد من هذا الكلام النفيس الذى ذكره شيخ الإسلام، ومن الأمثلة التى ضربها: أن من أراد الدخول فى الإسلام؛ لكنه يخشى على نفسه الإيذاء والتعذيب من أقاربه المحيطين به: فلا حرج عليه فى الاستخفاء بدينه وكتمانه عمن حوله، وهو بذلك يكون مؤمناً عند الله؛ وإن لم يعرف بذلك أحد من الناس، فهذا النجاشي: لم يلقَ رسولَ الله ﷺ؛ ومع ذلك: فقد نعاه ﷺ يوم مات إلى أصحابه، وجمعهم صنفوا وصلى عليه، وأخبرهم أنه أخ لهم، والله أعلم.

### إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إلى هذا الوقت الذى أسلم فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانت هناك جماعات تستخفى بإيمانها، وقد مكنتها ذلك الاستخفاء من رصد حركة أعداء الدعوة، بحيث تستطيع الجماعة: أخذ زمام المبادرة فى الحذر من الأعداء، وإبطال ما يسعون له، ويرمون إليه.

والمثال القريب لذلك، ما فعله نعيم بن عبد الله النحام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه لما رأى عمر متوشحاً سيفه، شك فى أمره وارتاب فى مقصده، مما دفعه إلى سؤاله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابئ.. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأى



أهل بيتي؟ قال: ابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة.

فإن استخفاء نعيم بإسلامه: أتاح له أن يجوّل هذا التيار القوى عما أراده إلى وجهةٍ أخرى، وأن يهون له من شأن نفسه التي تعاضمت، ولو كان معلناً إسلامه لما استطاع أن يتعرض له، فضلاً عن أن يثنيه عن عزمه؛ بل إن عمر نفسه لم يكن يقبل منه إرشاداً ولا نصحاً.

وهذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمته لنعيم بن عبدالله النحام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مع إضافة بعض الجمل المعترضة للتفسير والإيضاح: نعيم بن عبدالله بن أسيد بن عبد بن عوف بن عويج بن عدى بن كعب القرشى العدوى المعروف بالنحام، وقيل له ذلك، لأن النبي ﷺ قال له: «دخلت الجنة فسمعت نعمة من نعيم».

وأخرج ابن قتيبة في: «الغريب» من طريق عبدالرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، قال خرجنا في سرية زيد بن حارثة التي أصاب فيها بنى فزارة، فأتينا القوم... فقاتل نعيم بن النحام العدوى يومئذ قتالاً شديداً.

والنعمة: هي السعلة التي تكون في آخر النحنة الممدود آخرها.

قال خليفة - يعنى: ابن خياط -: أمه فاختة بنت حرب بن عبدشمس، وهى عدوية أيضاً، من رهط عمر، قال البخارى: له صحبة، وقال مصعب الزبيرى: كان إسلامه قبل عمر، ولكنه لم يهاجر إلا قبيل فتح مكة، وذلك لأنه كان ينفق على أرامل بنى عدى وأيتامهم، فلما أراد أن يهاجر قال له قومه: أقم ودين بأى دين شئت، وكان بيت بنى عدى بيته فى الجاهلية، حتى تحول فى الإسلام لعمر فى بنى رزاح، وقال الزبير - يعنى: ابن بكار -: ذكروا أنه لما قدم المدينة قال له النبى ﷺ: «يا نعيم، إن قومك كانوا خيراً لك من قومي» قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بل قومك خير يا رسول الله، قال ﷺ: «إن قومي أخرجوني، وإن قومك أفرؤك» فقال نعيم: يا رسول الله، إن

قومك أخرجوك إلى الهجرة، وإن قومي حبسوني عنها<sup>(٣٩٥)</sup>.

وهذا الحوار يدل على فقه هذا الصحابي الجليل نعيم بن عبدالله النَّحَّام.

أما وقت إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم تصح رواية في تحديد وقت إسلامه بدقة، ولكن ابن إسحاق جعل إسلام عمر بعد هجرة الحبشة، وذكر من وجه آخر أنه عقب هجرة الحبشة الأولى<sup>(٣٩٦)</sup>، وتحدد رواية الواقدي إسلامه في ذى الحجة السنة السادسة من البعثة، وهو ابن ستِّ وعشرين سنة، كما تحدد روايات الواقدي أن عدد المسلمين كان أربعين أو خمسين أو ستًّا وخمسين، منهم عشر نسوة أو إحدى عشرة<sup>(٣٩٧)</sup>.

وكان عمر رجلاً قوياً مهيئاً، وكان يؤذى المسلمين ويشتد عليهم، قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - وهو ابن ابن عم عمر، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنِي وَإِنَّ عُمَرَ لَمَوْثِقِي عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ»<sup>(٣٩٨)</sup>.

وهكذا ربط عمر سعيداً تنكيلاً له بسبب إسلامه ليصده عن دينه، ولكن شدته الظاهرة تكمن خلفها رحمة ورقة، فقد أخبرت أم عبدالله بنت أبي حثمة - وهى من مهاجرة الحبشة -

(٣٩٥) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في كتابه: الإصابة ٦/٣٦١، ٣٦٢، وينظر: النهاية ٣٠/٥.

(٣٩٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٤٢، وفتح الباري ٧/١٨٣ حيث ذكر الحافظ ابن حجر: أن إسلام عمر بن الخطاب؛ كان في أيام انشقاق القمر.

(٣٩٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٦٩، ٢٧٠ والواقدي هو: محمد بن عمر بن واقد، شيخ ابن سعد صاحب الطبقات، وقد سبقت ترجمته في الهامش رقم: ١٠١، وهو راوى الخبر؛ لكن العدد الذى ذكره الواقدي لمن دخلوا في الإسلام حتى هذه الفترة: غير صحيح، لما سبق من الأدلة التى قدمناها في هذا البحث، والله أعلم. ينظر: فتح الباري ٧/١٧٨.

(٣٩٨) صحيح البخارى: ح ٣٨٦٧، فتح الباري ٧/١٧٨.

قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف عليّ - وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء والإيذاء لنا، والشدة علينا - فقال: إنه للإنطلاق يا أمّ عبد الله؟ فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً، فقال: صحبكم الله، ورأيتُ له رقةً لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنًا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيت حتى يُسلم حمارُ الخطاب، قالت: قال ذلك يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام (٣٩٩).

ويبدو أن حدّس المرأة وحسّها كان أقوى، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله أن ينصر دينه بإسلام عمر.

وقد ورد هذا عن أكثر من صحابي؛ فمن ذلك: ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ بِأَبِي جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ دَعْوَةَ رَسُولِهِ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَبَنَى عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَهَدَمَ بِهِ الْأَوْثَانَ» (٤٠٠).

(٣٩٩) السيرة النبوية لابن هشام ٣٤٢/١ بإسناد فيه: عبدالرحمن بن الحارث، صدوق له أوهام، وعبدالعزیز بن عبد الله بن عامر: تابعي كبير، ترجم له البخاري وابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحاً. التاريخ الكبير ١٣/٦، والجرح والتعديل ٣٨/٥، وتعجيل المنفعة ٢٦١، وانفرد ابن حبان بتوثيقه، ولم يجرحه أحدٌ فحديثه حسن، وهو يروى الخبر عن أمه وهي شاهدة عيان، الثقات لابن حبان ١١٠/٧.

(٤٠٠) حديث ابن مسعود عند الطبراني في المعجم الكبير ١٥٩/١٠ ح ١٠٣١٤ من طريق: يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود... الحديث، وقال الهيثمي: رجال الطبراني في الكبير: رجال الصحيح؛ غير مجالد بن سعيد، وقد وثق. مجمع الزوائد ٩/٦١، ٦٢. ومجالد بن سعيد: ممن يصلح للمتابعات؛ حيث أخرج له مسلم مقرّونا

فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فأسلم عمر، فاعتز به الإسلام، وصلى المسلمون بالبيت العتيق دون أن يتعرض لهم المشركون، قال ابن مسعود: مَا زِلْنَا أَعَزَّةً مُنْذُ أُسْلِمَ عُمَرُ (٤٠١).

وقال أيضًا: لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلى (٤٠٢).

وقال: إن إسلامه كان نصرًا (٤٠٣).

وقال عبدالله بن عباس لعمر حين طعن: فلما أسلمت كان إسلامك عزًا، وأظهر الله بك الإسلام ورسول الله وأصحابه (٤٠٤).

بغيره، والجمهور على تضعيفه، لأنه اختلط في آخر عمره، لكن روايته لهذا الحديث مقبولة، لأن يحيى ابن أبي زائدة من الحفاظ والثقات المتقين، قال ابن مهدي: رواية القدماء عنه: كهشيم، وشعبة، وحماد بن زيد: مقبولة، وقال ابن عدى: له عن الشعبي أحاديث صالحة، يعني: كما في سند هذا الحديث، قال يعقوب بن سفيان: صدوق، ينظر: تهذيب التهذيب ٤٠/١٠، ٤١. وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر، في: جامع الترمذى ٦١٧/٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، بإسناد فيه: خارجه بن عبد الله: صدوق، فيه مقال. فتح البارى ٤٨/٧.

وله شاهد ثان من حديث ابن عباس عند الطبرانى في المعجم الأوسط ٣٤٤/١ بإسناد فيه: مبارك بن فضالة، صدوق يدلس ويسوى، وقد صرح بالسماع من شيخه. انظر: تقريب التهذيب ص ٥١٩، وفيه: محمد بن الحسن الأسدى، صدوق فيه لين. تقريب التهذيب ٤١٧، ٥٢٠.

وله شاهد ثالث من حديث عائشة عند ابن ماجه ٣٩/١ بإسناد فيه ضعف بسبب رواية: محمد بن عبيد، وعبد الملك بن الماجشون، ومسلم بن خالد الزنجى. فالحديث صحيح لغيره بشواهد، والله أعلم.

(٤٠١) قول ابن مسعود أخرجه البخارى في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب عمر بن الخطاب ٤١/٧، وفي

كتاب مناقب الأنصار/ باب: إسلام عمر ١٧٧/٧، والمعجم الكبير للطبرانى ١٨٢/٩، ١٨٣.

(٤٠٢) طبقات ابن سعد ٢٧٠/٣ بإسناد صحيح، ومحمد بن عبيد: ثقة زيادته صحيحة.

(٤٠٣) المعجم الكبير للطبرانى ١٨١/٩ بإسناد حسن.

(٤٠٤) المعجم الأوسط للطبرانى ٣٣٤/١ بإسناد حسن.

وذكر الحافظ ابن حجر في سبب إسلام عمر، أنه كان بسبب الآيات التي قرأها من سورة طه، وذلك في غير موضع من كتابه القيم «فتح الباري» وعزاه إلى الدارقطني، لكن في سنده: القاسم بن عثمان أبا العلاء البصري، لم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرّحاً ولا تعديلاً، وذكر الهيثمي آثاراً متعددة في إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي بعضها أن الآيات كانت من أول سورة الحديد، وكلها فيها ضعف، لكن تعدد طرقها واختلاف مخارجها يشعر بأن للقصة أصلاً، فإسلامه كان بسبب آيات من القرآن الكريم، والقصة قد ذكرها أصحاب السير وغيرهم أيضاً، والله أعلم (٤٠٥).

أما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ في صلواته قرب الكعبة وعمر مستخفٍ بأستارها (٤٠٦)، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها، وضربه لزوجها سعيد بن

---

(٤٠٥) انظر: فتح الباري ٤٨/٧، ١٨١، ١٧٦/٧ في باب: إسلام سعيد بن زيد، والجرح والتعديل ١١٤/٧، ومجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب: إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٦١/٩: ٦٥، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٤٣/١: ٣٤٨، لكن ابن إسحاق ذكره بلاغاً، فهو منقطع، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢٦٧/٣: ٢٦٩ ط بيروت، وفي سنده: القاسم بن عثمان - المتقدم - قال البخاري: له أحاديث لا يتابع عليها، كما نقل ذلك الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٣٧٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم ٢٤١/١ ط دار الفنائس، بيروت، وفي سنده: إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة المدني: متروك. تقريب التهذيب ص ١٠٢، وانظر: عيون الأثر ٢١٦/١: ٢٢١.

(٤٠٦) مسند الإمام أحمد ١٨، ١٧/١، بسند صحيح إلى شريح بن عبيد، لكنه مرسل ضعيف، لأن شريحاً لم يدرك عمر. مجمع الزوائد ٦٢/٩، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠٣/١٤، وفي إسناده: عَنْ عَنَّةُ أَبِي الزبير، وهو مدلس، والسياق يختلف، ولولا ذلك لتقوت الروايتان المرسلتان، لاختلاف مخارجهما، وأحاديث أبي الزبير منها ما صرح فيها بالسماع، فهي صحيحة، ومنها ما عنعن في سائر طرقها عنه، فهذه إن كانت من رواية الليث عنه فهي صحيحة، وإن كانت من رواية غير الليث عنه فهي ضعيفة؛ لاحتمال أن تكون واسطته ضعيفة، هذا كله في روايته عن غير جابر بن عبدالله، فإن أبا الزبير: صاحبُه وَرَآوِيَتُهُ، والله أعلم.

زيد، ثم أطلّعه على صحيفة فيها آيات، وإسلامه بعد ذلك<sup>(٤٠٧)</sup>: فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحة، كما قدمنا؛ لكن الحافظ ابن حجر ذكر أن الباعث على إسلام عمر هو ما سمعه في بيت أخته فاطمة من القرآن الكريم<sup>(٤٠٨)</sup>.

ولا شك أن القرآن ببيانه الساحر، وروعة تصويره لمشاهد القيامة، ووصفه للجنة والنار؛ كان له تأثير كبير في اجتذاب عمر إلى صف المسلمين، لأن عمر كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، وعدم ثبوت الروايات حديثيًا لا يعنى حتمية عدم وقوعها تاريخيًا، والله أعلم. ولقد كان رد فعل قريش عنيفًا أمام حادثة إسلام عمر حتى سال بهم الوادى يريدون قتله لولا إجارة العاص له<sup>(٤٠٩)</sup>.

ذكر ابن إسحاق وغيره بسند حسن إلى عبدالله بن عمر<sup>(٤١٠)</sup> - وهو شاهد عيان - ما حدث من رد فعل قريش حين أسلم عمر بن الخطاب قال: لما أسلم أبى: عمر، قال: أى قريش

(٤٠٧) طبقات ابن سعد ٣/٢٦٧:٢٦٩، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢١٩ كلاهما بإسناد فيه القاسم بن عثمان البصرى: ضعيف، ومتنه منكر جداً. ميزان الاعتدال ٣/٣٧٥، وفضائل الصحابة للإمام أحمد ١/٢٨٥:٢٨٨ من زيادة ابنه عبدالله بإسناد فيه: إسحاق بن إبراهيم الحنيني، وأسامة بن زيد بن أسلم، وكلاهما ضعيف، ينظر: تقريب التهذيب ص ٩٨، ٩٩. وفي المتن اختلاف؛ ففي رواية ابن سعد: قرأ في الصحيفة آيات من سورة طه، وأما رواية عبدالله بن الإمام أحمد ففيها أن الآيات من سورة الحديد.

(٤٠٨) صحيح البخارى: باب إسلام سعيد بن زيد ح ٣٨٦٢، فتح البارى ٧/١٧٦.

(٤٠٩) وقد روى البخارى قصة إجارة العاص بن وائل لعمر في صحيحه ح ٣٨٦٤، ينظر: فتح البارى ٧/١٧٧، باب: إسلام عمر.

(٤١٠) كانت سنُّ عبدالله بنِ عُمَرَ: خمس سنين؛ بل تزيد عليها، حيث عَقَلَ قصة إسلام والده ورواها، وكان يوم أُخِذَ ابنَ أربع عشرة سنة، وكانت غزوة أُخِذَ بعد المبعث بستَ عشرة سنة؛ فيكون مولده بعد المبعث بستين، فلا يتقدم إسلامُ عُمَرَ على سنة ست أو سبع.

أَنْقَلَ للحديث؟ فقيل له: جميل بن مَعْمَر الجُمَحِي، قال: فغدا عليه، قال عبدالله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمتُ ودخلتُ في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، وأتبعه عمر وأتبعته أبي، إذ قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! - وهم في أُنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر قد صبأ، قال: ويقول عمر من خلفه: كَذَبَ، ولكني قد أسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح<sup>(٤١١)</sup> فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلفُ بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال: فبينما هو على ذلك؛ إذ أقبل شيخٌ من قريش عليه حُلَّةٌ حبرةٌ وقميصٌ موسى؛ حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال: فَمَهْ، رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أتريدون بني عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، قال: فوالله لكأننا كانوا ثوباً كُشِطَ عنه.

وقد عَرَفَ ابن عمر - فيما بعد - من أبيه أن الذي أجاره هو العاص بن وائل السهمي، والد عمرو بن العاص<sup>(٤١٢)</sup>.

وقد لخص الشيخ محمد سالم البيهاني سيرة عمر بن الخطاب نجتزئ منها ما يلي:

خَيْرُ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَأَبْرُ ❀❀❀ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ

(٤١١) أعيان وتعب. النهاية لابن الأثير ١٣١/٣.

(٤١٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٨/١، ٢٩٩، والسيرة لابن إسحاق ١٨٤، ١٨٥ بإسناد حسن. وقال ابن كثير: هذا

إسنادٌ جيدٌ قويٌّ، السيرة النبوية لابن كثير ٣٨/٢، ٣٩.

وَلَمْ يَكُنْ يَكْرَهُ شَيْئًا مِثْلَمَا      ❀❀❀      يَكْرَهُ هَذَا الدِّينَ حَتَّىٰ أَسْلَمَا  
 أَسْلَمَ لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَا      ❀❀❀      فَاسْأَلَ سَعِيدًا وَاسْأَلَ خَبَابَا  
 وَعَلِمَتْ مَكَّةُ أَنَّ الْقَدْرَا      ❀❀❀      قَدْ عَزَّهَا بِحَمْرَةَ وَعُمَرَا  
 حَيَاةَ هَذَا السَّيِّدِ الْعَظِيمِ      ❀❀❀      مَلِيئَةَ بِالْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ  
 قَدْ حَارَبَ الْأُمِّيَّةَ الْمُنْتَشِرَةَ      ❀❀❀      وَأَصْبَحَتْ بِأَلَدِهِ مُمَصَّرَةً  
 وَدُونَتْ فِيهَا الدَّوَابُّ كَمَا      ❀❀❀      كَانَ يُجِلُّ قَدْرَ مَنْ تَعَلَّمَ  
 وَأَثَبَتْ الْأَسْمَاءَ فِي الدِّيَوَانِ      ❀❀❀      مِنَ الشُّيُوخِ وَمِنَ الشَّبَّانِ  
 وَأَسْنَدَ الْأُمُورَ لِلْأَكْفَاءِ      ❀❀❀      فِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ وَفِي الْقَضَاءِ

وستأتي بمشيئة الله تعالى لعمر الفاروق أبي حفص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مواقف مشرقة في السيرة النبوية لاسيما في الهجرة النبوية؛ منها على سبيل المثال ما ورد تحت عنوان: (طلائع المهاجرين وأوائهم) حيث هاجر عمر بن الخطاب سرًّا من مكة؛ وقدم المدينة المنورة ومعه عشرون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وحمل معه كل ما يملكه من أموال ليستعين بها ويعين أصحابه الذين تركوا أموالهم بمكة، والحمد لله على التوفيق.



## خُرُوجُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِفِ بَحْثًا عَنِ مَكَانِ آمِنٍ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ

إن الرحلة إلى الطائف كانت إثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب، وخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فسعى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطَلَبِ النُّصْرَةِ من ثقيف، لكنها لم تستجب له، وأغرَّت به صبيانها وسفهاءها فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطائف التقى بعدَّاس الذي كان نصرانياً فأسلم (٤٣١).

وَأَرَّخَ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام (٤٣٢).

وسائر هذه التفاصيل أوردتها كُتَّابُ المغازي (٤٣٣)، ولكن لم ترد رواية صحيحة فيها، سوى أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ! وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ (٤٣٤)؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلَّالِ (٤٣٥)، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي،

(٤٣١) تنظر ترجمة: عدَّاس مولى شيبعة بن ربيعة، في الإصابة ٤/ ٣٨٥، ٣٨٦.

(٤٣٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٢١، والواقدي متروك الحديث، لكنه إمام في السير، سبقت ترجمته عند الهامش رقم: ١٠١.

(٤٣٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤١٩: ٤٢٢ بإسنادٍ صحيح، لكنه من مراسيل محمد بن كعب القرظي، وهو المصدر الرئيس عند ابن هشام لمعلومات رحلة الطائف.

(٤٣٤) المقصود: عقبة بالطائف، وليست عقبة مَنَى التي اجتمع بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الأنصار، كما سيأتي في الهجرة. انظر: شرح المواهب للزرقاني ١/ ٢٩٨.

(٤٣٥) وهو أحد رجال ثقيف، وكان من أكابر أهل الطائف. فتح الباري ٦/ ٣١٥.

فَلَمْ أَسْتَفِيقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ<sup>(٤٣٦)</sup>، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَنَتْنِي، فَظَنَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِرْيَلٌ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِيَيْنِ!<sup>(٤٣٧)</sup> فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا<sup>(٤٣٨)</sup>.

وهذه الرواية تكفي لإثبات الحادث من حيث وقوع الرحلة، وردُّ أهل الطائف عليه ﷺ بشدة، وما عُرض عليه من عقوبتهم، ورحمته ﷺ بهم، ورغبته في استبقائهم، وأخيراً: بقاء ذكرى الرحلة الأليمة في نفسه ﷺ بالرغم من مرور السنوات.

وأما دعاؤه المشهور أثناء العودة من الطائف: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقَلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّمَنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمَنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ بِي غَضَبِكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»<sup>(٤٣٩)</sup> ولقاؤه بعددَّاس فلم يثبت من طريق صحيحة، والله أعلم<sup>(٤٤٠)</sup>.

(٤٣٦) (قَرْنِ الثَّعَالِبِ) هو: قرن المنازل، ميقات أهل نجد، شرق مكة بنحو ٨٠ كم، وبينه وبين الطائف ٤٣ كم.

(٤٣٧) (عِنَى: جَبَلِيٌّ) مكة؛ أبي قُبَيْس، والجبل الذي يقابله.

(٤٣٨) البخارى: فتح البارى ٦/٣١٢، ٣١٣ ح ٣٢٣١، وصحيح مسلم (واللفظ له) ٣/١٤٢٠، ١٤٢١ ح ١٧٩٥.

(٤٣٩) أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح، لكنه مرسل، عن محمد بن كعب القرظي، والمرسل من أنواع الضعيف لا يحتج به إلا مع قرائن، والحديث: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو» ساقه بدون إسناد. وقد ساق الطبراني الحديث نحوه، عن عبد الله بن

ثم بعد عودته ﷺ إلى مكة: لم يترك فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة إلا اغتنمها، وبخاصة في موسم الحج عندما تُقبل القبائل إلى مكة، مجتمعة فيها.

وهذه بعض الأحاديث النبوية التي تُثبت ذلك وتؤكد:

فهذا طارق بن عبدالله المحاربي يقول: إني بسوق ذي المجاز، إذ مرَّ رجلٌ شابٌّ عليه حُلَّةٌ من بُردٍ أحمر، وهو يقول: «يا أيُّها النَّاسُ، قولوا: لا إلهَ إلا اللهُ تُفْلِحُوا»، ورجُلٌ خلفه يرميه قد أدمى عُرْقُوبِيهِ وَسَاقِيهِ، يقول: يا أيُّها النَّاسُ إِنَّهُ كَذَّابٌ، فلا تُطِيعُوهُ، فقلتُ: مَنْ هَذَا؟ قالوا: هَذَا غلامٌ بني هاشمٍ الَّذِي يزعمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهَذَا عَمُّهُ عَبْدِ الْعَزَى، فَلَمَّا هَاجَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَسْلَمَ النَّاسُ ازْتَمَلْنَا مِنَ الرَّبْدَةِ يَوْمَئِذٍ مَعَنَا ظَعِينَةٌ لَنَا، فَلَمَّا أَتَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَأَدْنَا حِيطَاتِنَا، لِسِنَا ثِيَابًا غَيْرَ ثِيَابِنَا إِذَا رَجُلٌ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلَ الْقَوْمُ؟ قُلْنَا: نَمِيرُ أَهْلَنَا مِنْ تَمْرِهَا، وَلَنَا جَمَلٌ أَحْمَرٌ قَائِمٌ مَحْطُومٌ، قَالَ: تَبِيعُونِي بِجَمَلِكُمْ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: بِكُمْ؟ قُلْنَا: بِكَذَا وَكَذَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَمَا اسْتَنْقَصَنَا مِمَّا قُلْنَا شَيْئًا، وَضَرَبَ بِيَدِهِ فَأَخَذَ خِطَامَ الْجَمَلِ، ثُمَّ أَذْبَرَ بِهِ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنَّا بِالْحِيطَانِ، قُلْنَا: وَاللَّهِ، مَا صَنَعْنَا شَيْئًا وَبَايَعْنَا مَنْ لَا نَعْرِفُ، قَالَ: تَقُولُ امْرَأَةٌ جَالِسَةٌ لَقَدْ رَأَيْتُ

جعفر، وفي إسناده: محمد ابن إسحاق، وهو: إمام في السير؛ لكنه مدلس، وقد روى الحديث بالعنعنة، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق، وهو: مدلس، وثقة، وبقيه رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٣٥/٦، أما الإمام السيوطي: فقد حسن الحديث في الجامع الصغير ح ١٤٨٣، وعزاه إلى الطبراني، عن عبدالله بن جعفر. فيض القدير ١١٩/٢. فالله أعلم.

وكذلك قصة عداس ساقها ابن إسحاق بدون إسناده، وأخرج الزهري وموسى بن عقبة قصة عداس مرسلّة في الخصائص الكبرى للسيوطي ٣٠/١، والمراسيل تتقوى ببعضها إذا تعددت مخارجها، ولا تعدد هنا، فابن إسحاق وموسى بن عقبة تلميذان للزهري، فيقوى أن يكونا أخذاه عنه. السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/١: ٤٢٠، وتاريخ الطبري ٣٤٤/٢: ٣٤٦، ٣٥/٦ ولم أقف على شيء من ذلك في المعجم الكبير للطبراني المطبوع لأنه ناقص، والله أعلم.

(٤٤٠) يراجع كتاب: «السيرة النبوية الصحيحة» إذ فيه تفصيل لأسانيد رحلة الطائف ١٨٥/١: ١٨٨.

رَجُلًا كَانَ وَجْهُهُ شَبَهُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَاللَّهُ لَا يَظْلِمُكُمْ، وَلَا يَخْتَرِكُمْ وَأَنَا ضَامِنَةٌ لِحِمْلِكُمْ، فَأَتَى رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَيْكُمْ هَذَا تَمْرُكُمْ، فَكُلُوا وَاشْبِعُوا وَاکْتَالُوا، قَالَ: فَأَكَلْنَا وَشَبِعْنَا، وَاکْتَلْنَا، وَاسْتَوْفِينَا، ثُمَّ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ ﷺ يُطْبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَسَمِعْنَا مِنْ قَوْلِهِ يَقُولُ: «تَصَدَّقُوا، فَإِنَّ الصَّدَقَةَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ: أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَخْتَكَ وَأَخَاكَ، وَأَذْنَاكَ فَأَذْنَاكَ» (٤٤١).

ويقول ربيعة بن عباد الدؤلى - وهو شاهد عيان أيضًا - : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِدِي الْمَجَازِ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ تَتَقَدُّ وَجْتَاهُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا يَغُرَّتْكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ وَدِينِ آبَائِكُمْ، قلت: مَنْ هُوَ؟ قالوا: هَذَا أَبُو هَبِّ (٤٤٢).

ومما خاطب به ﷺ الناس في ذى المجاز: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا» وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئًا، وهو لا يسكت؛ بل يستمر في دعوتهم، وأبو هب يصيح: إنه صابغ كاذب (٤٤٣) يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى (٤٤٤).

(٤٤١) الحديث في المعجم الكبير ٨/٣١٤، ٣١٥ ح ٨١٧٥، وسنن الدارقطني ٣/٤٤، ٤٥، والسنن الكبرى للبيهقي ٦/٢٠، ٢١ من طُرُقٍ إِلَى الصَّحَابِيِّ: طَارِقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ أُخْرَى: يَنْظُرُ بَعْضُهَا عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ ٢٠/٣٤٢، ٣٤٣ ح ٨٠٥، ٨٠٦، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ بِمَجْمُوعِ طَرَفِهِ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَجَالُهُ ثِقَاتٌ. انظُر: مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ ٦/٢١. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٤٤٢) مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَد ٣/٤٩٢ من زوائد ابنه عبدالله بإسنادين حسنين يرتقيان إلى الصحيح لغيره، والمعجم الكبير للطبراني ٥/٥٦، ومستدرک الحاكم ١/١٥٠، وفيه لفظ (مِنَى) بدل (ذِي الْمَجَازِ). وَصَحَّحَهُ وَأَقْرَبَهُ الذَّهَبِيُّ، وَلَكِنْ سَعِيدُ بْنُ سَلْمَةَ لَيْسَ عَلَى شَرَطِ الْبُخَارِيِّ؛ بَلْ رَوَى عَنْهُ اسْتِشْهَادًا، وَفِي الْمَسْنَدِ ٣/٤٩٢ رَوَايَةٌ أُخْرَى مِنْ زَوَائِدِ عَبْدِ اللَّهِ أَيْضًا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَفِيهَا: (عُكَاظٌ) وَهِيَ مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ عَرَفَاتٍ شَرْقَ مَكَّةَ، فَلَا تَعَارُضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَوَايَةِ (ذِي الْمَجَازِ) لِأَنَّهَا بَعْرِفَةٌ أَيْضًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٤٤٣) مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَد ٤/٣٤١، ٣٤٢، ومستدرک الحاكم ١/١٥٠، والمعجم الكبير للطبراني ٥/٥٦، ٥٥٠، لِأَنَّ مِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزَّنَادِ بِالْمَدِينَةِ، وَإِنَّا تَغْيِيرَ حِفْظِهِ لِمَا قَدَّمَ بَغْدَادُ. تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ ٦/١٧١، ١٧٢.

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في الموقف: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي جَلَّ جَلَالُهُ؟» فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ، فَقَالَ: «مِمَّنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ هَمْدَانَ، قَالَ: «فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ! ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَحْقِرَهُ قَوْمُهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «آتَيْهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ ثُمَّ آتَيْكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ» قَالَ: نَعَمْ، فَأَنْطَلَقَ، وَجَاءَ وَفَدَّ الْأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ (٤٤٥).

وهذا يدل على أن الحادثة جرت في العام الحادى عشر من البعثة، فإن الأنصار قدموا في العام الحادى عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى، ثم في العام الثانى عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية، ثم كانت الهجرة إلى المدينة، بعد ثلاث عشرة سنة في مكة.

يقول جابر بن عبد الله الأنصارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يَتَّبِعُ النَّاسُ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَجَحَّةٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمَنَى يَقُولُ ﷺ: «مَنْ يُؤْوِنِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رَسُولَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ، كَذَا قَالَ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرِ غُلَامَ قُرَيْشٍ! لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَأَوْيَنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيَسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ (٤٤٦).

(٤٤٤) مسند الإمام أحمد ٤/٦٣ بإسناد صحيح.

(٤٤٥) مسند الإمام أحمد ٣/٣٩٠ ح ١٥١٩٢ بإسناد صحيح، وأخرجه أبو داود، عن محمد بن كثير، عن إسرائيل... به ح ٤٧٣٤، والترمذى: كتاب فضائل القرآن ٥/١٦٨، ١٦٩ ح ٢٩٢٥، وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه ١/٧٣ ح ٢٠١، والحاكم ٢/٦١٢، ٦١٣ ح ٤٢١٩، وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي: كلهم من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الذهبي في السيرة النبوية: وهو على شرط البخارى، وعثمان بن المغيرة إنما روى له البخارى دون مسلم.

(٤٤٦) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٩، ٣٤٠ بإسناد صحيح، ومستدرک الحاكم ٢/٦٢٤، ٦٢٥ وصححه وأقره

## الِاتِّصَالُ بِالْأَنْصَارِ وَاسْتِجَابَتُهُمْ

ثم كان من تهيئة الله وتدييره للنبي ﷺ وأصحابه: أن الذين كانوا يسكنون المدينة هم الأوس والخزرج وفنام من اليهود، فنشبت حرب بُعثت بين قبيلتي الأوس والخزرج قبل الهجرة بثلاث سنين كما قال ابن سعد، وقيل بخمس سنين كما نقل الحافظ ابن حجر، وشاء الله عز وجل أن يتصر في تلك الحرب الأوس على الخزرج بعد قتل الكثيرين من الطرفين، وفي القتل عددٌ غيرٌ قليلٍ من أكابريهم (٤٦٣).

وقبل يوم بُعثت بيسير، سعت الأوس لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عددًا، فقدم أبو الحيسر أنس بن رافع في وفدٍ من بني عبدالأشهل لهذا الغرض، فسمع بهم الرسول ﷺ، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال أحدهم، وهو: إياس بن معاذ- وكان غلامًا حدثًا- أي قوم! هذا والله خيرٌ مما جئتم له، فانتهره أبو الحيسر فصمت، وقام رسول الله ﷺ عنهم، ورجعوا إلى المدينة، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعثت، ثم مات إياس بن معاذ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويمجده ويسبحه حتى مات، فكانوا لا يشكون أنه مات مسلمًا، فقد استشعر الإسلام في لقائه مع رسول الله ﷺ في ذلك المجلس (٤٦٤).

الذهبي، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/٢٢٢، ٢٢٣، وقال ابن كثير: هذا إسنادٌ جيدٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه. السيرة النبوية ٢/١٩٦، وانظر ما سيأتي تحت عنوان: «مبايعة الأنصار عند العقبة» وفيه لفظ الحديث بطوله ص ٢٨٤: ٢٨٦.

(٤٦٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢١٩، وفتح الباري ٧/١١١.

(٤٦٤) مسند الإمام أحمد ٥/٤٢٧ من طريق ابن إسحاق، والسيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٧، بإسنادٍ حسن، وينظر: الإصابة ١/٣١٣، ٣١٤ ترجمة: إياس بن معاذ الأنصاري، و١/٣٩٠ ترجمة: أبي الحيسر؛ أنس بن رافع، وله ابن:

ونموذج آخر: هو سويد بن الصامت الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قدم مكة حاجًا أو معتمرًا، فتعرض له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: مجلة لقمان - يعنى: حكمة لقمان- فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها عليّ» فعرضها عليه، فقال له: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآنٌ أنزلهُ اللهُ تعالى عليّ وهو هدى ونور» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال عن هذا القول: حَسَنٌ، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجالٌ من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم، وكان قَتْلُهُ يوم بُعَاث (٤٦٥).

وعلى أية: حال فلا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه.

ثم كانت البداية المثمرة - بعدَ الرجلين اللذين استشعرا الإسلام دون أن يقوم أحدٌ منهما بالدعوة إليه بين قومهما-: بالاتصال الحقيقي بالأنصار مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِظْهَارَ دِينِهِ وَإِعْزَازَ نَبِيِّهِ ﷺ وَإِنْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَوْسِمِ الَّذِي لَقِيَهُ فِيهِ النَّفَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى قِبَاثِلِ

---

شهد بدرًا، وابنة: تزوجها عبدالرحمن بن عوف وهى التى ورد فيها حديث: «أُولُوْهُمُ وَكُوْبِسَاءُ» متفق عليه، وسيأتى لفظه وتفصيل تخريجه في الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان: «العِفَّةُ وَالْإِيثَارُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ» عند الهامش رقم: ٢٦٠.

(٤٦٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٧، ٤٢٨ بإسناد حسن من رواية عاصم بن عمر بن قتادة: وهو ثقة، توفى سنة ١٢٠هـ، يرويه عن أشياخ من قومه الأنصار، وقال ابن حجر: فإن صح ما قالوا لم يُعَدَّ في الصحابة: لأنه لم يلق النبي ﷺ مؤمنًا به. الإصابة ٣/١٨٧.

العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

قال: فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسندم عليهم فدعاهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليك: فلا رجل أعز منك!! ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، قد آمنوا وصدقوا (٤٦٦).

وقد أحس الأنصار حاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها حرب بُعث، ولعل ذلك كان سبباً هيأه الله تعالى لإسلامهم، كما أن مقتل رؤسائهم في بُعث خفف من التزاحم على الزعامة، والأنفة من الدخول في الإسلام حرصاً على السلطان والرياسة؛ وكذلك فإن الأنصار كانوا يجاورون اليهود وهم أهل كتاب، فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار، فلا شك أن أذهانهم كانت مهينة لفهم الإسلام أكثر من غيرهم، ثم إن تهديد اليهود للأوس والخزرج بترقبهم لنبي قد أظلم زمانه، وأنهم سيتبعونه عند ظهوره؛ حتى يقتلوا الأوس والخزرج قتل عاد وإرم، فكان هذا هو الذي حدا بالأوس والخزرج لبيادروا إلى الدخول في الإسلام، ومبايعة نبيه ﷺ في غاية السرية والكتبان.

(٤٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٨، ٤٢٩ بإسناد حسن، وقد عد هذه بيعة من ذكر من العلماء وقوع ثلاث بيعات بين النبي ﷺ وبين الأنصار عند عقبة منى، منهم: ابن عبد البر في الدرر ص ٧٦، وابن سيد الناس في عيون الأثر ١/١٥٦، والصالحى في السيرة ٣/٢٦٧، أما ابن إسحاق وابن سعد والطبرى فلم يعدوها بيعة، ولم تذكر المصادر وقوع البيعة منهم.



وقد حدث أكثر من لقاء بين رسول الله ﷺ وبين وفود يثرب عند عقبة منى في مواسم

الحج، نوضحه فيما يلي:

### مُبَايَعَةُ الْأَنْصَارِ عِنْدَ الْعُقْبَةِ

كان أولئك النفر طليعة للدعاية الموفقة للإسلام في يثرب، وقد أثمرت جهودهم على عجل، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام.

حتى إذا استدار العام، وأقبل موسم الحج: خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي والأسري بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال من الأوس، وكانت تلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام، فعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ ليوثقوا معه إسلامهم: حيث جرت بيعة العقبة الأولى.

إن مصدر المعلومات الصحيحة الرئيسة عن بيعة العقبة الأولى هو عبادة بن الصامت الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو شاهد عيان مشارك في البيعة، وحديثه عن ذلك ثابت في الصحيحين وسيرة ابن إسحاق، ونسوق هنا رواية ابن إسحاق لأنها أوضح وأتم، ونصها كما يلي:

وأصرح ما ورد في بيعة العقبة ما أخرجه أحمد وغيره بسند يرتقى بالمتابعة، من حديث عبادة بن الصامت أنه جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام: فَقَالَ عَبَادَةُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ مَعَنَا إِذْ بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّا بَايَعْنَاهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا نَخَافَ لَوْمَةَ لَائِمٍ فِيهِ، وَعَلَى أَنْ نَنْصُرَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قَدِمَ عَلَيْنَا يَثْرِبَ فَنَمْنَعُهُ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَزْوَاجَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَلَنَا الْجَنَّةُ، فَهَذِهِ بَيْعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي بَايَعْنَا عَلَيْهَا، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا

يُنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ وَفَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا بَايَعَ عَلَيْهِ نَبِيَّهُ ﷺ» (٤٦٧).

ويؤكد ذلك رواية البخارى المجملة، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرُوهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» (٤٦٨).

وقد صَدَرَتْ مُبَايَعَاتٌ أُخْرَى بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ رِجَالًا وَنِسَاءً فِي أَوْقَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ شَهِدَهَا كُلُّهَا عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبِهَذَا تَجْمَعُ الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ الْأُخْرَى لِلْأَحَادِيثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ولما تمت بيعة العقبة، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يُقْرِئَهُم الْقُرْآنَ، وَيُعَلِّمَهُمُ الْإِسْلَامَ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ، فَقَامَ بِمَهْمَتِهِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَاتَّشَرَ عَلَى يَدَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ الثَّانِيَةِ (٤٦٩).

ولما انتشر الإسلام في المدينة، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يلاقى عنت قريش وأذاها الذي كان يشتد على مر الأيام، قدم وفد الأنصار في موسم الحج، وكان عددُ الشبابِ فيهم أكثر، فبايعوا بيعة العقبة الثانية.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنْازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَبِحِجَّةٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنَى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي:

(٤٦٧) المسند ٣٢٥/٥ وعزاه الهيثمي إلى الطبراني أيضًا. مجمع الزوائد ٢٢٦/٥، ٢٢٧، وفي سننه عندهما: إسماعيل بن عياش؛ وروايته عن الحجازيين فيها مقال، ويتقوى الحديث بما بعده.

(٤٦٨) صحيح البخارى: كتاب الفتن/ باب قول النبي ﷺ سَتْرُونَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكَرُ وَبِهَا ١٣/٥ ح ٧٠٥٥، ٧٠٥٦، وفي كتاب الأحكام/ باب كيف يُبَايِعُ الْإِمَامُ النَّاسَ ١٣/١٩٢ ح ٧١٩٩، ٧٢٠٠ واللفظ له.

(٤٦٩) السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٨/١.

وَلَهُ الْجَنَّةُ؟» حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: اخْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ؛ لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ؛ حَتَّىٰ بَعَثْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ، فَأَوَيْنَاهُ وَصَدَقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَيَسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ؛ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ اتَّخَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّىٰ مَتَىٰ نَبْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ، فَرَحَلْ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّىٰ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّىٰ تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ، قَالَ ﷺ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ» قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةٌ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعْصَمَكُمْ السُّيُوفُ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً؛ فَبَيَّنَّا ذَلِكَ فَهُوَ عُدْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللَّهِ لَا نَدْعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، وَبُعِثْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَنَّةَ.

وفي رواية: يقول جابر... واجتمعنا سبعمائة رجلًا منا، فقلنا: حَتَّىٰ مَتَىٰ نَذَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ، فَدَخَلْنَا حَتَّىٰ قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنِّي لَا أَذْرِي مَا هُوَ لِأَيِّ الْقَوْمِ الَّذِينَ جَاءُوكَ؟ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي وُجُوهِنَا؛ قَالَ: هُوَ لِأَيِّ قَوْمٍ لَا أَعْرِفُهُمْ؟ هُوَ لِأَيِّ أَحْدَاثٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ

وَالطَّاعَةَ...» الحديث (٤٧٠).

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة (٤٧١).

وهناك تفاصيل مهمة في رواية الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري، وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية، حيث قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القَطَا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نساتنا: نُسَيْبَةُ بنتُ كعب، وأسما بنت عمرو.. فاجتمعنا في الشعب نتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب - وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له - فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فبين أن الرسول في منعة من قومه بني هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله ﷺ فيأخذ لنفسه ولربه ما يجب من الشروط، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورجب في الإسلام، ثم قال ﷺ: «أَبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ».

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أُرْرْنَا -

(٤٧٠) إسناده صحيح سبق تخريجه في الهامش رقم ٤٤٦، ويرى الحافظ ابن حجر أن فيه علة تدليس أبي الزبير؛ وقد عنعن عن جابر. فتح الباري ٧/٢٢٢، ٢٢٣. والحق: أن أبا الزبير؛ صاحب جابر ورواية أحاديثه، فحديثه عنه صحيح، وله شواهد أخرى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٤٧١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٨/١، ومسنَد الإمام أحمد ٣١٦/٥ بإسنادٍ صحيحٍ لغيره.

يعنى: منتهى الحفظ والصيانة؛ لأن الإزار يستر عورة الإنسان - فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كإبراً عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها- يعنى: اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بَلِّ الدَّمَّ الدَّمَّ وَاهْتَدِمَ اهْتَدِمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأَسَاطِمُ مَنْ سَأَلْتُمْ»، ثم قال ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيًّا يَكُونُونَ عَلَيَّ قَوْمِهِمْ» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم (٤٧٢).

وهكذا مرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبي ﷺ بتلهفٍ وشوقٍ بالغين.

(٤٧٢) السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٩/١: ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٤٨ بإسنادٍ حسن، وقد صححه ابن حبان كما في فتح الباري ٢٢١/٧، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٦٠/٣ من طريق ابن إسحاق أيضاً، وفي فضائل الصحابة ٩٢٣/٢ مختصراً، ووقع في سند ابن إسحاق مرة: أنه ذكر الزهري واسطة لتحمله عن معبد بن كعب، وهو وهمٌ. ينظر: سيرة ابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ٤٧/٢ ووقع في طبعة السقا المعتمدة على أصلين دون ذكر الزهري، وابن إسحاق يروى مباشرة، عن معبد بن كعب ولا يحتاج إلى واسطة، والله أعلم.

## الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ

إن مفارقة الوطن ليست شيئاً سهلاً؛ بل إنها في حكم الشرع مساوية للقتل الذي هو من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، قال جلَّ جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْكُمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

قال الحافظ ابن كثير: يُخبر تعالى عن أكثر الناس: أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا في علمه تبارك وتعالى بما لم يكن: لو كان؛ كيف كان يكون، ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما يُنهون عنه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء].

ولربما يستبعد كثيرون من الناس وجود تلك النماذج من المهاجرين الذين تركوا أرضهم وفارقوا مجتمعهم الذي نشأوا فيه وتربوا بين دروبه: فقصَّ الله علينا مثلاً واقعياً بالمنافقين في المدينة الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ أيماناً مُغلظة: لئن أمرهم بالخروج ليخرجنَّ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: لا تحلفوا، فقد عرفنا طاعتكم إنها قول؛ لا فعل معه، وكذب؛ لا صدق فيه، وهذا خُلُقكم؛ وتلك سجيتكم، والمطلوب منكم: أن تكون طاعتكم بالمعروف مطابقة لأقوالكم لا كذب فيها ولا مخادعة، وبدون حلف ولا أيمان، لأن الخير بكم والرقب عليكم يعلم السر وأخفى، مطلعٌ على ضمائركم، لا يخفى عليه شيء من بواطنكم، وعليكم أن تعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما التزم بها المؤمنون الصادقون، وإن توليتم وأعرضتم بعد البلاغ والبيان فإن مرجعكم إلى الله وحسابكم عليه وحده لا شريك له، وذلك واضح في قوله تبارك اسمه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُمِرُّهُمْ لَيُخْرِجَنَّ قُلٌ لَّا تُقْسَمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٥٠] قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

عَلَيْهِ مَا حُمِلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلْتُمْ<sup>ط</sup> وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩٨﴾ [النور].

والمقصود من تلك الآيات: بيان شدة الخروج من الوطن على نفس الإنسان الذي درج على أرضه، وترى بين ربوعه، وعاش فيه بين أهله وذويه، وأن ذلك الفعل يعدل قتل النفس وإزهاقها.

ففي الصحيحين وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ  
الهِجْرَةِ فَقَالَ: «وَيْحَكَ! إِنْ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ» (١٩٩) «وَيْحَكَ» كلمة ترحم تقال لمن وقع في هلكة  
لا يُطِيقُهَا، أو مَشَقَّةً لا يتحملها، فكأنه ﷺ علم أن الأعرابي لا يستطيع تحمل شدائد الهجرة  
ومتاعها فأشار عليه بتركها.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: والمراد بالهجرة التي سأل عنها هذا الأعرابي هي  
ملازمة المدينة مع النبي ﷺ وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبي ﷺ ألا يقوى عليها، ولا يقوم  
بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التي سألت عنها لشديد، ولكن اعمل  
بالخير في مكانك وحيث ما كنت فهو ينفعك ولا ينقصك الله منه شيئاً والله أعلم (٢٠٠).

ومن هذا الحديث وتلك الآيات: نعلم أن إخراج الناس من ديارهم وتهديد المؤمنين في  
أوطانهم جريمة لا يُعْرِفُهَا شَرٌّ، ولا يُسَوِّغُهَا عَقْلٌ، وإنكارها مركزٌ في الأخلاق القويمة،

(١٩٨) تفسير الإمام ابن كثير ٣/٢، ٣٠٩، ٨٢/٦، ٨٣ باختصار وتصرف.

(١٩٩) صحيح البخاري: كتاب الزكاة/ باب زكاة الإبل ٣/٣١٦، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب المبايعه بعد فتح  
مكة ٣/١٤٨٨، وسنن أبي داود: كتاب الجهاد/ باب ما جاء في الهجرة وسكنى البدو ٣/٦٣ ح ٢٤٧٧، بسند حسن، ومسنن  
أبي يعلى ٢/٤٩٢ ح ١٢٦٦ بسند ضعيف، لكن متن الحديث في الصحيحين كما قدمنا.

(٢٠٠) شرح النووي لصحيح مسلم ٩/١٣، والنهية في غريب الحديث ٥/٢٣٥، وبذل المجهود ١١/٣٧٠.

والطبائع المستقيمة على طول الزمان وامتداده، قال تعالى فيما أخذه على بنى إسرائيل من عهد وموآثيق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشَاهِدُونَ ﴿١٤٦﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْا لَهَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْظَهْرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۖ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۗ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة].

ومن ثم: حذر سبحانه عباده المؤمنين أشد التحذير، من موالاتهم للكافرين، أو مهادنتهم؛ بل أكد عليهم وجوب مبايعتهم ومفاصلتهم، وحرّم عليهم التشبه بهم في صفة من الصفات، أو الركون إليهم بحال من الأحوال، وذلك لأن ما يفعلونه بهم من الإخراج، ويوقعونه عليهم من التعذيب والإيذاء: كفيل بأن يؤصل العداوة بينهم، وحرى بغرس البغضاء في نفوسهم، قال تعالى في افتتاحية سورة الممتحنة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۚ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٤٦﴾﴾ إن يتفقوكم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوْءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ إلى قوله سبحانه في السورة نفسها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْكُمْ



دِيرِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيرِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾.

ثم استحثهم على مقاتلتهم بأبلغ عبارة، وحضهم على مناصلتهم بأفصح بيان، وذلك في قوله جل وعلا: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَتَهُمْ وَهُمْ مَبْعُوثُونَ فِي دِينِكُمْ وَأَخْرَجُوا بِإِحْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرِهَ اللَّهُ لِعُنُوتِهِمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلْتَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

وذلك حتى تستقيم الموازين في الأرض، ولا يستشري الباطل، أو يعم الفساد: كما قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَلْ دَمَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٥٠﴾﴾ [الحج].

وإذا كان القرآن الكريم قد صور بشاعة هذه الجريمة التي هي طرد المؤمنين من أوطانهم: بما يقشعر له بدن كل مسلم، وتشمئز منه نفسه، فإن الذي يقارن ما كان عليه الجاهليون في أوائل القرن السابع الميلادي وما قبله مع ما كانوا عليه من شرك وأمية... بما عليه الناس اليوم في هذا القرن الحادي والعشرين: مع ما يدعونه من تدين، وما يزعمونه من تحضر... فإنه سيرى بأدنى تأمل: ما تنفطر منه القلوب، وتفتت منه الأكباد، وتذهل منه العقول... لما يجده من الفرق الشاسع بين ما عليه هؤلاء من الفظاظة والفظاعة والغلظة والقسوة... على إخوانهم وذويهم بما

لا يقره شرع ولا يسوغه خلق، وبين ما كان عليه أولئك من وفاء بالعهد، ومحافظه على العرض، واحترام للآدمية، ومعرفة أقدار ذوى الفضل... ولا شك أن كل قارئٍ أَخْبَرُ منى وأبصر بما عليه هؤلاء المتأخرون، وأنا سأنبئه عن شيء من خبر أولئك المتقدمين:

فهذا الحارث بن يزيد، وسماه السهيلي مالكا، ولقبه: ابن الدغنة - بفتح المهملة المشددة، وكسر المعجمة المخففة، وفتح النون المخففة - سيد الأحابيش: وهم بنو الهون - بضم الهاء - وبنو الحارث من كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحبشوا - أى: تجمعوا - وتحالفوا عند جبل صغير يقال له حبشى، فاشتق لهم منه هذا الاسم، وكانوا حلفاء بنى زهرة من قريش، وكان يُضرب بهم المثل في قوة الرمي: قد لقي أبا بكر الصديق بعد مسيرة يوم أو يومين حين خرج من مكة مهاجراً إلى أرض الحبشة لما اشتد عليه أذى الكفار، فسأله ابن الدغنة هذا - وهو من المشركين - إلى أين يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، وقد ورى أبو بكر بهذا الجواب، ولم يفصح عن جهة مقصده لكون ابن الدغنة أحد الكفار، ومن المعلوم أنه لا يصل إلى أرض الحبشة إلا بعد أن يسير في الأرض زماناً فيصدق أنه سائح، قال ابن الدغنة: والله! إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم؛ ارجع وأنت في جوارى (٢٠١).

وهذه هي القصة كما تروىها لنا أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكما أخرجها البخارى في صحيحه بسنده في أكثر من موضع.

تقول الصديقة بنت الصديق: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوِيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ

(٢٠١) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٧٢: ٣٧٤، والروض الأنف ٣/٣٣٦، ٣٣٧، ٣٥٢، وفتح الباري ٧/٢٣٣ وضبط أهل اللغة لفظ: (ابن الدغنة) بضم المهملة المشددة، والمعجمة المخففة، وفتح النون المشددة هكذا: ابن الدغنة، وما ذكرناه من ضبط في الصلب هو المعتمد عند المحدثين، والله أعلم.

إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفِي النَّهَارِ: بُكَرَةٌ وَعَشِيَّةٌ، فَلَمَّا ابْتَلَى الْمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الْحُبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرَكَ الْعِمَادِ (٢٠٢)، لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ: سَيِّدُ الْقَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ، وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ! تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ، ارْجِعْ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَارْجِعْ وَارْتَحِلْ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يُخْرَجُ مِثْلَهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَنْخَرِجُونَ رَجُلًا! يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟! فَلَمْ تُكَلِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَقَالُوا لابنِ الدَّغِنَةِ: مَرُّ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَلْيُصَلِّ فِيهَا، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِنَا بِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَعْلِنَ بِهِ فَإِنَّا نَحْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، لَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ، وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَقْدَفُ (٢٠٣) عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَأَفْرَعُ ذَلِكَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا، فَأَنْهَهُ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ

(٢٠٢) (بَرَكَةُ الْعِمَادِ) بفتح الموحدة التحتانية، وسكون الراء، وحكى كسر أوله والغداد بكسر المعجمة وقد تضم وتخفيف الميم، موضع على خمس ليال من مكة جهة اليمن، وقيل فيه غير ذلك. فتح الباري ٧/٢٣٢، ومراصد الاطلاع ١/١٨٧. (٢٠٣) في رواية: (فَيَقْدَفُ) وفي أخرى: (فَيَقْتَصِفُ) والمعنى: أنهم يتزاحمون عليه، ويتدافعون حتى يتساقط بعضهم على بعض ويقعون عليه. فتح الباري ٧/٢٣٤ بتصرف.

فَعَلَ، وَإِنَّ أَبِي إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلَّهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَكَسْنَا مُقَرَّرِينَ لِأَبِي بَكْرٍ الْإِسْنِعْلَانَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أَخْفَرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرَدْتُ إِلَيْكَ جَوَارِكَ، وَأَرْضَى بِجَوَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ...» الحديث مطولاً (٢٠٤)، وستأتي بقيته بعد مع غيره من فوائد إن شاء الله تعالى تحت عنوان: «يوم الهجرة».

ومعلوم أن الذي افزع الكفار وأهاجهم من صنيع أبي بكر هو ما عُرفَ من رقة قلوب النساء والشباب، وسرعة استجابتهم لدين الإسلام، ومبادرتهم في الدخول فيه. والأوصاف التي وصف بها ابن الدغنة أبا بكر قد سبق أن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصفت بها رسول الله ﷺ حين جاءها فرعاً من هول ما رأى لأول مرة من صورة الملك، وشدة ما لقيه من ثقل الوحي، كما مر ذلك في حديث عائشة المتقدم عن بدء الوحي، وفي هذا دليل على أن العرب برغم ما كانوا فيه من جهالة، إلا أنهم كانوا يعرفون لذوى القدر أقدارهم، ولأصحاب الفضل فضائلهم، ويترلونهم منازلهم، وقد سبق في الجزء الأول نهاج للأنبياء والمرسلين مع أمهم وأقوامهم ليكونوا أسوة لمن بعدهم، وذلك تحت عنوان: «مُحَاصِرَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ».

(٢٠٤) هذا الحديث تكرر في صحيح البخارى تسع مرات، وأول موضع له في كتاب الصلاة/ باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس ١/٥٦٣، ٥٦٤ ح ٤٧٦، وبنحو اللفظ المذكور في: كتاب الكفالة/ باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده ٥/٤٧٥، ٤٧٦، ولفظه في: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/٢٣٠: ٢٣٢ ح ٣٩٠٥، وقال الحافظ ابن كثير: تفرد الإمام البخارى بهذا الحديث. البداية والنهاية ط دار الفكر ٣/٩٤، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: فصل في هجرته ﷺ/ باب ذكر وصف كيفية خروج المصطفى من مكة لما صعب الأمر على المسلمين بها، ٨/٦٠: ٦٢ ح ٦٢٤٤ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان.

وسياتى مزيدٌ من الأمثلة لذلك - إن شاء الله تعالى - فى البحوث المتوالية للهجرة النبوية، والله الموفق.

وهذا أكمل الخلق وصفوئهم ﷺ قد أحس بهذا الألم من أول ما أعلمه ورقة بن نوفل أن قومه سيخرجونه من هذا البلد، وذلك واضحٌ فى قوله: لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْخُرَجِيَّ هُمْ؟!» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُوْدِي... الحديث (٢٠٥).

وقد استبعد ﷺ أن يخرج قومه، لأنه لم يكن هناك سببٌ يقتضى إخراجَه من وطنه، وذلك لما عرفوه عنه صلوات الله وسلامه عليه من جميل الخصال، ومكارم الأخلاق التى سبق من أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقريرها له ﷺ ووصفه بها، قال السهيلي: يؤخذ من قوله ﷺ «أَوْخُرَجِيَّ هُمْ؟!» شدة مفارقة الوطن على النفس، فإنه سمع قول ورقة: إنهم يؤذونه ويكذبونه، فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذكر له الإخراج تحركت نفسه لحب الوطن وإلفه، فقال: «أَوْخُرَجِيَّ هُمْ؟!» ويؤيد ذلك: إدخال الواو بعد همزة الاستفهام، مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، فأفاد أن: الاستفهام على سبيل الإنكار أو التفجع، ويؤكد ذلك: أن الوطن المشار إليه: حرم الله، وجوار بيته، وبلدة الآباء من عهد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل كلام السهيلي مُلَخَّصًا: ويحتمل أن يكون انزعاجه ﷺ من كلام ورقة كان من جهة خشية فوات ما أمَّله من إيمان قومه بالله، وإنقاذهم به من ضرر الشرك - أى: دنسه وتبعاته - ومن عذاب الآخرة، وليتم له المراد من إرساله إليهم، ويحتمل أن يكون انزعاج من الأمرين معاً (٢٠٦).

وفى الحديث الصحيح، عن عبدالله بن عدى قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ،

(٢٠٥) متفق عليه، واللفظ المذكور هنا من: صحيح البخارى، فى: كتاب بدء الوحي ٣٢/١.

(٢٠٦) فتح البارى ٣٥٩/١٢.

وَأَقِفْ بِالْحَزْوَرَةِ (٢٠٧) يَقُولُ - مخاطبًا مكة - : «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ! لَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ: مَا خَرَجْتُ» (٢٠٨).

وله شاهد من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ! وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ» أخرجه الترمذى وحسنه (٢٠٩).

وقد ظل ذلك الإحساس يemor في صدر النبي ﷺ وهو في طريق هجرته حتى طمأنه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وقد فسرها ابن عباس فقال: ﴿لَرَادُّكَ﴾ إلى مكة. كما ورد ذلك في: كتاب التفسير من صحيح البخارى.

ثم أضف أخى الدارس إلى ما لقيه المصطفى ﷺ من الألم النفسى والبدنى الذى نزل به

(٢٠٧) يفتح المهملة والواو، بينها زاي ساكنة، التل الصغير، وكان عندها سوق مكة، ثم ضم إلى المسجد الحرام لما زيد فيه. ينظر: معجم البلدان ٢/٢٥٥.

(٢٠٨) جامع الترمذى: كتاب المناقب/ باب فى فضل مكة ٦٧٩/٥ ح ٣٩٢٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقد رواه يونس، عن الزهرى نحوه، ورواه محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ وحديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبدالله بن عدى بن حمراء عندى أصح، والسنن الكبرى للنسائى: كتاب الحج/ باب فضل مكة ٤٧٩/٢، ٤٨٠ ح ٤٢٥٢ : ٤٢٥٤ وفيه: (بالجرول) بدل (بالحزورة) وهى: مكان غرب الكعبة، دخل فى توسعة المسجد الحرام، وسنن ابن ماجه: كتاب المناسك/ باب فضل مكة ١٠٣٧/٢ ح ٣١٠٨، ومسند الإمام أحمد ٣٠٥/٤ عن عبدالله بن عدى، وعن أبى هريرة، الذى أشار إليه الترمذى، وعن بعضهم - يعنى: أصحاب النبى ﷺ - وسنن الدارمى: كتاب السير/ باب إخراج النبى ﷺ من مكة ٣١١/٢ ح ٢٥١٠، وينظر: الخريطة رقم: ٣٨ من كتاب: «أطلس تاريخ الإسلام» ص ٦٢.

(٢٠٩) ينظر: جامع الترمذى، فى: الكتاب والباب المتقدمين ٦٧٩/٥، ٦٨٠ ح ٣٩٢٦ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

حين خروجه مهاجرا من مكة التي ولد بها وعاش في أرجائها أكثر من خمسين سنة.. ما كان يعاينه ﷺ من الإيذاء من أجل كل صحابي أُخرج من بلده وهاجر من أرضه دون ذنب أو جريرة إلا أنه رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولا!! وصدق القائل:

وَأَقْتَلْ دَاءَ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ ظَالِمًا ❁❁❁ يُسِيئُ وَيَتَلَى حَمْدُهُ فِي الْمَحَافِلِ

### طَلَانُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَانِلَهُمْ

ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق: أن أبا سلمة بن عبد الأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة، فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة (٢١١).

وفي صحيح البخارى، عن البراء بن عازب قال: **أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُفْرِتَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلَالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَارٌ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عَشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الْإِمَاءُ يَقْلَنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فِي سُورِ مِنَ الْمَفْصَلِ (٢١٢).**

والمعنى أن البراء قد حفظ قصار السور، ثم توجه باقى الصحابة شيئا فشيئا، وخرج من بقى من المسلمين مهاجرين إلى النبي ﷺ في المدينة المنورة، وكان المشركون يمنعون من قدروا على منعه منهم، فكان أكثرهم يخرج سرا، حتى لم يبق بمكة إلا من غلب على أمره من المستضعفين.

(٢١١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٨/١ من طريق ابن إسحاق بدون إسناد، وابن حجر: فتح الباري ٢٦١/٧ لذلك قالت أم سلمة رضي الله عنها: إن أبا سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. صحيح مسلم: كتاب الجنازات/ باب ما يقال عند المصيبة ٦٣٢/٢.

(٢١٢) صحيح البخارى ٢٥٩/٧، ٢٦٠ ح ٣٩٢٥.

## مُحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِإِعَاقَةِ الْهَجْرَةِ

سعت قريشٌ بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرةً بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرةً بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثةً بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكن شيئاً من ذلك كله لم يُعقِّم موكب الهجرة.

وذلك لأن المهاجرين كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهلهم وديارهم، والتضحية بالنفس والنفيس طلباً لرضوان الله جَلَّ جَلَالُهُ، وفي النهاج التالية شرحٌ لذاك الإجمال:

## بَيْتُ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ

قالت أم المؤمنين أم سلمة (٢١٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بِعِيرِهِ، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِيَ ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بِعِيرِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُعِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْرُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبَتْنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتِكَ هَذِهِ عَلَامٌ تَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَتَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِي، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا تَتْرُكُ ابْنَتَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، قَالَتْ: فَتَجَادَبُوا ابْنِي سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُعِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَأَنْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَمَا أَرَأَى أَنْ أَبْكِي حَتَّى

(٢١٣) مشهورة بكنتيتها، واسمها: هند بنت أبي أمية، هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ولما مات زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد تزوجها رسول الله ﷺ، ينظر: الإصابة لابن حجر ١٥٠/٨، وقد ذكر الواقدي أن عمرها كان عند وفاتها أربعاً وثمانين سنة، وبينت الروايات الصحيحة أنها كانت موجودة في أيام ثورة ابن الزبير على يزيد بن معاوية، فقد توفيت بعد سنة ٦١ من الهجرة، وبذلك يكون عمرها عند الهجرة ٢٣ سنة، وعند زواجها بالنبي ﷺ ٢٧ سنة، والله أعلم.



أَمْسَى، سَنَةً أَوْ قَرِيْبًا مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَمِّي - أَحَدُ بَنِي الْمُعِيرَةِ - فَرَأَى مَا بِي فَرَحَمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي الْمُعِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمُسْكِينَةَ، فَرَقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكَ إِنْ شِئْتَ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بِبَعِيرِي ثُمَّ أَحَدْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبْلُغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدِمَ عَلَيَّ زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: أَوْ مَا مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا اللَّهُ وَبَنِي هَذَا، قَالَ: وَاللَّهِ مَا لَكَ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِحِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يَهْوِي بِي، فَوَاللَّهِ مَا صَحَبْتُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ قَطُّ، أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ الْمُنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِيَعِيرِي، فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِّي إِلَى شَجَرَةٍ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَّاحُ، قَامَ إِلَيَّ بِيَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكَبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَيَّ بِيَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِحِطَامِهِ، فَقَادَهُ، حَتَّى يَنْزِلَ بِي. فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، قَالَ: زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ - وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا - فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَتِ اللَّهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ.

قَالَ: فَكَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ (٢١٤).

(٢١٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٦٩، ٤٧٠ من رواية ابن إسحاق بإسنادٍ صالحٍ للاعتبار، فيه سلمة بن عبد الله بن أبي سلمة، وثقه ابن حبان، ولم يخالفه فيه أحدٌ بعده؛ بل قال الحافظ ابن حجر عنه: مقبول، ولم أجد له متابعًا، وعلى أية حال: فحديثه حسن، وقد ورد من طريقٍ صالحةٍ لإثبات الحدوث تاريخيًا. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري ٤/٨٠، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/١٦٦، والثقات لابن حبان ٦/٣٩٩، وتهذيب التهذيب ٤/١٤٨، ١٤٩، وتقريب التهذيب

وقد سُقتُ الخبر بطوله لما فيه من دلالةٍ على الصعوبات التي واجهها المهاجرون، وهي تشيرُ إلى أثر العصبية في اتخاذ العشائر القرشية مواقفها من الأحداث، فقد انحاز قومُ أبي سلمة إليه على الرغم من مخالفتهم له في العقيدة.

ثم إن الخبر يكشف عن صورةٍ من صور المروءة التي عرفها المجتمعُ القرشيُّ قبل الإسلام تتمثلُ في موقف عثمانَ بنِ طلحةَ بنِ أبي طلحة العبدري، حاجب البيت الحرام، وذلك جليُّ في تطوعه لمصاحبة أم سلمة وإحسانِ رُفقتها في تلك الرحلة الشاقة الطويلة، حيث كان ماشياً يقود لها بعيرها الذي تركبه هي وابنها؛ مما يدل على سلامةِ الفطرة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية في أول العام الثامن من الهجرة، إذ توجه مهاجراً من مكة إلى رسول الله ﷺ في المدينة، وقد التقى به في الطريق: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، فأسلموا جميعاً، ثم شهدوا فتح مكة، وأعطى النبي ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة؛ فلعل إشراق نور الإسلام في قلبه بدأ منذ هذه الرحلة مع المرأة المسلمة.

### أَوَّلُ مَنْ فَتَحَهُ الْأَنْصَارَ: مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ بعث مع الاثنى عشر رجلاً مصعب بن عمير العبدري، وقيل بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليفقههم ويقرئهم، فنزل على أسعد بن زرارة، وللدارقطني من حديث ابن عباس، أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم، فأسلم خلقٌ كثيرٌ من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زرارة حتى فشا الإسلامُ بالمدينة، فكان ذلك سبب رحلتهم في السنة المقبلة حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلماً وزيادة، فبايعوا وحظوا بلقاء

رسول الله ﷺ وروى أبو داود من طريق عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: كان أبي إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة، فسألته، فقال: كان أول من جمع بنا بالمدينة. ولقد كان مصعب بن عمير أحد السابقين، أسلم قديماً والنبي ﷺ في دار الأرقم وكنم إسلامه خوفاً من أمه، فعلم بإسلامه عثمان بن طلحة فأخبر أهله بإسلامه فأوثقوه، فلم يزل محبوباً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى ثم رجع إلى مكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، ثم شهد أحدًا، وكان معه لواء المسلمين يومئذٍ إلى أن استشهد بها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وفي الفردوس الأعلى أسكنه وآواه.

أخرج الترمذي وحسنه من حديث علي بن أبي طالب قال: إِنَّا جَلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، إِذْ طَلَعَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَكَى لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةً، وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بِيُوتِكُمْ كَمَا تُسْتَرُّ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ، وَنُكْفَى الْمُؤَنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ» (٢١٥).

فرحم الله مصعب بن عمير ورضي عنه حيث كان من السابقين الذين هاجروا الهجرتين وشهد بدرًا واستشهد بأحد.

(٢١٥) ينظر في ترجمة مصعب: كتاب الإصابة ٦/٩٨، وفي مناقبه يراجع؛ صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة أحد ٧/٣٥٣ ح ٤٠٤٥، وياقوت: من قُتل من المسلمين يوم أحد ٧/٣٧٥ ح ٤٠٨٢، وجامع الترمذي: كتاب صفة القيامة/ باب ٣٥ ج ٢ ص ٥٥٨ ح ٢٤٧٦، وكتاب المناقب/ باب في مناقب مصعب بن عمير ٥/٦٤٩ ح ٣٨٥٣، وانظر ما سيأتي بعد الهامش رقم ٢٨٣.

## تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي هِجْرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

وهذا عمر بن الخطاب يهاجر سرًا مستخفياً آخذاً بالأسباب وفق سنن الله الجارية، فيتفق مع غيره من المسلمين المستضعفين بمكة على موعدٍ يجتمعون فيه محدد الزمان والمكان، فإذا تأخر عنه أحدهم فليمض الباقيون دون أن ينتظروه حتى لا يكشف أمرهم، وهذه هي القصة مرويةً بسندٍ حسن لذاته؛ بل صححها غير واحدٍ من الأئمة، والذي يُحَدِّثُ بها هو عمر بن الخطاب نفسه، فيقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اتَّعَدْتُ - يعني: ضرب مع غيره موعدًا يلتقون فيه - لَمَّا أَرَدْنَا الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَهَشَامُ بْنُ الْعَاصِي بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ التَّنَاضِبِ مِنْ أَصَاةِ بَنِي غِفَارٍ، فَوْقَ سَرِفٍ، وَقُلْنَا: أَيُّنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُسِبَ فَلَيْمِضْ صَاحِبَاهُ، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضِبِ، وَحُسِبَ عَنَّا هَشَامٌ، وَفَتِنَ فَاغْتَنَنَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هَشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هَشَامٍ إِلَى عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ ابْنُ عَمَّهُمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمَّهُمَا، حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَكَلَّمَاهُ وَقَالَ: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّى تَرَكَ، وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَكَ، فَرَقَّ لَهَا، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَيَّاشُ، إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يُرِيدَكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دِينِكَ فَاحْذَرُهُمْ، فَوَاللَّهِ لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمَلُ لَأَمْتَشَطْتُ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَأَسْتَظَلَّتْ. قَالَ: فَقَالَ: أَبْرُ فَسَمَّ أُمِّي، وَبِي هُنَالِكَ مَالٌ فَاحْذُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَيَّ لِمَنْ أَكْثَرَ قُرَيْشٍ مَالًا، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. قَالَ: فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا، فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيَّةٌ ذَلُولٌ، فَالزَّمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبٌ، فَانْجِعْ عَلَيْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَبْغِضُ الطَّرِيقَ، قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَا بَنَ أَخِي، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَغْلَطْتُ بِعَيْرِي هَذَا، أَفَلَا تُعْفِينِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَنَاحَ،

وَأَنَا خَالِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَوْا عَلَيْهِ، فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ، ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ، وَفَتَنَاهُ فَافْتِنَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ آلِ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ: أَنَّهَا حِينَ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ دَخَلَا بِهِ نَهَارًا مُوثِقًا، ثُمَّ قَالَا: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، هَكَذَا فافعلُوا بِسُفَهَائِكُمْ، كَمَا فَعَلْنَا بِسُفَهِينَا هَذَا (٢١٦).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ فِي حَدِيثِهِ، قَالَ: فَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِمَّنْ أَفْتِنَ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءِ أَصَابِهِمْ! قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ، وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿قُلْ يَبْعَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٢١٧﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢١٨﴾ [الزمر].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي فِي صَحِيفَةٍ، وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِي: فَلَمَّا أَتَانِي جَعَلْتُ أَقْرُؤُهَا بِذِي طُوًى -وَادِ بِمَكَّةَ-، أَصْعَدْتُ بِهَا فِيهِ وَأَصُوبٌ وَلَا أَفْهَمُهَا، حَتَّى قُلْتُ: اللَّهُمَّ فَهَمِّنِيهَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلَتْ فِيْنَا، وَفِيْنَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيُقَالُ فِيْنَا. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي، فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ (٢١٧).

(٢١٦) هذه الجزئية من قول ابن إسحاق لما في إسناده من جهالة: بَعْضُ آلِ عِيَّاشِ.

(٢١٧) السيرة النبوية لابن هشام ٤٧٤/١ بإسناد حسن لذاته، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث، ومن طريق ابن

إسحاق: أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٣٥/٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال

وأما ما روى من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به: بشكل أمه، وتيئيم ولده، وترميل زوجه... فلم يصح، وإن تناقله بعض كُتّاب السير القدامى والمعاصرين<sup>(٢١٨)</sup>، والذي صح عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في استخفائه بهجرته: هو الموافق للعقل والنقل، فما كان عمر ليغتر بقوته وشجاعته ويفتح بذلك ثغرة يدخل منها الأعداء لحرب أولياء الله، وقد ورد في الحديث المتفق عليه قول رسول الله ﷺ: «لَا تَتَمَنَّا لِقَاءَ الْعَدُوِّ...».

وقد استقر كثيرٌ من المهاجرين في قباء في مكان يسمى: العُصْبَة، قبل مَقْدَمِ رسولِ الله ﷺ، وكان سالم بن معقل مولى أبي حذيفة يؤمهم في مسجد قباء، لكونه أكثرهم قرآنًا<sup>(٢١٩)</sup>. ثم تتابع المهاجرون إرسالاً إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

### هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ

ولما انقضى موسم الحج في شهر ذى الحجة من العام الثالث عشر للبعثة، وبايع النبي ﷺ الأنصار البيعة الأخيرة عند العقبة في أوسط أيام التشريق: اعتزم رسول الله ﷺ أن يهاجر، ويلحق بالمسلمين في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومما ينبغي أن نعلمه أيضًا: أن رسول الله

الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٦/٦١، وانظر روايات أخرى للواقدي نقلها ابن سعد، وكأنها اختصار لمن ابن إسحاق، وفيها: وكنا إنما نخرج سرًا. الطبقات الكبرى ٣/٢٧١.

(٢١٨) الخبر أورده ابن الأثير بإسنادٍ فيه مجاهيل ثلاثة. أسد الغابة ٤/١٥٢، ١٥٣ ط الشعب، القاهرة، وشرح المواهب اللدنية ١/٣١٩، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٣/٣١٥، ٣١٦ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، كلهم بإسنادٍ فيه مجاهيل ثلاثة، ومن عجبٍ: أنهم ذكروا أيضًا القصة الصحيحة التي رواها عمر بنفسه، ولكن دون تمحيص. ينظر: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص ١٤٣ للشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، والسيرة النبوية الصحيحة ٢٠٤، ٢٠٥، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢١٩) الحديث في صحيح البخارى: عن عبدالله بن عمر ٢/١٨٤ ح ٦٩٢، ١٣/١٦٧ ح ٧١٧٥.

ﷺ كان يقدم المثل الذي يطيقه عامة الناس، وذلك واضح في الكثير من شأنه ﷺ، حيث كان ﷺ يقدم الضعفاء ويكرمهم، ويلازم المتواضعين والمخبتين ويُجلُّهم، كما أمره الله عز وجل في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

وهو ﷺ القائل في صحيح الحديث عنه: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ» وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال: «ابْغُونِي الضُّعْفَاءَ: فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضِعْفَائِكُمْ» (٢٢٠).

وقد سبق أن علمنا: أن جهره ﷺ بالدعوة، واستخفاه بها كان من باب التلوين في الدعوة، والتنوع في أساليبها، وسلوك كل سبيل تؤدي إليها، كما قال سُبحَانَهُ في شأن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِبُعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا ﴿٣﴾ أَسْتَكْبَرُوا ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح].

ومن ثم: تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة؛ حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة، كما هاجر ﷺ مستخفياً ليضرب المثل للمستضعفين من المؤمنين، وقد مر قريباً تحت عنوان: «تناصح المهاجرين وتعاونهم في هجرة عمر بن الخطاب» أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هاجر مستخفياً مع عشرين من أصحاب النبي ﷺ كسائر من سبقوهم في الهجرة، وليس كما هو شائع بين الذين لا يدققون في توثيق الأخبار وتحقيق النصوص حيث يزعمون أن عمر هاجر علانية متوعداً لقومه ومتحدياً لهم!

(٢٢٠) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ٨٨/٦ ح ٢٨٩٦، وفي سنن أبى داود: كتاب الجهاد/ باب الانتصار برذل الخيل والضعفة ٧٣/٣ ح ٢٥٩٤.

## يَوْمُ الْهَجْرَةِ

إن وقائع يوم الهجرة ليست بأقل خطراً ولا إعجازاً من أحداث ليلة الهجرة، فقد أخرج الإمام أحمد من طريقين، رجالهما رجال الصحيح، من حديث: عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إِنَّ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاقَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ: لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا، لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ نَفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتْ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيْبَهُ مِنْ دِمِكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بَيْتِي أَرَيْنِي وَضُوءًا» فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقَرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَقَالَ ﷺ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا، فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حَصَاةً إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا. الحديث صححه ابن حبان والحاكم (٢٢١).

وله طريقٌ أخرى: عن ابن عباس، عن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: اجتمع مشركو قريش في الحجر، فقال رسول الله ﷺ: «يَا بَيْتِي اسْكُنِي» ثم خرج ﷺ فدخل عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسهم ثم نُكِسُوا، فأخذ ﷺ قبضةً من ترابٍ فرمى بها نحوهم، ثم قال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» فما أصاب رجلاً منهم إلا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ. صححها الحاكم (٢٢٢).

(٢٢١) مسند الإمام أحمد ٣٠٣/١ ح ٢٧٦٢ (واللفظ له) وفي ٣٦٨/١ ح ٣٤٨٥، وموارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٤٠٩، ٤١٠ ح ١٦٩١، والمستدرک: کتاب الطهارة ١٦٣/١ ح ٥٨٣، ودلائل النبوة لليهقي ٢٤٠/٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٨/٨ وقال: رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٢٢٢) هذه الرواية: صححها الحاكم، في: المستدرک ١٥٧/٣ ح ٤٧٤٢.



وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقص علينا وقائع الهجرة في حديثها الطويل الذي تقدم  
 شيء منه تحت عنوان: «الطرد من الوطن كفصل الروح عن البدن» فنقول فيه: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوِيَّ  
 قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفِي النَّهَارِ: بُكْرَةً  
 وَعَشِيَّةً...» إلى أن قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في ذلك الحديث: وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ  
 لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أَرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابِتَيْنِ» وَهُمَا الْحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قَبْلَ  
 الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةٌ مَنْ كَانَ هَاجِرًا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قَبْلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤَدَّنَ لِي» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرَجُّو ذَلِكَ بِأَبِي  
 أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا  
 عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ، وَهُوَ: الْحَبْطُ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ  
 الظَّهِيرَةِ؛ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَمَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو  
 بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ! قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ  
 أَهْلُكَ! بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي  
 أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى  
 رَاحِلَتِي هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالْثَمَنِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحْتَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا  
 لَهُمَا سُفْرَةَ فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ،  
 فَبَدَلَكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمْنَا  
 فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقْفٌ لَعْنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا  
 بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كِبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ  
 ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرَعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيهِمَا

عَلَيْهَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَسْتَانِ فِي رِسْلِ، وَهُوَ: لَبْنٌ مَنْحَتِيهَا وَرَضِيْفِيهَا - أَى: الَّذِي وَضَعَتْ فِيهِ الْحَجَارَةَ الْمُحَمَّاةَ بِالشَّمْسِ أَوْ النَّارِ لِيَنْعَقِدَ وَتَزُولَ رِخَاوَتُهُ، فَيَصِيرُ عَلَى هَيْئَةِ الْجَبْنِ - حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِنْغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خَرِيْتًا، وَالْحَرِيْتُ: الْمَاهِرُ بِالْهُدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهَا، وَوَاعَدَاهُ عَارَ نَوْرِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهَا صُبْحَ ثَلَاثِ، وَأَنْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّيْلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَا حِلِّ (٢٢٣).

فهذا الحديث يُستفاد منه: أنه ﷺ كان يتردد على بيت أبي بكر كل يوم في الصباح وفي المساء، لا يكاد يدع ذلك، ومن ثمَّ ترجم له البخاري في كتاب الأدب بقوله: «بَابُ: هَلْ يُزْوَرُ صَاحِبُهُ كُلُّ يَوْمٍ، أَوْ بُكْرَةٌ وَعَشِيًّا».

فلما أُذِنَ لَهُ ﷺ بِالْهَجْرَةِ جَاءَ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي وَقْتِ الظُّهْرِ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ، فَأَخْبَرَ أَبَا بَكْرٍ بِذَلِكَ، وَاخْتَارَهُ ﷺ وَقْتِ الظُّهْرِ: لِأَنَّ النَّاسَ تَأْوَى إِلَى بُيُوتِهِمَا لِلْقِيلُولَةِ فِرَارًا مِنَ الْحَرِّ، وَتَقَنُّعُهُ ﷺ يَفِيدُ شَعُورَهُ بِالْخَطَرِ مِنْ حَوْلِهِ، فَقَدْ اعْتَزَمَتْ قُرَيْشُ قَتْلَهُ، وَلَا بَدَّ أَنَّهَا سَتَعْمَدُ إِلَى رِصْدِ تَحْرِكِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٢٤﴾ [الأنفال]﴾.

(٢٢٣) هذا لفظ البخاري، في: كتاب مناقب الأنصار/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٢٣٠/٧: ٢٣٢ ح ٣٩٠٥، وأما عبد الله بن أريقط الديلي: فلم يذكره أحدٌ في الصحابة سوى الحافظ الذهبي، حيث ذكره في كتابه: «تجريد أسماء الصحابة» ١/٢٩٦ رقم: ٣١٣٢ ط دار المعرفة، بيروت، وينظر: الإصابة ٥/٤، و٢٤: ٢٦ فلعلهم أغفلوه لأنه لا رواية له، والحمد لله الذي أكرمه بالاسلام والصحة لرسول الله ﷺ.

(٢٢٤) ينظر: فتح الباري ٧/٢٣٢: ٢٣٨ في شرح الحديث المتقدم.

## لَيْلَةُ الْهَجْرَةِ

كان رسول الله ﷺ يعتصم بكلام ربه دائماً، وكثيراً ما كان يقرؤه ليستخفى به عن أعين المشركين، أخرج البزار بسند حسن، وصححه ابن حبان - واللفظ له - من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يارسول الله إنها امرأة بذيئة، وأخاف أن تؤذيك، فلو قمت - يعنى: حتى لا ينالك أذاها- قال ﷺ: «إنها لن ترانى» فجاءت فقالت: يا أبا بكر! إن صاحبك هجانى، قال: لا، وما يقول الشعر، قالت: أنت عندي مُصدِّق، وانصرفت، فقلت: يارسول الله! لم ترك؟ قال ﷺ: «..لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ يَسْتُرُنِي مِنْهَا بِجَنَاحَيْهِ» (٢٢٥).

فاستخفاؤه ﷺ عن أعين أعدائه بقراءته للقرآن مخافة كيدهم له، أو فتكهم به: ثابت بصريح القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء].

ومعلوم أنه ﷺ لا يغفل عن ذكره لربه، ولا يفتر عن تلاوته لكلام خالقه، وهو سبحانه الذى أنزل عليه فى مكة: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

وهذه رواية أخرى تعددت مخارجها تثبت ما وقع من ذلك فى ليلة الهجرة: فى رواية ابن إسحاق قائلاً: فحدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظى، قال: لما اجتمعوا له، وفيهم

(٢٢٥) مختصر زوائد البزار ١/٢، ١٢٢، ١٥٣٩، وكشف الأستار ح ٢٢٩٤، وحسنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٨/٧٣٨، ولفظه من: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٥١٦ ح ٢١٠٣، وقد سبق له شاهد من حديث أسماء بنت أبى بكر فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان: «مَا لَفِيَهُ الْمِصْطَفَى ﷺ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَحِمَاةِ اللَّهِ لَهُ» ص ٢٤١ عند الهامش رقم ٣٦٧.

أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره: كتتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنن كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها، قال وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل يثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من صدر سورة يس: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾.

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم أت من لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خييكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟! قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام على رُؤسِهم عن الفرائض فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا (٢٢٦).

(٢٢٦) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٣/١ بسند صحيح، من طريق: ابن إسحاق إلى محمد بن كعب القرظي، لكنه مرسل، ورواه ابن جرير: تاريخ الطبری ٣٧٢/٢، ٣٧٣، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص ١٥٩، ١٦٠، والبيهقي في دلائل النبوة

وقد بين ابن عباس حصار المشركين لبيت رسول الله ﷺ ابتغاء قتله، ومبيت عليّ على فراشه، ولحاقه ﷺ بالغار.  
ولما علم المشركون ذلك في الصباح اقتصوا أثره إلى الغار فأرأوا على بابه نسيج العنكبوت (٢٢٧) فتركوه.

وهي رواية حسنها كثيرون من الحفاظ، وليس هناك ما يدفعها من عقلٍ أو نقلٍ؛ بل على العكس من ذلك: تؤيدها الآيات القرآنية الكثيرة: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب وفق سنن الله الجارية، فلما انقطعت الأسباب: بقي له مددٌ كبير الوهاب، فصنع له ربه ما لم يخطر له على بال.  
ومما يدل على أخذه ﷺ بالأسباب: أنه كان دائماً يبدأ بالإمكانات المتاحة، ويبدل قصارى جهده ما أمكنه ذلك، فإنه ﷺ لم يختر عند هجرته مكاناً تجاه المدينة في شمال مكة من أعلاها؛ بل

---

٤٦٩/٢، ٤٧٠ ثم قال: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا، وهو شاهد آخر رواه ثقات، لكنه مرسل أيضاً، أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١١٢/٢ ح ٢٤١٥: عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن...، فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً سَدًّا هُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [س]، فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو...؟ لا يبصره!! وينظر: الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٤٣/٧ ط دار الفكر، بيروت ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م.  
(٢٢٧) مسند الإمام أحمد ٣٤٨/١ بإسناد ضعيف، لكنه صالح للاعتبار، وقد حسنه ابن كثير في البداية والنهاية ١٧٩/٣ وقال: وهو أجود ما روى في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار، وحسنه ابن حجر في الفتح ٢٣٦/٧، وحسنه الزرقاني في شرح المواهب ٣٢٣/١ وفي السند: عثمان بن عمرو بن ساج الجزري، فيه ضعف، ووثقه ابن حبان، فحديثه صالح للاعتبار، ينظر: تهذيب التهذيب ١٤٥/٧، وتقريب التهذيب ٣٨٦.

اختار أقصى جبل جنوب مكة من أسفلها، وحدد غارًا يكمن فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع طالبوه، وهذا الغار إذا حاول أحد الآن الصعود إليه فإنه يأخذ من الشباب المشتد في سيره أكثر من ثمانين دقيقة حتى يصل إلى الغار، فضلاً عن بضعة كيلو مترات يبعد بها الجبل عن المسجد الحرام؛ بل لقد تواعد رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق أن يتقابلا عند مكان يسمى: بئر ميمون في طريق منى، ثم ركبا منه إلى الغار في الجهة المقابلة جنوب مكة، وقد ورد هذا في حديث طويل، حسن الإسناد، أخرجه الإمام أحمد، يفيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته، حيث حاصره المشركون يريدون قتله، فلبس عليّ رضي الله عنه ثوبه ونام مكان النبي ﷺ، واخترق رسول الله ﷺ حصار المشركين لبيته دون أن يروه، بعد أن أوصى علياً بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به، فيقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ نَائِمًا، وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ. قَالَ: فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ انْطَلَقَ نَحْوَ بئر مَيْمُونٍ، فَأَذْرِكُهُ، قَالَ: فَاَنْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ فَدَخَلَ مَعَهُ الْغَارَ، قَالَ: وَجَعَلَ عَلِيٌّ يُرْمِي بِالْحِجَارَةِ، كَمَا كَانَ يُرْمِي نَبِيَّ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَّصِرُ، قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ فِي الثُّوبِ لَا يُخْرِجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لِلنَّبِيِّمُ! كَانَ صَاحِبِكَ نَزْمِيهِ فَلَا يَتَّصِرُ، وَأَنْتَ تَتَّصِرُ، وَقَدْ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ (٢٢٨).

كما سجل جلّ جلاله مناجاة نبيه ﷺ لرفيقه أبي بكر رضي الله عنه في القرآن المجيد بقوله:

﴿ثَانِيًا أَتَيْنِي إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(٢٢٨) مسند الإمام أحمد ١/٣٣١ ح ٣٠٦٢ وقد صححه الشيخ أحمد محمد شاكر، من حديث ابن عباس بإسناد حسن، وفي سنده؛ أبو بلج: صدوق، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، غير أبي بلج الفزاري، وهو: ثقة وفيه لين. مجمع الزوائد ٩/١١٩، ١٢٠، وقال ابن حجر: أبو بلج صدوق ربا أخطأ. تقريب التهذيب ٦٢٥. وقد انفرد بهذا الحديث وقد قال ابن حبان: أرى ألا يحتج بها انفرد به من الرواية. المجروحين ٣/١١٢.

وهذا الذى وقع للنبي ﷺ قد أكرم الله سبحانه وتعالى به آحاد الأمة وأفرادها - بعد نبينا - الذين أيقنوا بالله وأخلصوا له، قال الإمام القرطبي المتوفى عام ٦٧١ من الهجرة: ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحصنٍ مشور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك: أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج فى طلبى فارسان، وأنا فى فضاءٍ من الأرض قاعدٌ ليس يسترنى عنهما شىءٌ، وأنا أقرأ أول سورة يس، وغير ذلك من القرآن، فعبراً علىّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون شيطاناً - وكلمة: دِيَابِل بالفرنسية تعنى: جنّاً أو شيطاناً - وأعمى الله سبحانه وتعالى أبصارهم فلم يرونى، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.

ونقل الإمام القرطبي، عن كعب الأخبار رضي الله عنه: أنه ذكر آيات كان النبي ﷺ يستتر بها من المشركين ثم قال: فحدثت بهم رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهم، فصاروا يكونون معه على طريقه، ولا يبصرونه، قال الثعلبي: وهذا الذى يروونه عن كعب حدثت به رجلاً من أهل الرّي فأسّر بالديلم، فمكث زماناً، ثم خرج هارباً فخرجوا فى طلبه، فقرأ بهم؛ حتى جعلت ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه (٢٢٩).

وهذا بلا شك يحصل لكل من استنفذ الأسباب التى يقدر عليها، وصدق فى التجائه لربه، وأحسن فى توكله عليه، كما قال عز فى علاه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢١٩﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢٢١﴾﴾ [الطلاق].

وقد حمل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تلك الليلة ثروته ليضعها تحت تصرف رسول الله ﷺ، قال ابنُ إسحاق: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَبَاهُ عَبَّادًا حَدَّثَهُ عَنْ جَدَّتِهِ أَسْمَاءِ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ، اخْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ، وَمَعَهُ مِائَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةُ آلَافٍ، فَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصْرُهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُم بِإِلَهِ مَعَ نَفْسِهِ. قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَتِ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَتْ: فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةِ فِي الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ، قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ؛ إِذَا كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفِي هَذَا بَلَاغٌ لَكُمْ. قَالَتْ أَسْمَاءُ: لَا وَاللَّهِ! مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَسْكُنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ (٢٣٠).

والقدر الذي حمله معه أبو بكر من ماله يساوي نصف الدية الشرعية، وهي ستة آلاف درهم ووزنها في أيامنا من الفضة ٢٣٤٠٠ جرامًا عيار ٨٠، ومن الذهب ٢٤٥٠ جرامًا عيار ٢١.

وروى أن المُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَذَهَبُوا لِيُطْلِبُوهُ عَلَى بَابِ أَبِي بَكْرٍ وَفِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهَا: أَيْنَ أَبُوكَ؟ فَقَالَتْ: لَا أَدْرِي، فَرَفَعَ أَبُو جَهْلٍ يَدَهُ وَكَانَ فَاحِشًا خَبِيثًا فَلَطَمَ خَدَهَا لَطْمَةً خَرَجَ مِنْهَا قُرْطُهَا وَسَقَطَ، ثُمَّ انصرفوا (٢٣١).

(٢٣٠) السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٨/١ بإسناد حسن، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک ٥/٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٤٨٠/٢ بإسناد فيه انقطاع بين: يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، وبين أسماء، ولكن يحيى أخذ الخبر عن أبيه عباد فهو الذي يروي عن جدته أسماء، ومن ثم: فإن السند حسن، والله أعلم.

(٢٣١) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس لحسين بن محمد الديار بكرى المتوفى ٩٦٦هـ ٣٢٨/١، وكتاب: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبد الملك بن حسين العصامي المكي المتوفى ١١١١هـ - تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض ٣٤٩/١.



ويقال: إن أبا جهل قال لرفقائه: اكنموا عنى هذا الفعل حتى لا أفصح بين العرب. ففى أى الدركات تصنف قبائح المعاصرين فى حق النساء!!؟

وكان خروج رسول الله ﷺ بِصُحْبَةِ أبى بكر إلى غار ثور جنوب مكة فى سحر ليلة الخميس فكَمْنَا فيه ثلاث ليال بأيامها كاملة، بدأت بليلة الجمعة وانتهت بأخر يوم الأحد، وقريش تطاردهما سحابة النهار، وتبحث عنهما، وتقنفي آثارهما... حتى انتهوا إلى باب الغار ووقفوا عليه؛ ولكن حال الله بينهم وبين الوصول إلى الرسول ﷺ وصاحبه.

ثم لما وقف المشركون على فم الغار الذى بداخله رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، لم يجترئ أحدٌ منهم على الدخول فى الغار ليستبرئه ويقطع الشك باليقين؛ حتى قال أحد المعاصرين الغربيين: لم أجد أغبى من أهل مكة؛ إذ وقفوا عند باب الغار ومحمد بداخله، فلم يدخل أحد منهم الغار ليفتشه بعد هذا العناء الطويل. لكن هذا الكافر لم يفقه أن الغباء جند من جنود الله القائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

أما رسول الله ﷺ فقد كان فى معية الله یرتل كلامه؛ ليستخفى به عن أعين المشركين، كما كان يفعل ﷺ ذلك من قبل.

وأما الصديق فقد كان قلقاً لا یقر له قرار، من شدة خوفه على رسول الله ﷺ لاسيما بعد رؤيته لأقدام المشركين عند باب الغار، فيقول: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَاطَأَ بَصْرَهُ رَأَانَا، قَالَ ﷺ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ! اثْنَانِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا» (٢٣٢).

وإلى هذا اليقين والتوكل الكامل تشير الآية: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا<sup>ط</sup> فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى<sup>ط</sup> وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا<sup>ط</sup> وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿التوبة﴾.

وقد ورد حديثٌ سنده ضعيفٌ جداً، يفيد: أن الرسول ﷺ لما بات في غار ثور أمر الله شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين فوقعتا بغم الغار، وأن ذلك كان سبب صدود المشركين عن دخول الغار واستبرائه من داخله، ومثل هذه الأساطير كثيراً ما تسربت إلى العديد من كتب السيرة.

وما أحسن ما عقب به الحافظ ابن كثير على حديث أنس الصحيح المتقدم الذي قال فيه أبو بكر الصديق: «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا...» حيث قال: «وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي ﷺ: «لو جاءونا من ههنا لذهبنا من هنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه. وليس هذا بمنكر من حيث القدرة العظيمة، ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوى ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا؛ ولكن ما صح أو حسن سنده قلنا به، والله أعلم» (٢٣٣).

(٢٣٣) أخرجه ابن سعد: ١/٢٢٩ وفي سنده؛ أبو مصعب المكي: مجهول، وعوين بن عمرو: منكر الحديث، وسماه: (عون) وأخرجه البزار ٢/٩٠ ح ١٣٤٠ مختصر زوائد البزار، وانظر: كشف الأستار ٢/٢٩٩، ٣٠٠ وفي إسناده: عوين بن عمرو، وهو منكر الحديث، لا شيء، وقد تفرد به، وشيخه؛ أبو مصعب: مجهول، والحديث في المعجم الكبير للطبراني ٢٠/٤٤٣، ودلائل النبوة لأبي نعيم ٦/٢٦٩، ٢٧٠، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢١٣، ٢١٤، والبداية والنهاية لابن كثير

قال الشيخ محمد سالم البيحاني في أرجوزته:

قَدْ شَرَحَ اللَّهُ تَعَالَى صَدْرَهُ ❀❀ وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالْجِرَّةِ  
 فَأَخْبَرَ الصِّدِّيقَ وَاسْتَعَدَّ ❀❀ بِنَاقَتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ جِدًّا  
 سَلَّمَتَا إِلَى الدَّلِيلِ الدِّيَلِي ❀❀ وَهُوَ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ  
 وَقَرَّرَتْ فَرِيشٌ أَنْ تَمْنَعَهُ ❀❀ مِنْ الْخُرُوجِ أَوْ تَرَى مَصْرَعَهُ  
 وَلَمْ يَخَافُوا مِنْ عِقَابِ رَبِّهِمْ ❀❀ بَلْ مَكْرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ بِهِمْ  
 وَمَرَّ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ ❀❀ خُرُوجَهُ لَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ  
 وَاسْتَخْلَفَ الْقَوِيَّ فِي فِرَاشِهِ ❀❀ مَنِ كَعَلِيٍّ فِي ثَبَاتِ جَاشِهِ (\*)  
 وَاخْتَبَأَ الصِّدِّيقُ وَالتَّيْبِيُّ ❀❀ فِي غَارِ ثَوْرٍ وَغَدَى التَّيْبِيُّ  
 يَقُولُ كَادَ الْقَوْمُ أَنْ يَرُونَا ❀❀ لَوْ طَاطَأُوا الرُّؤُوسَ وَالْعُيُونَا  
 وَالْمُصْطَفَى يَقُولُ نَحْنُ اثْنَانِ ❀❀ نَالِثْنَا مُنْزِلُ الْقُرْآنِ  
 وَأَصْلَحَتْ زَادَهُمْ أَسْمَاءُ ❀❀ ذَاتُ النِّطَاقِينَ كَمَا تَشَاءُ  
 وَأَنْطَلَقُوا بَعْدَ ثَلَاثٍ مَعَهُمْ ❀❀ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ يَنْفَعُهُمْ  
 وَابْنُ أُرَيْقِطٍ هُوَ الدَّلِيلُ ❀❀ وَامْتَلَأَتْ بِالرَّصَدِ السَّبِيلُ  
 قَدْ جَعَلُوا دَيْتَهُ لِمَنْ أَتَى ❀❀ بِهِ أَسِيرًا أَوْ قَتِيلًا أَوْ مَيْتَا  
 وَلَسْرَاقَةَ حَدِيثٍ يُعْرِفُ ❀❀ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمُنْصِفُ

١٨١/٣ وقال: غريب جداً من هذا الوجه، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ١/٣٣١، وسبل الهدى والرشاد ٣/٣٣٩،

٣٤٠، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أنه لا يصح حديث في العنكبوت والحمامتين: سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/٣٣٩،

وينظر التعقيب الأخير للمحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٨٢.

(\*) في أرجوزته: (الوصي)، وهذا يشير إلى أنه زیدی غير مغالٍ في تشييعه كما كان من قبله الإمام الشوكاني، والله أعلم.

## استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ بالمدينة

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ بقاء أيامًا قلائل: خرج إلى المدينة، فروى البخارى أن ابن شهاب قال: فأخبرني عروة بن الزبير: أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أطم - حصن - من أطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبصين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة (٢٣٧).

ويستفاد من هذا الحديث: أن أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدمه عليهم كانوا يخرجون إلى الحرة - وهى أرض ذات حجارة سود، كأنها أحرقت بالنار من شدة سوادها - ينتظرون مقدم رسول الله عليهم، فيظنون كذلك، حتى يردهم حر الظهيرة، يفعلون ذلك كل

يوم، فانقلبوا يوماً بعد أن طال انتظارهم، فلما أَوْأ إلى بيوتهم، أطل رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم، فأبصر رسول الله ﷺ ومن معه من بعيد، فنادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا حَظُّكُمْ الذى تنتظرون، فأسرع إلى رسول الله ﷺ أشراف بنى النجار فى المدينة، وهم أخوال جده عبدالمطلب، فجاءوا متقلدين سيوفهم معلقها على أكتافهم، استعداداً للدفاع ورمزاً للنجدة، وركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وأردف أبا بكر خلفه عليها، وملاً بنى النجار ووجهاؤهم حوله يحيطون بركبه تكريماً وتشريفاً.

وسار الركب حتى دخل المدينة، وكلُّ يريد أن يتشرف بنزول رسول الله فى داره أو بجوارها، يحاولون وقف الناقة، فيقول رسول الله ﷺ: «دعوا فإنها مأمورة» حتى وصلوا إلى بيت أبى أيوب، وفى فناء البيت بركت الناقة (٢٣٨)، فأخذ جَبَّار بن صخر ينخسها برجله لتقوم: يبغي أن تصل إلى داره، ورآه أبو أيوب، فقال: يا جبار! أعن منزلى تنخسها؟ أما الذى بعته بالحق لولا الإسلام لضربتُك بالسيف.

### بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ

المسجد النبوى الشريف، هو المسجد الثانى الذى بُنى فى المدينة بعد مسجد قباء؛ وكلاهما يصدق فيه قول الحق جل فى علاه: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة].

والمسجد النبوى كذلك، هو المسجد الثانى فى الفضل والمنزلة وكثرة الثواب للمصلين فيه والقاصدين له، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى

(٢٣٨) دار أبى أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه هى التى بناها نَبِيٌّ، وتوارثها أبناء الخبر الذى أسدى النصيحة لِنَبِيِّهِ حتى ملكها أبو أيوب وهو من نسل ذلك الخبر، والله أعلم. راجع: القصة فى الجزء الأول تحت عنوان: «خَبْرُ نَبِيِّهِ وَإِسْلَامِهِ».

ثَلَاثَةَ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى» (٢٣٩).

وفي صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان قد اعتزم بناء مسجد في المكان الذي بركت فيه ناقته، وكان يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَيْدِ رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مَرِيدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ: غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرٍ أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتَ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمُنْزِلُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ، فَسَأَوْهُمَا بِالْمَرِيدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا: لَا؛ بَلْ مَهْبَةُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هَبَةً، حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبْنَ فِي بُيَاتِهِ وَيَقُولُ:

«هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ حَيْبَرَ هَذَا أَبْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ»

وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»

فَتَمَثَّلَ بِشَعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ (٢٤٠).

ومعناه: أن رسول الله ﷺ قد اعتزم بناء المسجد، ووقع اختياره على أرض لبني النجار فيها نخل، وفيها قبور المشركين، وفيها آثار بناء محطم، وبها حُفْرٌ، وقال: «يا بني النجار، ساوموني على هذه الأرض لأشتريها فأقيم عليها مسجدًا نصلي فيه» فقالوا: لا، والله لا نأخذ لها ثمنًا، إنها هي لله تعالى.

فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بقطع النخل فقطعوه، وأمر بقبور المشركين فُنُبِشت، وجمع عظامها وتراها وغُيِّبَتْ في باطن الأرض، وأمر بآثار الهدم والحجارة فسويت ومهدت الأرض واستوت ثم بنى المسجد، فصفوا النخل حائطًا جهة القبلة، جهة المسجد الأقصى بيت المقدس بطول مائة ذراع، وبنيت جدرانها باللبن فوق أساس من الحجارة ارتفاعه ثلاثة أذرع، وجُعل

(٢٣٩) متفق عليه، وقد سبق تخريجه في هذا الجزء عند الهامش رقم: ١٧٦.

(٢٤٠) صحيح البخاري ٢٣٩/٧، ٢٤٠ ح ٣٩٠٦.

ارتفاع الجدار قامته وبسطة نحوًا من سبعة أذرع، بحيث لو رفع الرجل الطويل يده إلى أعلى أصابت السقف، وجعل طول كل ضلع مائة ذراع، فهو مربع الشكل، أي ما يقارب ١٦٠٠ مترًا مربعًا على تقدير طول الذراع ٤٠ سم، ومنهم من اعتبر طول الذراع ٥٠ سم فتقارب مساحة المسجد ٢٥٠٠ مترًا مربعًا.

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب: باب في مؤخرة المسجد من جهته الجنوبية، وباب الرحمة جهة الغرب، والباب الذي كان يدخل منه ﷺ من جهة الشرق، وهو الذي عُرف بعدُ باسم باب جبريل، وجعل جانبي كل باب من الحجارة، وجعل عمُد المسجد من جذوع النخل، وسقفه من الجريد، وكان النبي ﷺ ينقل معهم الحجارة واللبن بنفسه حتى أغبر صدره الشريف وكان ينشد معهم: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرًا لِآخِرِهِ فَانصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ  
وفي رواية: اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ  
وكان يقول ﷺ وهو ينقل اللبن معهم للبناء:

هَذَا الْجِمَالُ لَا حِمَالٌ خَيْرَ  
هَذَا أَبْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ

وكلها في الصحيح، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا - في الأحاديث - أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات.

والمراد أنه ﷺ كان يحثهم على العمل ويشاركهم فيه، وأن نقل هذه الحجارة واللبن لبناء المسجد أبر وأطهر عند الله عز وجل مما يُحمل من خبير زبيبا كان أو تمرًا.

وقال بعض المسلمين: لَيْسَ قَعْدُنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَلِكَ إِذَا لِلْعَمَلِ الْمُصَلَّلُ

وكان عثمان بن مظعون رجلاً مُتَنَظِّفًا: يجب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً، فإذا حمل اللبنة في ثوبه نظَّف كفه إذا وضعها، ونظر إلى ثوبه، فإن أصابه شيء من التراب نَفَّصَه، فلما رآه عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنشأ يقول:

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَ  
يَذَابُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدًا  
وَمَنْ يَرَى عَنِ التُّرَابِ حَائِدًا

فردد عمار بن ياسر تلك الكلمات دون أن يدري من المراد بها، فلما مر بعثمان بن مظعون غضب منه ظاناً أنه يُعرِّضُ به، فأغلظ له القول، وسمعه النبي ﷺ فغضب من أجل عمار، فقال الصحابة لعمار: إن النبي ﷺ قد غضب فيك، ونخاف أن ينزل فينا قرآن، فقال عمار: أنا أرضيه كما غضب، فقال: يا رسول الله! ما لي ولأصحابك؟ فقال ﷺ: «مالك ولهم؟» قال عمار: يريدون قتلي! يحمل كل واحد منهم لبنةً لبنةً، ويحملون عليّ اللبتين والثلاث، فأخذ بيده رسول الله ﷺ وطاف به في المسجد يمسح مؤخرة رأسه من التراب وهو يقول: «ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ليس هؤلاء بالذين يقتلونك؛ وإنما تقتلك الفئة الباغية (٢٤١).

وهكذا: ظل الصحابة ينقلون اللبن والحجارة حتى تم بناء المسجد النبوي بالمدينة، فأخذ يؤدي رسالته في المجتمع، لأنه دائماً مهبط النور ومصدره في هذه الحياة، والحمد لله رب العالمين (٢٤٢).

وقد لخص الشيخ محمد سالم البيحاني أحداث هذه الحقبة في أرجوزته بقوله:

وَطَلَحَةُ التَّيْمِيُّ وَابْنُ الْعَوَّامِ ❀❀ قَدَ أَقْبَلَا فِي مَتَجَرِّ مِنَ الشَّامِ  
فَكَسَيَا مِنَ الثِّيَابِ الْمُصْطَفَى ❀❀ وَالصَّاحِبُ الصِّدِّيقُ صَاحِبُ الْوَفَا

(٢٤١) مسند الإمام أحمد ٢٢/٣ ح ١١٠١١ حيث توسع الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحريجه، وجمع الزوائد: كتاب المناقب/ باب فضل عمار بن ياسر ووفاته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ٢٩٦/٩، وقال الهيثمي: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. وراجع: ما سبق في هذا الجزء تحت عنوان: «التأدب والاعتدال فيما وقع بين الصحابة من التهاجر والافتتال» الهامش رقم ١٦٠. (٢٤٢) راجع كتاب: «المسجد النبوي عبر التاريخ» للدكتور: محمد السيد الوكيل ص ١٨: ٢٦.



وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ فِي أَنْتِظَارِهِمْ ❁❁ يَهَيِّئُونَ نَزُولًا فِي دَارِهِمْ  
 وَفِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَا ❁❁ حَطَّ النَّبِيُّ رَحْلَهُ فَمَرَّ حَبَا  
 وَأَسَسَ الْمَسْجِدَ ثُمَّ ارْتَحَلَا ❁❁ إِلَى أَبِي أَيُوبَ حَيْثُ نَزَلَا  
 وَتَمَّ كَانَ قَبْرُهُ وَمَسْجِدُهُ ❁❁ وَهُوَ الَّذِي نَزَرَهُ وَنَقَصِدُهُ  
 وَاشْتَرِكَ النَّبِيُّ فِي بِنَائِهِ ❁❁ بِنَفْسِهِ وَاشْتَدَّ فِي ثَنَائِهِ  
 عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ❁❁ وَضَحِكَ النَّبِيُّ مِنْ عَمَّارِ

### تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِي مَدِينَتِهِ

وبعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه: خلت مكة من المسلمين أو كادت، وأغلقت بعض الدور نتيجة لذلك، منها دار بني جحش... وكل ذلك حدث أو معظمه في فترة قصيرة بين موسم الحج وشهر ربيع الأول... الأمر الذي أيقظ قريشاً من غفلتها.. ولعلها لم تهتم للأمر أولاً، ثم فكرت فوجدت فيه الخطر عليها حسب زعمها.

وبعد أن استقر النبي ﷺ في المدينة بأيام قلائل: وصل إليها عليُّ بنُ أبي طالب مهاجراً بعد أن أدى الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها في مكة. قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحدٌ، إلا مفتونٌ أو محبوس... (٢٤٣).

ومن جملة هؤلاء: صهيب الذي اضطر إلى التنازل عن ماله لقريش التي زعمت أنه لم يكن ذا مالٍ قبل قدومه مكة، وذلك في مقابل أن يسمحو له بالهجرة.. (٢٤٤).

(٢٤٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٩٩.

(٢٤٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٧٧.

## صُهَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقِصَّةُ هِجْرَتِهِ

ومن منا معشر المسلمين لا يعرف صهيباً الرومى، ولا يُلم بطرفٍ من أخباره وقطوفٍ من

سيرته؟!

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون منا هو أن صهيباً لم يكن رومياً، وإنما كان عربياً خالصاً،  
ثُميرىَّ الأبِ تميمىَّ الأم.

ولانتساب صهيبٍ إلى الروم قصةٌ ما تزال تعيها ذاكرة التاريخ، وترويها أسفاره.

فقبل البعثة بحوالى عقدين من الزمان كان يتولى الأبلَّة - وهى مدينة قديمة دخلت فى  
البصرة وأصبحت جزءاً منها - سنان بن مالك النُمَيْرِىّ، من قبَلِ كسرى ملك الفرس.  
وكان أحب أولاده إليه طفلاً لم يجاوز الخامسة من عمره، سماه صهيباً.

وكان صهيب: أزهرَ الوجه، أحمرَ الشعر، متدفقَ النشاط، ذا عينين تتقدَّانِ فطنةً ونجابةً،  
وكان إلى ذلك مُمَرَّحاً، عذبَ الرُّوح، يدخل السرور على قلب أبيه، ويتنزع منه هموم المثلِّك  
انتزاعاً.

مضت أم صهيب مع ابنها الصغير وطائفةٍ من حشمها وخدمها إلى قرية «الثَّنيِّ» من أرض  
العراق طلباً للراحة والاستجمام، فأغارت على القرية سرية من سرايا جيش الروم، فقتلت  
حراسها، ونهبت أموالها، وأسرت ذرارياها فكان فى جملة من أسرتهم صهيب.

بيع صهيب فى أسواق الرقيق ببلاد الروم، وجعلت تتداوله الأيدي فيتقل من خدمة سيد  
إلى خدمة آخر، شأنه فى ذلك كشأن الآلاف المؤلفة من الأرقاء الذين كانوا يملأون قصور بلاد  
الروم.

وقد أتاح ذلك لصهيب أن ينفذ إلى أعماق المجتمع الرومى، وأن يقف عليه من داخله،  
فرأى بعينه ما يعيش فى قصوره من الرذائل والموبقات، وسمع بأذنيه ما يرتكب فيها من المظالم

والمآثم، فكره ذلك المجتمع وازدراه، وكان يقول في نفسه: إن مجتمعا كهذا لا يُطهره إلا الطوفان.

وعلى الرغم من أن صهيبا قد نشأ في بلاد الروم، وشب على أرضها وبين أهلها، وعلى الرغم من أنه نسى العربية أو كاد ينساها، فإنه لم يرغب عن باله قط أنه عربيٌّ من أبناء الصحراء، ولم تفتُر أشواقه لحظةً إلى اليوم الذي يتحرر فيه من عبوديته، ويلحق ببني قومه، وقد زاده حينئذٍ إلى بلاد العرب فوق حنينه، أنه سمع كاهنًا من كهنة النصراني يقول لسيد من أسياده: لقد أطل زمانٌ يخرج فيه من مكة في جزيرة العرب نبيٌّ يُصدق رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ثم أُتيحت الفرصة لصهيب فولى هاربًا من رق أسياده، ويمم وجهه شطر مكة أم القرى موئل العرب، ومبعث النبي المرتقب، ولما ألقى عصاه فيها، واستقر بها أطلق الناس عليه اسم صهيب الرومي للكثرة لسانه وحرمة شعره، وقد حالف صهيب سيدًا من سادات مكة هو عبدالله بن جدعان وطلق يعمل في التجارة، فدرت عليه الخير الوفير والمال الكثير.

وفي ذات يوم عاد صهيب إلى مكة من إحدى رحلاته، فقيل له إن محمد بن عبدالله قد بعث وقام يدعو الناس إلى الإيمان بالله وحده، ويحضهم على العدل والإحسان، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، فقال: أليس هو الذي يلقبونه الأمين؟! فقيل له: بلى، فقال: وأين مكانه؟ فقيل: في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، ولكن حذارٍ من أن يراك أحدٌ من قريش، فإن رأوك فعلوا بك وفعلوا وأنت رجل غريب لا عصبية لك تحميك، ولا عشيرة عندك تنصرك.

مضى صهيب إلى دار الأرقم حذرًا يتلفت، فلما بلغها وجد قرب الباب عمار بن ياسر، وكان يعرفه من قبل، فتردد لحظةً ثم دنا منه وقال: ما تريد يا عمار؟ فقال عمار: بل ما تريد أنت؟ فقال صهيب: أردتُ أن أدخل على هذا الرجل، فأسمع منه ما يقول، فقال عمار: وأنا أريد أيضًا، فقال صهيب: إذن ندخل معًا على بركة الله، دخل صهيب بن سنان الرومي وعمار بن ياسر على رسول

الله ﷺ واستمعا إلى ما يقول، فأشرق نور الإيمان في صدريهما، وتسابقا في مد يديهما إليه، وشهدا ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأمضيا سحابة يومهما عنده ينهلان من هديه وينعمان بصحبته ﷺ.

ولما أقبل الليل، وهدأت الحركة، خرجا من عنده تحت جناح الظلام وقد حمل كل منهما من النور في صدره ما يكفي لإضاءة الدنيا بأسرها.

تحمل صهيب نصيبه من أذى قريش مع بلال وعمار وسمية وخباب وغيرهم من عشرات المؤمنين، وقاسى من نكال قريش ما لو نزل بجبلٍ لهده، فتلقى ذلك كله بنفس مطمئنة صابرة، لأنه كان يعلم أن طريق الجنة مخوف بالمكاره.

ولما أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، عزم صهيب على أن يمضى في صحبة الرسول ﷺ وأبى بكر، لكن قريشاً شعرت بعزمه على الهجرة فصدته عن غايته، وأقامت عليه الرقبا حتى لا يفلت من أيديهم، ويحمل معه ما ذرّته عليه التجارة من ذهبٍ وفضة.

ظل صهيب بعد هجرة الرسول ﷺ وصاحبه يتحين الفرص للحاق بهما فلم يُفلح، إذ كانت أعين الرقبا ساهرةً عليه متيقظةً له، فلم يجد سبيلاً غير اللجوء إلى الحيلة.

وفي ذات ليلة باردة: أكثر صهيب من الخروج إلى الخلاء كأنه يقضى الحاجة، فكان لا يرجع من قضاء حاجته حتى يعود إليها، فقال بعض رقبائه لبعض: طيبوا نفساً؛ فإن اللات والعزى شغلاه ببطنه، ثم أووا إلى مضاجعهم وأسلموا عيونهم إلى الكرى وراحوا في نوم عميق، فتسلل صهيب من بينهم، ويمم وجهه شطر المدينة، وسار نحو عشرين كيلو متراً، ثم فطن له رقباؤه، فهبوا من نومهم مذعورين، وامتطوا خيولهم السوابق، وأطلقوا أعتها خلفه حتى أدركوه، فلما أحس بهم، وقف على مكان عالٍ وأخرج سهامه من كنانته ووتر قوسه، وقال: يا معشر قريش! لقد علمتم - والله - أنى من أرمى الناس وأحكمهم إصابة، ووالله! لا تصلون إليّ حتى أقتل

بكل سهمٍ معي رجلاً منكم، ثم أضربكم بسيفي ما بقى في يدي شيءٌ منه، فقال قائل منهم: والله لا ندعك تفوز منا بنفسك وبمالك، لقد أتيت مكة صعلوكًا فقيرًا فاغتنيت وبلغت ما بلغت، فقال: رأيتم إن تركت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلهم على موضع ماله في بيته في مكة، روى الحاكم عن عكرمة -مرسلاً- قال: لما خرج صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَمَتَّلَ كِنَانَتَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعِينَ سَهْمًا، فَقَالَ: لَا تَصْلُونَنِي حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدُ إِلَى السَّيْفِ فَعَلِمُوا أَنَّ رَجُلًا، وَقَدْ خَلَفْتُ بِمَكَّةَ قَيْتَيْنِ فَهِيَ لَكُمْ. ونحوه عن أنس مرفوعًا.

فصدقوه ليقينهم أن أصحاب محمد لا يكذبون، وعادوا وأخذوا المال فوجدوه كما وصف لهم، وأخذ صهيب يسرع السير نحو المدينة فارًا بدينه إلى الله، غير آسفٍ على المال الذي أنفق في جنيته زهرة العمر، وكان كلما أدركه النصب وأصابه التعب، حدا به الشوق إلى رسول الله ﷺ فيعود إليه نشاطه، ويواصل سيره.

فلما بلغ قباء رآه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مقبلًا، فهش له وبش وقال: ربح البيع أبا يحيى، وها هو يحدث عن هجرته حتى لقي رسول الله ﷺ في قباء، فيقول: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ فَصَدَّنِي فِتْيَانٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَجَعَلْتُ لَيْلَتِي تِلْكَ أَقْوَمُ وَلَا أَفْعَدُ، فَقَالُوا: قَدْ شَغَلَهُ اللَّهُ عَنْكُمْ بَيْطْنِهِ وَلَمْ أَكُنْ شَاكِيًا، فَقَامُوا فَلَحِقَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَمَا سِرْتُ بَرِيدًا لِيرُدُونِي، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوْاقِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ وَتُخْلُونَنِي سَبِيلِي، وَتَقُونَ لِي فِتْنَتَهُمْ إِلَى مَكَّةَ؟ فَقُلْتُ لَهُمْ: اخْفَرُوا تَحْتَ أُسْكُفَةِ الْبَابِ فَإِنَّ تَحْتَهَا الْأَوْاقِ، وَادْهَبُوا إِلَى فُلَانَةَ فَخُذُوا الْخَلْتَيْنِ، وَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْهَا -يعني قُباة-، فَلَمَّا رَأَى قَالَ: «يَا أَبَا يَحْيَى، رَيْحَ الْبَيْعِ» ثَلَاثًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا سَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ، وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢٤٥).

(٢٤٥) راجع: المستدرک علی الصحیحین ٣/٣٩٨ فی مرسل عکرمة وقال الحاكم بعده: وَحَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ،

فعلت الفرحة وجه صهيب وقال: والله ما سبقني إليك أحد يا رسول الله، وما أخبرك به إلا جبريل.

حقاً لقد ربح البيع، وصدق ذلك وحى السماء، وشهد عليه جبريل، حيث نزل في صهيب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة].

فطوبى لصهيب بن سنان الرومي، وحسن مآب (٢٤٦).

وكان ﷺ يدعو للمستضعفين أن يفرج الله عنهم ويسر لهم الهجرة، ففي الصحيحين: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده»،

عن أنس - نحوه -، وَنَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «أَبَا يَحْيَى رَيْحَ الْبَيْعِ» قَالَ: وَتَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ. صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُجَرِّجَاهُ، و٣/٤٠٠ حديث صهيب وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُجَرِّجَاهُ، وَأَقْرَهُ الذَّهَبِيُّ، وَفِي سَنَدِهِ: يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى الزَّهْرِيُّ، وَهُوَ مِمَّنْ يَصْلِحُ لِلْمَتَابَعَةِ، قَالَ فِيهِ فِيهِ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ ٤/٤٥٤: مشهورٌ مُكْثَرٌ، وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي هُدَى السَّارَى ص ٤٥٩: ضعفه الجمهور، وقال الحاكم وحده: ثقة مأمون، علق له البخاري موضعاً واحداً في حد جزيرة العرب، وقال ابن معين: صدوق؛ ولكن لا يبالي عن حدث، وقال مرة: أحاديثه تشبه أحاديث الواقدي، عن حُصَيْنِ بْنِ حُدَيْفَةَ بْنِ صَيْفِيِّ بْنِ صُهَيْبٍ: ذكره ابن حبان في الثقات ٨/٢٠٨، ولم يذكر البخاري فيه جرحاً. التاريخ الكبير ٣/١٠، وقال أبو حاتم: مجهول. الجرح والتعديل ٣/١٩١، ومن عمومة حصين بن حذيفة بن صيفي: زياد بن صيفي، ويقال يزيد بن صيفي: ذكره ابن حبان في الثقات وروى له ابن ماجه، قال ابن حجر: صدوق، وذكره البخاري في تاريخه، وابن أبي حاتم ولم يذكر في جرحاً. تهذيب التهذيب ٣/٣٧٤، والتقريب ص ٢٢٠، و«أُسْكُفَةُ الْبَابِ»: خشبته الطويلة المغروسة في الأرض ليتحرك بها الباب.

(٢٤٦) للاستزادة من أخبار صهيب الرومي، انظر: الإصابة ٣/٣٦٤: ٣٦٦، وطبقات ابن سعد ٣/٢٢٦، وأسد الغابة ٣/٣٠، والاستيعاب «على هامش الإصابة» ٢/١٧٤، وصفة الصفوة ١/١٦٩، والبداية والنهاية ٧/٣١٨، ٣١٩، وصور من حياة الصحابة ص ١٩٥: ٢٠٢.

ثم قبل أن يسجد قال: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ...» (٢٤٧).

وبهذا أصبحت الهجرة في مجال الفرض والواجب، فكان كل من أسلم يجب عليه أن يبذل جهده قدر استطاعته في الهجرة، فإن لم يستطع كان ممن عذرهم الله تعالى.

### العِفَّةُ وَالْإِيثَارُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

وقد بلغ كرم الأنصار حدًا عاليًا عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين، لأن النخل مصدر معيشة الكثيرين منهم، على أن الرسول ﷺ طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين في التمر (٢٥٦).

سواءً أكانت الشركة في التمر محددةً بنسبة معينة؛ كالمناصفة، أم كانت إعانةً من الأنصار لإخوانهم المهاجرين وإعالةً لهم في تلك الفترة، والظاهر: أن رسول الله ﷺ لم يُرد أن يشغل المهاجرين بالزراعة لقلّة خبرتهم في هذا المجال، وذلك حتى لا يؤدي إلى خفض الإنتاج وضعف الاقتصاد، كما أنه ﷺ يحتاج المهاجرين في مهام الدعوة والجهاد في تأسيس الدولة الفتنية (٢٥٧).

(٢٤٧) الحديث متفق عليه، واللفظ المذكور في صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب القنوت ٢/ ٢٨٤، وفي باب: يهوى بالتكبير حين يسجد ٢/ ٢٩٠، وفي مواطن أخرى من الصحيح، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب القنوت في جميع الصلوات ٥/ ١٧٦: ١٧٨ شرح النووى.

(٢٥٦) صحيح البخارى ٥/ ٨ ح ٢٣٥٢.

(٢٥٧) ينظر: فتح البارى ٥/ ٥٢٤.

كما وهبت الأنصارُ لرسول الله ﷺ كل فضل في حظها، وقالوا له: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه في أراضٍ وهبتها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكاً لأحد، وهكذا: لم ييخل الأنصار بشيء من العون؛ بل أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد في كتاب الله العزيز: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] (٢٥٨).

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة في نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بالثناء على الأنصار والدعاء لهم لما بذلوه من جود وكرم، فعن أنس قال: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مَوَاسَاةٍ فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَدَلًا فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُتُونَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمُهَنَّا، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، قَالَ ﷺ: «لَا، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ» (٢٥٩).

ومن النماذج الفريدة لهذا الإيثار الذي يُصوِّر عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة وتفانيهم في تنفيذه، ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد (واللفظ له)، من حديث أنس بن مالك: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: أَيُّ أَحْيٍ! أَنَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالًا؛ فَانظُرْ شَطْرَ مَالِي فَخُذْهُ، وَتَحْتِي امْرَأَتَانِ؛ فَانظُرْ أَيُّهُمَا أَعْجَبُ إِلَيْكَ حَتَّى أُطَلِّقَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ذُلُونِي عَلَى

(٢٥٨) أنساب الأشراف ١/٢٧٠.

(٢٥٩) جامع الترمذی: کتاب صفة القيامة/ باب ٤٤، ج ٤ ص ٥٦٣ ح ٢٤٨٧ وقال أبو عيسى: حديث صحيح حسن غريب، ومسند الإمام أحمد ٣/٢٠٠، ٢٠٤، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/٢٠٠، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٢٨.



السُّوقِ، فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ، فَذَهَبَ فَاشْتَرَى وَبَاعَ وَرَبِحَ، فَجَاءَ بِشَيْءٍ مِنْ أَقْطِ وَسَمْنٍ، ثُمَّ لَبِثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ رَدْعٌ - أَى: أُنْثَرُ - زَعْفَرَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهَيْمٌ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَصْدَقْتَهَا؟» قَالَ: وَزَنَ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ ﷺ: «أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاةٍ» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَلَوْ رَفَعْتُ حَجْرًا، لَرَجَوْتُ أَنْ أُصِيبَ ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً (٢٦٠).

وهكذا: طابت نفوس الأنصار بما بذلوه لإخوانهم المهاجرين من عون؛ فاستحقوا مدح الله لهم وثناءه عليهم في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر].

وقد قابل المهاجرون هذا الإيثار بالعفة والكدح، في طلب العيش وتحصيل الرزق، فلم يكن مسلك عبدالرحمن بن عوف متفردًا؛ بل إن كثيرين من المهاجرين كان مكنتهم سيرًا في بيوت إخوانهم من الأنصار، ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتًا لأنفسهم وتكفلوا بنفقات أهليهم وذويهم.

ومما لا شك فيه: أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل الذي لا نشهد له مثيلًا في تواريخ الأمم الأخرى.

(٢٦٠) حديث أنس، في: صحيح البخارى في أحد عشر موضعًا، أولها برقم ٢٠٤٩، وصحيح مسلم ح ١٤٢٧، وجامع الترمذى ح ١٠٩٤، وسنن ابن ماجه ح ١٩٠٧، ومسند الإمام أحمد ٢٧١/٣ ح ١٣٨٦٣ (واللفظ له)، ونحوه عند البخارى ح ٢٠٤٨ عن عبدالرحمن بن عوف.

وليس موقف ابن عوف في أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه: بأقل روعة من إيثار سعد بن الربيع، فقد تمكن عبدالرحمن - وهو التاجر الماهر - من شق طريقه في الحياة الجديدة، وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج، ودفع المهر نواة من ذهب<sup>(٢٦١)</sup>.

ثم بارك الله له في سعيه؛ فَنَمَتْ ثَرَوَتُهُ، وصار من كبار أغنياء المسلمين؛ حيثُ أبي إلا أن يكون صاحب اليد العليا التي تعطى ولا تأخذ.

إن كرم الأنصار وسخاءهم الكبير، قابله عفةً وكرمٌ نفسٍ من المهاجرين قلما نجد له نظيرًا، فهم لم يتركوا أموالهم في مكة على أمل تعويضها من أموال إخوانهم الأنصار، وإنما تركوها في سبيل عقيدتهم، وإذا ألجأهم الحاجة في هذه الفترة فقد كانوا يقتصرون على ما يقيم أودهم.

وقد سبق أن عمر بن الخطاب خرج بأمواله أيضًا، وذلك في قصة هجرته مع عياش بن أبي ربيعة، حيث قال لعياش - حين جاءه أبو جهل يقنعه بالعودة إلى مكة رحمةً بأمه -: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب، وهذا يعني: أن عمر قد خرج بباله، وإلا فكيف يعدُّ عياشًا بنصف ماله إن لم يكن قد خرج به؟ وعمر كان تاجرًا، وقد مارس تجارته بعد وصوله إلى المدينة، وكذلك أبو بكرٍ قد حمل معه عند هجرته ثروته التي كانت تقدر بنحو ستة آلاف درهم، وكان تاجرًا أيضًا<sup>(٢٦٢)</sup>.

وكذلك حمل عثمان جميع أمواله معه، وأن عثمان بن مظعون قد خرج بباله، فقد أخرج ابن سعد: أن امرأة عثمان بن مظعون دخلت على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها: مالك؟ فما في قريش أغنى من بعلك، فقالت: ما لنا منه شيء! أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم،

(٢٦١) البخارى ح ٥١٤٨، ٥١٥٥، فتح البارى ٩/٢٠٤، ٢٢١.

(٢٦٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٧٥ وراجع ما تقدم، تحت عنوان: «تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَنَعَاؤُهُمْ فِي هِجْرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» وعنوان: «ليلة الهجرة».

فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه فقال: «يا عثمانُ بنَ مِظْعُونِ! أما لك بي أسوة؟» فقال: يا رسول الله! بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: «تصوم النهار وتقوم الليل؟» قال: إني لأفعل، قال: «لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسديك حقًا، وإن لأهلك حقًا، فصلي ونم، وصم وأفطر» فأتتهن بعد ذلك عَطْرَةٌ كأنها عروس، فقلن لها: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس.

وهذا يعنى: أن عثمان بن مِظْعُونِ، قد خرج بأمواله؛ لأن الفترة التي عاشها في المدينة كانت قليلة، لا يتمكن فيها من كسب الأموال التي تجعله من الأغنياء؛ حيث توفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في شعبان سنة ثلاث من الهجرة (٢٦٣).

ولا شك أن غيرهم أيضًا من المهاجرين قد استطاع أن يحمل ماله أو بعض ماله فتكفل بنفقات نفسه وعياله دون أن يكلف أحدًا من الأنصار شيئًا؛ بل ربما ساهم في نفقات بعض إخوانه من المهاجرين والفقراء كأهل الصُّفَّة؛ لأن العقيدة الإسلامية قد منعت ظهور الصراع الطبقي بين أفراد المجتمع الإسلامي، بالمؤاخاة بين الأغنياء والفقراء، وتوحيد الصف الداخلي لمواجهة متطلبات الجهاد، فكانوا جميعًا في صفٍّ واحدٍ، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ولما أَلِفَ المهاجرون جَوَ المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم... رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس

(٢٦٣) فتح الباري ١٢/٤١١، وسنده عند ابن سعد صحيح؛ لكنه مرسل، وللحديث شواهد مشهورة صحيحة.

(٢٦٤) الطبقات الكبرى ١/٢٥٥، تفسير الطبري ٥/٢٩١ تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر.

الفروض المذكورة في كتاب الله تعالى للأصول والفروع والحواشي والزوجية والوصية بذوي الأرحام؛ فأبطل التوارث بين المتأخين؛ لأنه كان قد شرع لمعالجة ظروف استثنائية كانت تمر بها الدولة الناشئة، وذكر ابن سعد أن ذلك الإلغاء كان بعد غزوة بدر، بنزول قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] (٢٦٥).

فهذه الآية نسخت التوارث بين المهاجرين والأنصار الذي كان ثابتاً بموجب المؤاخاة في عهد النبوة أول الهجرة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ [النساء: ٣٣]، قَالَ: «وَرِثَةَ»: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ - قراءة العشرة سوى الكوفيين - قَالَ: «كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، يَرِثُ الْمُهَاجِرُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ [النساء: ٣٣] نَسَخَتْ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ «إِلَّا النَّصْرَ، وَالرِّفَادَةَ، وَالنَّصِيحَةَ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ» (٢٦٦).

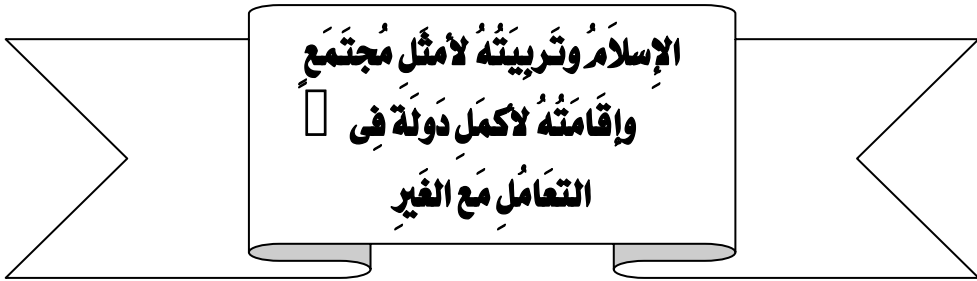
فيرى ابن عباس أن آية: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَفَاتُوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]، نسخت التوارث بالمؤاخاة، فالمولى في رأيه

(٢٦٥) وانظر تفسير الآية، في: فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٣٠، ٣٣١، وما ورد في سبب نزولها عند الطيالسي في مسنده: منحة المعبود ١٩/٢ ح ١٩٥٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨، ويراجع: الطبقات الكبرى ١/ ٩/٢، وأنساب الأشراف ١/ ٢٧٠، ٢٧١، وزاد المعاد ٢/ ٧٩، وعيون الأثر ١/ ٢٠١، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٢٦٠.

(٢٦٦) صحيح البخارى: كتاب الكفالة/ بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَفَاتُوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ﴾ ٩٥/٣ ح ٢٢٩٢ واللفظ له، وفي كتاب التفسير/ بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَفَاتُوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ﴾ ٦/ ٤٤ ح ٤٥٨٠، وفي كتاب الفرائض/ بَابُ ذَوِي الْأَرْحَامِ ٨/ ١٥٣ ح ٦٧٤٧، وانظر: (المؤاخاة في عهد النبوة) في هذا الكتاب ٢/ ١٩٢ ط ٥.

هم الورثة بالرحم: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ هم المهاجرون الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة، وذكر ابن عباس أن ما أُلغِيَ من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصرة والرفادة والنصيحة: فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتأخيين.

وصفوة القول: أن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ، وبُوسِعَ المؤمنين في كل عصر أن يتأخُوا بينهم على المواسة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين.



إن الذي أمر نبيه ﷺ في مكة أن يقول للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون] هو الذي أوحى إليه في المدينة أن يعقد عهداً مع اليهود وكتب فيه: «لِيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ» لأنه سبحانه يعلم بحكمته: أن الإكراه على الدخول في الإسلام قد يثمر نفاقاً؛ فيكون الجزاء كما قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

وقد يتتبع به صاحبه؛ فيكون جزاؤه الجنة في الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ» ويكون في الدنيا من خير الناس، كما قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قَالَ: «خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ

وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته (٢٧٦).

وبهذه المعاهدة أصبحت المدينة المنورة دار إسلام، وصار من فيها من اليهود أهل ذمة وعهد؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فيحرم إيذاؤهم أو الاعتداء عليهم أو قتلهم... ونحو ذلك؛ إلا بحق ماداموا ملتزمين بالعهد مستمسكين بما فيه، وعلى كل مسلم أن يرضى لهم ذلك، ومن خالف: فقد استحق الوعيد الوارد في قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا: لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ؛ وَإِنْ رِيحَهَا تُوْجِدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» أخرجه البخاري (\*).

فأمثال هؤلاء: لهم حق الأخوة في المواطنة والأخوة في القوميات؛ لأنهم جميعا يعيشون في وطن واحد تحت حكم الإسلام وإن لم يؤمنوا به؛ وقد ذكر ذلك ربنا في كلامه عن كثيرين من أنبيائه ورسله مع أقوامهم، كنوح وهود وصالح ولوط، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وشعيب عليه السلام حين أرسل إلى قومه في مدين؛ أطلق عليه أنه أخ لهم كذلك؛ كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] و[هود: ٨٤] و[العنكبوت: ٣٦].

(٢٧٦) الحديث المرفوع: ﴿عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ﴾ في صحيح البخاري ح ٣٠١٠، وسنن أبي داود ح ٢٦٧٧ واللفظ له، والحديث الموقوف من كلام أبي هريرة: في صحيح البخاري ح ٤٥٥٧، له حكم الرفع؛ لأنه ليس للرأي مجال فيه، وكلام ابن إسحاق في: السيرة النبوية لابن هشام ٥٠١/١: ٥٠٣، وعيون الأثر ٣١٨/١، ٣١٩، والبداية والنهاية ٣/٢٢٤، ٢٢٥، ومعنى: (يوتغ): يهلك.

(\*) سبق تفصيل تحريجه في الهامش رقم ٦٠ من الجزء الثاني من هذا الكتاب (المعين الرائق من سيرة خير الخلائق ﷺ).

وحينما أرسل إلى أصحاب الأيكة: لم يوصف بهذا الوصف لأنه ليس من بلدهم؛ قال  
 جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمَّ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء].  
 فلفظ الأخ مذكراً ومؤنثاً ومفرداً ومثنياً ومجموعاً: الأصل فيه هو الأخوة في النسب أو  
 الرضاة، ثم توسع فية وأطلق على كل من تجمع بينهم صفة أو أكثر كالدين والهدف والمصير...  
 ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

والمناققون الذين يعلنون الإسلام ويخفون الكفر؛ هم إخوان للكافرين المعادين للإسلام  
 وأهله، كما قال تبارك اسمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ  
 أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ بِكُمْ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

وكذلك الكافرون إخوان للمنافقين؛ لاجتماعهم علي الكيد للإسلام والشيطان للمسلمين،  
 قال تباركت أسماؤه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا  
 ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وهؤلاء وأولئك لن تثبت لهم الأخوة في الدين إلا باعتناقهم الإسلام والانقياد لتشريعاته،  
 قال سبحانه: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ فَإِنْ تَابُوا  
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾  
 [التوبة].

والأخوة في الدين: هي الأخوة الحقة التي تعلقو علي كل ماسواها من القوميات  
 والأوطان... وغير ذلك؛ بل إنها ترتفع فوق النسب وإن كانت لا تنفيه.

قال فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى فيما هو مسجل عنه بالصوت والصورة:

«يجب أن نستعيد بالله من أن نصنع تصرفاً يرضى عنا اليهود أو النصارى؛ لأن معنى أنى أتصرف تصرفاً يرضى اليهود والنصارى: فإننى بحكم الله أكون قد تبعت ملتهم، لأنه قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فنعوذ بالله أن نكون منهم محل الرضا.

ويجب أن تفرقوا بين الرضا وبين التعايش، فهناك فرق بين الرضا وبين التعايش، لأن التعايش يقتضيك أن تتحمل فعل قَالَبَ ولكن لا بحب قلب، والرضا: أن تقبل فعل القالب بحب القلب، ولذلك كان عهده ﷺ مع اليهود: لا رضا من اليهود عليه، ولا رضا منه على اليهود، وإنما كان تعايشاً فقط، لأنه ما كان لرسول الله أن يفعل فعلاً يرضى به اليهود، ولأنه إن رضيت اليهود عن واحد: فليعلم بأنه فارق ملة الله: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إذا: يجب أن نفرق بين الرضا وبين التعايش، فالرضا أن تقبل فعل القالب بحب القلب، وقد تقبل فعل القالب تعايشاً لا حُبّاً، ولذلك يجب أن تتنبهوا إلى أننا قلنا سابقاً: إن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ فِي شَأْنِ الْوَلَدِ مَعَ الْوَالِدِ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقبان: ١٥]، فهذا هو التعايش مع الأبوين، فالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فإنك تصنعه مع من تحب، وإياكم أن تفهموا كما يقول بعض المستشرقين: إن في بعض الآيات القرآنية تعارضاً، والذي يجعل المسلمين يغفلون عنه أنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة، ولولا هذه القداسة لأمكنهم أن يستقبلوا آيات من القرآن فيها تعارض، وجاء بهذه الآية: وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ثم جاء بالآية الأخرى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ



اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴿[المجادلة: ٢٢]، ثم يقول: ها هو ذا القرآن يقول ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَصَاحِبَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فنقول له: يا غيبي! افهم أن الصحبة بالمعروف غير الود بالقلب، الصحبة بالمعروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب، أما الود فتصنعه مع من تحب، فاصنع مع أبيك المعروف تعاشياً وقلبك غير راضٍ.

إذا: فالرسول ﷺ حين عاهد اليهود أو عاهد غيرهم: لم يكن عن رضا قلبي، وإنما هو تعاشٍ كما اقتضت الظروف، والإنسان المؤمن يستعيز بالله أن يكون محل الرضا من هؤلاء أبدأ، فالحق سبحانه يقول كلاماً لا ينقض: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، فنعوذ بالله أن يرضوا عنا، وليس هناك مانع إذا أرادوا التعاش: فتتعاش، فافهموا بِدِقَّةٍ.

وقال في اجتماع مع كبار القساوسة في مصر مجيئاً على قول أحدهم: الدين لله والوطن للجميع: «لا، بل كل وطن لا دين فيه؛ لا تعتر بوطنيتك له، لازم منهج، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ مادمت مستضعفاً في الأرض فلا تُسمي -الأرض- وطني ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ ابحث عن مكان آخر، أما الوطن الذي لا أستطيع أن أقيم فيه أمر الله: افعل ولا تفعل: فلا أعتز به» ثم سُئل عن أثر زيارته لهم، فقال: «إن شاء الله ترونها فيما بعد؛ لأن الأثر لا يكون ساعة الحدث، وإنما يكون بعده». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ ورضى عنه.

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فيما قال: فما خرج النبي ﷺ وأصحابه مهاجرين من مكة إلا طلباً لمكان آمن، وبحثاً عن أرض جديدة يتمكنون فيها من إقامة دين الله في الأرض.

وهذا الفهم الجيد من هؤلاء الأئمة الكرام: ينبغي أن يوضع في سويداء قلب كل مسلم؛ لأنه قد يتزوج من الكتابية؛ فيصير أهلها أصهاراً له وأقارب لذريته، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥٠].

ولا ينبغي لمؤمن أن يُصغى إلى من يُشكك في فهم النصوص الشرعية قائلاً: كيف يُبيح للمسلم التزويج من الكتابية؛ ثم ينهاه عن حبها؟!!

لأن إباحة تزويجه يكون عند الحاجة، وهي تُقدَّر بقدرها، ولا شك أن اختيار الزوجة المؤمنة هو خير من تلك الكتابية: ﴿وَالْأَمَّةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ثم إن الحرّة المؤمنة بلا ريب خير من الأمّة المؤمنة التي يُباح التزوج بها في حال الضرورة فقط، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ بِنَفْسِهِنَّ يَنْصِفُنَّ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٣٥].

ولا ننسى حالة التعايش التي وضَّحها قريباً فضيلة الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللهُ، وليس في هذا حَيْفٌ ولا ظلم للزوجة كائنة مَنْ كانت؛ لما ثبت عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَفْسِمُ فَيَعِدُّ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمَلِكُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمَلِكُ وَلَا أَمَلِكُ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: يَعْنِي الْقَلْبَ (٢٧٧).

فالجورُ المنهى عنه يكون في القسمة أو العشرة أو المطعم أو الكسوة، أما في ميل القلب إلى إحدى الزوجتين أكثر من الأخرى فلا مؤاخذه فيه إن وقع، والله أعلم.

وهكذا: أحدث الإسلام بعقيدته وشريعته تغييراً حقيقياً في حياة الفرد والمجتمع في المدينة المنورة؛ لما تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير حتى صبغ الحياة كلها بصبغته: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة].

(٢٧٧) سنن أبي داود: كِتَابُ النُّكَاحِ / بَابٌ فِي الْقَسَمِ بَيْنَ النِّسَاءِ ٢/٢٤٢ ح ٢١٣٤، قال الخطابي: «المكروه من الميل هو ميل العشرة الذي يكون معه بخس الحق، دون ميل القلوب، فإن القلوب لا تملك». معالم السنن ٣/٢١٨، ٢١٩، والحديث بسند أبي داود أخرجه: الحاكم في المستدرک ٢/٢٠٤ ح ٢٧٦١ وقال: صحیح علی شرط مسلم، ولم يُخرِّجَاهُ، وأقره الذهبي، وهو كما قال الحاكم؛ لكن حماد بن سلمة خالف فيه من هو أوثق منه وأحفظ وهو حماد بن زيد وغيره الذين رَووا الحديث إلى أبي قلابة رسلاً، كما قال الترمذی بعد إخراجہ الحديث رقم ١١٤٠ في جامعہ: «حَدِيثُ عَائِشَةَ هَكَذَا رَوَاهُ عَيْرٌ وَاحِدٌ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَفْسِمُ، وَرَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَيْرٌ وَاحِدٌ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ مُرْسَلًا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَفْسِمُ، وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ». كما أن نسبة عبد الله بن يزيد إلى الخطمي خطأ كذلك؛ لأنه لا تعرف له رواية عن عائشة، ولا يعرف أن أبا قلابة قد روى عنه، وأما الراوي عن عائشة، فإنها هو عبد الله بن يزيد رضيع عائشة، وهو الذي روى عنه أبو قلابة، وقد ذكر الحافظُ وشيخُه المزي هذا الحديث في ترجمته، والله أعلم.

## لَمَحَاتٌ مِنْ بَعْضِ الْغَزَوَاتِ

قد فصلَ القرآن الكريم أحداثًا كثيرةً في بعض الغزوات كغزوة بدر في سورة الأنفال، وغزوة أحد وما تبعها من وقائع في سورة آل عمران، وغزوة الخندق وإجلاء يهود بنى قريظة في سورة الأحزاب، وإخراج يهود بنى النضير وخذلان مَنْ عاونهم من إخوانهم المنافقين في سورة الحشر.. وأحداثًا أخرى تُذكر في حينها في آيات متفرقة في أكثر من سورة كما وقع مع يهود بنى قينقاع ومَنْ عاونهم من المنافقين في الآيات: ١٢ و ١٣ من سورة آل عمران، والآيات ٥١ : ٥٦ من سورة المائدة، وبحمد الله كان النصر فيها للمؤمنين والعاقة للمتقين.

## تَمَحِيصٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرِ وَأُحُدٍ

وذلك كلُّه كان بعد الاختبار والابتلاء الذي كشف عن معادن الرجال؛ فظهر به النفيس من الخسيس، وامتاز به الطيب من الخبيث، ومن ذلك: غزوة بدر الكبرى التي وقعت أحداثها في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني من الهجرة، وقد سمي الله يومها: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ آتَى الْجَمْعَانَ﴾ من المؤمنين والمشركين، ومن الملائكة والشياطين، حيث كان التمحيص للمسلمين في أبدانهم باختيار الجهاد لهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال]، وكذلك كان التمحيص في نفوسهم وقلوبهم بالغنائم؛ وقبول حكم رسول الله ﷺ فيها حين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى، قال سبحانه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ

فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ [الأنفال].

|  |    |   |
|--|----|---|
| فِيَوْمٍ بَدْرٍ أَحَدُ الْأَيَّامِ           | ❁❁ | مِنْ رَمَضَانَ مَوْسِمِ الصِّيَامِ              |
| وَمَا تَزَالُ النَّاسُ تُحْيِي الذِّكْرَ     | ❁❁ | بِهِ وَفِيهِ يَذْكُرُونَ النَّصْرَةَ            |
| وَخَرَجَ النَّبِيُّ فِي جَمَاعَةٍ            | ❁❁ | يَطْلُبُ تِلْكَ الْعَيْرَ وَالْبِضَاعَةَ        |
| لَكِنَّهُ جَاءَ الصَّرِيحُ الْمُنذِرُ        | ❁❁ | يَقُولُ يَا قُرَيْشُ هَلَّا تَنْفِرُوا          |
| وَخَرَجُوا بِالْقَضِ وَالْقَضِضِ             | ❁❁ | فِي طُولِ فَخْرِهِمْ وَفِي الْعَرِيضِ           |
| وَاجْتَمَعُوا فِي بَدْرِ لِلْقِتَالِ         | ❁❁ | زَهَاءَ أَلْفٍ فِي جَمِيلِ حَالِ                |
| وَجَيْشُنَا كَانَ قَلِيلًا عَدَدُهُ          | ❁❁ | ثُلُثُ لَأَلْفٍ نَاقِصَاتٍ عَدَدُهُ             |
| وَالْتَحَمَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ | ❁❁ | وَالْمُشْرِكِينَ وَانْجَلَى الْحَقُّ الْيَقِينُ |
| فَمِنْ قُرَيْشٍ قُتِلَ سَبْعُونَ             | ❁❁ | يَا وَيْلَهُمْ وَأَسْرَسْبَعُونَ                |
| وَمِنْهُمْ الَّذِينَ آذَوْا أَحْمَدًا        | ❁❁ | فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَوْمَ سَجَدَا       |
| وَوَضَعُوا عَلَيْهِ مِنْ فَرَثِ الْجَزُورِ   | ❁❁ | وَمَكْرُوا وَالْمَكْرُ كُلُّهُ يَبُورُ          |
| وَجَمَعَ الْقَتْلَاءَ فِي الْقَلِيبِ         | ❁❁ | لِكَيْ يَذُوقُوا أَلَمَ التَّائِبِ              |
| وَفَدِيَ الْأَسْرَى بِالْأَمْوَالِ           | ❁❁ | وَهَكَذَا نَتِيجَةُ الْقِتَالِ                  |
| وَفِي الْمُقَادَاةِ خِلاَفٌ قَدْ جَرَى       | ❁❁ | وَأَيَّدَ الْقُرْآنُ فِيهِ عُمَرَا              |
| وَيَوْمَ بَدْرِ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ          | ❁❁ | وَهَزَمَ الْبَاطِلَ وَالْأَصْنَامَ              |
| وَالْقَائِدُ الْعَظِيمُ مَهْمَا انْتَصَرَ    | ❁❁ | لَا يَتَّبِعُ الْجَيْشُ إِذَا مَا انْكَسَرَ     |
| وَرُبَّمَا يُعَامِلُ الْجَرِيحَا             | ❁❁ | بِغَيْرِ مَا يُعَامِلُ الصَّحِيحَا              |
| وَصَارَتِ الْأَحْكَامُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ   | ❁❁ | تُشْرَعُ لِلْإِسْلَامِ فِي الْعَشْرِ السَّنِينَ |
| حَتَّى آتَمَّ اللَّهُ أَمْرَ الدِّينِ        | ❁❁ | قَبْلَ وَفَاةِ الْمُصْطَفَى الْأَمِينِ          |

وكذلك كان الابتلاء والتمحيص للمؤمنين أشد وأنكى في غزوة أحد التي وقعت في يوم السبت منتصف شهر شوال من العام الثالث للهجرة؛ حيث وصل إلى المدينة نحو ثلاثة آلاف من المشركين بزعامة أبي سفيان يريدون محق النبي ﷺ وأصحابه انتقاماً لل سبعين الذين قُتلوا منهم في بدر، وقد كان على قيادة خيلهم: خالد بن الوليد؛ الذي اهتبل فرصة نزول الرماة عن الجبل لجمع الغنائم مخالفين وصية رسول الله ﷺ لهم: أن لا يبرحوا أماكنهم؛ سواء انتصر الجيش أو هزم، فاستدار خالد بخيل المشركين، وبغت المسلمين وأربك صفوفهم؛ حتى قُتل سبعون من المسلمين، فضلاً عن جرح وأصيب، وأُشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ونزل في بيان ذلك نحو ستين آية من سورة آل عمران من الآية ١٢١ إلى الآية ١٧٩ منها قوله سبحانه:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ كَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ كَرْحٌ مِثْلُهُ ۗ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٢٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَكُونَ عَنْ قُلُوبِهِمْ أُولَٰئِكَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَدٌ فَكُلَّمَا نَزَّلْنَا آيَةً مِنْهُمُ اقْبَلُوا أَوْ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ عَلَيْنَا الْكِتَابُ فَقُلْنَا نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتٍ لَهَا أَجَلًا ۗ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

[آل عمران]، ثم أدب الله المؤمنين الذين ما زال في قلوبهم حب الدنيا؛ حتى لا يعودوا لمخالفة أمر

رسول الله ﷺ مها كان الثمن؛ بعد أن اتخذ من خيرتهم وصفوتهم سبعين شهيداً، وذلك جلي في قوله تعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَالِ - أَى: الرُّمَّة - يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا، عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا، حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا، حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ -البراء-: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشُدُّنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَاحِلُهُنَّ وَأَسْوَفُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ ابْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةُ أَى قَوْمِ الْغَنِيمَةِ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَتَّظَرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنْسَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ لَتَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنَصِيبنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَكَ إِذْ يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أَخْرَائِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِئَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: أَى الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَى الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَى الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لِأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، قَالَ -أبو سفيان-: يَوْمَ يَوْمِ بَدْرٍ،

وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مِثْلَهُ، لَمْ أَمْرٌ بِهَا وَلَمْ تَسُونِي، ثُمَّ أَخَذَ يَزْتَجِرُ: أَعْلُ هُبْلُ، أَعْلُ هُبْلُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ»، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعِزَّى، وَلَا عِزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

وقد سبق في سيرة خير البرية ﷺ أكثر من مثال للمقارنة بين ما كان عليه الجاهليون من أخلاق عليا؛ وبين ما فيه المعاصرون من تسفل وسفه على الرغم من تحضرهم المزعوم، فهذا زعيم المشركين في الحرب (أبو سفيان) يعتذر عما صنعتها امرأته والنسوة اللاتي كن معها من تمثيل بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ يُقَطَّعَنَّ الْأَذَانَ وَيُجَدِّعَنَّ الْأَنْوَفَ، وَبَقَرَتْ هِنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ بَطْنِ سَيْدِ الشَّهَدَاءِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَاسْتَخْرَجَتْ كَبِدَهُ وَلَا كَتَّهُ بِأَضْرَاسِهَا ثُمَّ لَفَظَتْهُ... فقال أبو سفيان: «إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مِثْلَهُ، لَمْ أَمْرٌ بِهَا..» وكل مطالع لهذه السيرة أخبر منى وأبصر بما يفعله بعض المسلمين بإخوانهم في هذا الزمان، فالله المستعان (٢٨٠).

وَبَعْدَ عَامٍ غَزَوَهُ فِي أَحَدٍ      ❁❁      تَعَالَبَ تَغْرُوعِينَ الْأَسَدِ  
صَخْرَيْنِ حَرَبٍ فِي جِيُوشِ الْكُفْرِ      ❁❁      جَاءَ لِمَحْوِ الْعَارِ يَوْمَ بَدْرِ  
وَاحْتَلَفَتْ آرَاءُ أَهْلِ الْأَرْضِ      ❁❁      وَيَعْضُهُمْ فِي الرَّأْيِ ضِدُّ بَعْضِ  
فَابْنُ أَبِي صَاحِبِ النَّفَاقِ      ❁❁      يَدْعُو إِلَى الْفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ

(٢٨٠) الحديث في صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ فِي الْحَرْبِ، وَعُقُوبَةُ مَنْ عَصَى إِمَامَهُ ح ٣٠٣٩ واللفظ له، وبنحوه مختصراً ح ٣٩٨٦، وح ٤٠٦١، وح ٤٠٦٧، ومسند الإمام أحمد ح ١٨٥٩٣. وينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٩١/٢، ٩٢، وراجع في هذا الجزء: «الطَّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَضْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ»، وبعد الهامش رقم ٢٣٠ في عنوان: «ليلة الهجرة».



|   |    |   |
|---|----|---|
| وَالْأَمْرُ جَاءَ لِأَخِي خَوَاتٍ (*)     | ❁❁ | أَنْ يُلْزِمَ الرُّمَاءَ بِالثَّبَاتِ         |
| لَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْهَزِيمَةَ   | ❁❁ | قَالُوا لِمَآذَا نَتْرُكُ الْغَنِيمَةَ        |
| وَخَالَفُوا أَمْرَ أَمِيرِهِمْ            | ❁❁ | فَمَكَّنُوا الْأَعْدَاءَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ   |
| وَصَمَدَ النَّبِيِّ فِي الْقِتَالِ        | ❁❁ | وَحَوْلَهُ جَمَاعَةُ الْأَبْطَالِ             |
| مِثْلُ أَبِي دُجَانَةَ الْمِغْوَارِ       | ❁❁ | مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ           |
| وَخَاضَتِ النِّسَاءُ تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ | ❁❁ | وَاشْتَرَكْتَ نَسِيبَةً فِي الْحَرَكَةِ       |
| وَحُضِبَ النَّبِيُّ بِالِدِّمَاءِ         | ❁❁ | وَعَسَلَتْهَا ابْنَتُهُ بِالْمَاءِ            |
| أَكْرَمَ بِهَا فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ     | ❁❁ | مَا أَحْسَنَ الطَّبِيبَ وَالِدَوَاءِ          |
| وَحَمْرَةَ وَمُصْعَبَ فِي سَبْعِينَ       | ❁❁ | قَدْ قُتِلُوا مِنَ الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ  |
| قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلْيَعْلُ هُبْلُ   | ❁❁ | فَقِيلَ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَى وَأَجَلُ        |
| قَالَ لَنَا الْعُرَى وَلَا عُرَى لَكُمْ   | ❁❁ | قَالُوا لَنَا الْمَوْتَى وَلَا مَوْتَى لَكُمْ |
| وَقِيلَ إِنَّهُمْ سَيَغْزُونَ الْبَلَدَ   | ❁❁ | وَسَارَبَعَدَهُمْ إِلَى حَمْرَةَ الْأَسَدِ    |
| جَمَاعَةٌ يَقُودُهُمْ مُحَمَّدٌ           | ❁❁ | لِيَأْخُذُوا بِالنَّارِ أَوْ يُسْتَشْهِدُوا   |
| وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فِيهِمْ يُتْلَى       | ❁❁ | وَمِثْلُهُمْ لَا يَرَهُبُونَ الْقَتْلَ        |

وأذكر هنا بعض النماذج المثلى في الغزوتين تجسد ما كان عليه الصحابة من قيم، وتبرهن على

صدقهم في الطاعة والحب لله ولرسوله:

- فهذا أبو عبيدة بن الجراح؛ الذي قال فيه عمر بن الخطاب حين رأى عيشه الخشن: «كلنا غَيْرَتُهُ الدُّنْيَا غَيْرُكَ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ» قيل: اسمه عامر بن عبد الله بن هلال القرشي، هو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، كان إسلامه هو وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب،

(\*) أخو خوات بن جبير هو: عبد الله بن جبير الأنصاري شهد العقبة وبدراً، واستشهد بأحد مع الرماة العشرة الذين ثبتوا

معه ولم يخالفوا أمر رسول الله ﷺ لهم.

وعبدالرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبدالأسد في ساعة واحدة قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة، وأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ، شهد بدرًا، وأحدًا، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وأبو عبيدة هو الذي انتزع حلقتي المعفر من وجه رسول الله ﷺ يوم أحد، فسقطت ثنيتاه من ذلك، توفي في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة من الهجرة، عن أنس بن مالك، ونحوه، عن حذيفة، أن رسول الله ﷺ قال: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ» متفق عليه، واللفظ للبخاري، وهذا الصحابي مع فضله ومكانته! انظر ماذا صنع بأبيه المشرك لما حارب الله ورسوله، ففي المعجم الكبير للطبراني بسند جيد: أن والد أبي عبيدة ابن الجراح كان يتصدى لابنه أبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يجيد عنه، فلما أكثر: قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة] (٢٨١).

- وهذا أبو حذيفة؛ صحابي جليل مشهورٌ بكنيته، مختلفٌ في اسمه، وهو ابن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس بن عبدمناف القرشي: كان من فضلاء الصحابة، جمع الله له الشرف والفضل، فكان

(٢٨١) ترجمة أبي عبيدة، في: المعجم الكبير للطبراني ١/١٥٤، ١٥٥ ح ٣٦٠، وحلية الأولياء ١/١٠٠: ١٠٢، وأسد الغابة ٦/٢٠٥، ٢٠٦، والإصابة ٣/٤٧٥: ٤٧٨، و٧/٢٢٥، والحديث المتفق عليه، في: صحيح البخاري ح ٤٣٨٠: ٤٣٨٢، وصحيح مسلم ح ٢٤٢٠، ٢٤١٩، ومسند الإمام أحمد ٣/١٨٩، ٢٤٥، والسنن الكبرى للبيهقي ٦/٢١٠، ٣٧١.

من السابقين، وأسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، هاجر المهجرتين وصلى إلى القبليتين، قال ابن إسحاق: أسلم بعد ثلاثة وأربعين إنساناً، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين عباد بن بشر الأنصاري، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقُتل يوم اليمامة شهيداً، عن بضع وخمسين سنة، تأمل موقفه من أبيه الذي قُتل ودُفن في قليبِ بدر! قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما ألقوا - يعني قتلى المشركين - يوم بدر، وقف رسول الله ﷺ عليهم وقال: «يا عتبة، ويا شيبة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل - يعدد كل من في القليب - هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؛ فقد وجدتم ما وعدني ربي حقاً؟» وقال ابن إسحاق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس... فذكره بأطول منه، وقال ابن إسحاق: فبلغني أن رسول الله ﷺ نظر عند مقالته هذه في وجه أبي حذيفة بن عتبة فرآه كثيراً قد تغير، فقال رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟» قال: لا، والله ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يُقرَّب به ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكُفر بعد الذي كنت أرجو له، حزنت ذلك، فدعا رسول الله ﷺ لأبي حذيفة بخير، وقال له خيراً (٢٨٢).

• وهذا أبو عزيز بن عمير؛ شقيق: مصعب بن عمير، يقع في الأسر يوم بدر، فلعلك تعجب ماذا صنع به أخوه مع الذي أسره؟! قال ابن إسحاق: وحدثني ابن وهب أخو بني عبدالدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال ﷺ: «استوصوا بهم خيراً»، وكان أبو عزيز - واسمه: زرارة - بن عمير بن هاشم بن عبدمناف، أخو مصعب بن عمير لأبيه

(٢٨٢) ترجمة أبي حذيفة، في: الإصابة ٧/٧٤، وأسد الغابة ٦/٧١، ٧٢، والحديث مطولاً في: السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٣٨: ٦٤١، وحديث أنس مطولاً ومختصراً ح ٢٨٧٤، ومسند الإمام أحمد ٣/١٠٤ ح ١٢٠٢٠، و٣/١٤٥ ح ١٢٤٧١، و٣/١٨٢ ح ١٢٨٧٣، و٣/٢٦٣ ح ١٣٧٧٣، وعن أبي طلحة في ٤/٢٩ ح ١٦٣٥٦.

وأمه في الأسرى، قال أبو عزيز: مرَّ بي أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: اشدد يديك به فإن أمه ذات متاعٍ لعلها تفديه منك... قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين بيدر بعد النضر بن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذى أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخى! هذه وصاتك بي؟! فقال له مصعب: إنه أخى دونك، فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم، ففدته بها، وقد أكرم الله أبا عزيز بالإسلام بعد ذلك والصحبة لرسول الله ﷺ، وقد غلط من قال إنه قُتِلَ يوم أحدٍ كافرًا، والحمد لله على ذلك (٢٨٣).

• وهذا مصعب بن عمير الذى كان معه لواء المسلمين في غزوة أحد حتى استشهد بها، ثبت في الصحيح من حديث خباب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَبْتَعِي وَجْهَ اللَّهِ، فَوَجِبَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِمَّا مَن مَضَى، أَوْ ذَهَبَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَبْرُكْ إِلَّا نَمْرَةً - أَى: ثوبًا - كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ؛ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رِجْلَاهُ؛ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الْإِذْخِرَ» أَوْ قَالَ: «الْقُفَا عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ» وَمِمَّا مَن أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ: فَهُوَ يَهْدِيهَا. أَى: يَجِيئُهَا وَيَسْتَمِعُ بِهَا، وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ كَانَ مَتَقَشِّفًا زَاهِدًا بَعْدَمَا كَانَ مَعَ أَبِيهِ أَنْعَمَ غَلَامًا وَأَجُودَةً ثُوبًا؛ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِكِفْنِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَّا ثُوبًا قَصِيرًا لَا يَسْتُرُ جَمِيعَ جَسَدِهِ، فَإِذَا غَطُّوا بِهَا رِجْلَيْهِ ظَهَرَ رَأْسُهُ، وَإِذَا غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ ظَهَرَتْ رِجْلَاهُ، فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخِرِ» وَهُوَ نَبَاتٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ يَضَعُهُ أَهْلُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فِي

(٢٨٣) يُرَاجَع: السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٤٥، ٦٤٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/٣٠٦، ٣٠٧، والإصابة ٧/٢٢٨

ترجمة عزيز بن عمير، ٧/٣٨٠ ترجمة أبي اليسر الأنصارى، وللإمام: راجع قصة حذيفة بن اليمان ١/٢٢١، ٢٢٠.

بيوتهم وقبورهم (\*) .

• وختام هذه النماذج: حنظلة غسيل الملائكة: هو ابن أبي عامر بن صيفي بن مالك، الأوسى الأنصاري، صحابي جليل كان حديث عهدٍ بالزواج، فسمع الدعوة للجهاد، فخرج مسرعاً دون أن يغتسل من الجنابة إلى غزوة أحد، ثم استشهد بها، فغسلته الملائكة، وأما أبوه الذي كان يُدعى في الجاهلية بالراهب: فقد حسد النبي ﷺ ولم يؤمن، وحضر غزوة أحد مع المشركين فاستأذن حنظلة النبي ﷺ في قتل أبيه فنهاه ﷺ عن ذلك. وظل على كفره حتى مات بأرض الروم (٢٨٤).

وبهذا الأدب الرباني؛ والتقويم الإلهي، والتربية المثلّية... تركز الولاء والإخلاص في قلوب أصحاب النبي ﷺ الذين اختارهم الله لرفقة نبيه ومؤازرته ونصرته... فترجمته جوارحهم عملاً وسلوكاً، وقد سردت سورة الأنفال جوانب عديدة من غزوة بدر، كما بينت سورة آل عمران مواقف كثيرة من غزوة أحد، والله أعلم.

وبهذا تحيا المبادئ التي يظن الناس أن أصحابها قد فنوا، لتأسيسها وترسيخ العقائد التي

(\*) راجع ما تقدم في هذا الجزء تحت عنوان: «أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الْأَنْصَارَ: مُصَعَّبُ بْنُ عَمِيرٍ».

(٢٨٤) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «افْتَحَرَ الْحَيَّانُ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَوْسَ وَالْحَزْرَجَ، فَقَالَتِ الْأَوْسُ: مَنَّا غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمِنَّا مَنِ اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمِنَّا مَنْ حَمَتَهُ الدَّبْرُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ، وَمِنَّا مَنْ أُجِيرَتْ شَهَادَتُهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ حُزَيْمَةَ بْنُ ثَابِتٍ، وَقَالَتِ الْحَزْرَجِيُّونَ: مَنَّا أَرْبَعَةٌ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَجْمَعُهُ غَيْرُهُمْ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» مسند أبي يعلى ٣٢٩/٥ ح ٢٩٥٣، وقال محققه: إسناده صحيح، ونحوه في المعجم الكبير للطبراني ١٠/٤ ح ٣٤٨٨ ترجمة ٣١٥: حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرِ بْنِ الرَّاهِبِ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ الْأَوْسِيُّ غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ اسْتَشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد/ كتاب المناقب، باب: فضل الأنصار ٤١/١٠ وقال: رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجالهم رجال الصحيح.

رواها أهلها بدمائهم، وهم عند الله أحياء يرزقون فرحين مستبشرين: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة].

### خَطَرُ النِّفَاقِ وَالْيَهُودِ عَلَى الدَّوْلَةِ النَّاشِئَةِ

بعد أن أظهرت نتائج غزوة بدر جوانب عديدة من قوة المسلمين، وتأييد الله لهم: بدأ غرس النفاق يُخرج شطأه ويشد أزره لمواليتهم لشياطينهم من اليهود القاطنين معهم في المدينة المنورة، وظل ذلك المكر يتنامى ويتعظم حتى وصل إلى جذوته بالمواجهة والحرب المعلنة، وذلك واضح في إجماع اليهود من المدينة كلما نقضوا العهود ولم يلتزموا بالمواثيق، ومن تأمل الآيات في سور: آل عمران والحشر والأحزاب: عرف ذلك فيما حدث لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ومن ناصرهم من المنافقين.

وهذا نموذج لهذا المزيج العكبر بين المنافقين وشياطينهم من اليهود: ذكر الزهري أن إجماع بني قينقاع وقع في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنه كان يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أن ذلك وقع بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجأهروا بعداوتهم للمسلمين، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدر، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبند المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جأهوه بقولهم: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نقرأ من قريش كانوا أغياراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا

نحن الناس، وأنت لم تلق مثلنا... وهكذا بدأت الأزمة تتفاقم إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحاً عدائية، وتحداً واستعلاء واستعداد للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۗ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٣٧﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الَّتِي نَقَبْتُمُ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلِيهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ ۗ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران].

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءت فرصتهم الحظيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ لها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف ﷺ على المدينة: أبا لبابة بن عبد المنذر العمري واسمه بشير، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا تَخَافُ ۖ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]، وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ

خمس عشرة ليلة كما ذكر ابن هشام، واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بذلك، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد، وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأساً وشدة عن مشرقي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتبون أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمى الأوسى، وحاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يجلّ حلفاءه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم: فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يجلهم رجل إلا ضربت عنقه، فاضطر عبدالله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد! أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظلاماً، ثم قال: «ويحك! أرسلني» قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاثة مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»، فخلى رسول الله ﷺ سبيلهم ثم أمر بإجلاتهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحاول ابن أبي بن سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يُقرّهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسى، فردّه عويم وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أبي، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم، ويظهر في



هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبي طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسرون وراء زعامة ابن أبي يصلحون بصلاحه فيتباسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام، وهناك بُعد آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين حيث إن بعض الأنصار حديثي عهد بالإسلام ويخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبدالله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنباً للفتنة وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولا يتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه ومنهم ولده عبدالله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه، بل أرادوا قتله . ولا ينسى مسلم موقف ابن سلول يوم أحد حين رجع بثلاث الجيش من الطريق وكان عددهم ثلاثمائة مقاتل تقريباً .

أما موقف عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان على النقيض مما كان عليه ابن سلول: إذ مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عزوجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يارسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء اليهود ولايتهم، وفي ذلك نزلت الآيات: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَوْلَا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ إِنَّهُمْ

لَعَنَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا حَسْرِينَ ﴿٢٤٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ  
عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى  
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ  
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٣﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٢٤٤﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ  
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٢٤٥﴾ [المائدة].

ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يُجَيِّبَهُمْ، فجعلت  
قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج - ونحن مواليك - فعلت هذا بنا؟ قال لهم  
عبادة: لما حاربتكم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم،  
وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبدالله بن أبي: تبرات من  
حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكره مواطن قد أبلوا فيها، فقال عبادة: يا أبا الحباب،  
تغيرت القلوب، ومحا الإسلام اليهود، أما والله إنك لمُتَعَصِّمٌ بأمر سنرى غِيَّهُ غداً، فقالت  
قينقاع: يا محمد، إن لنا ديناً في الناس، قال النبي ﷺ: «تَعَجَّلُوا وَضَعُوا» وأخذهم عبادة  
بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولا ساعة من نهار لكم ثلاث لا أزيد عليها هذا  
أمر رسول الله ﷺ ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا  
إلى الشام، ولحقوا بأذرع، وهكذا خرجوا من المدينة صاغرين قد ألقوا سلاحهم وتركوا  
أموالهم غنيمة للمسلمين وقد كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة،  
ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع،  
وسيطر الرعب على قلوبها وكسر شوكتها، والفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق

ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي كان مثلاً حياً للمسلم الصادق المخلص لعقيدته؛ إذ تربي على المنهاج النبوي، فصفت نفسه وتطهر قلبه وقوي إيمانه وتنور عقله، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة (٢٨٥).

شَقَّ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ❀❀ ❀❀ وَالْمُشْرِكِينَ مَا رَأَوْا مِنَ الصَّوَابِ  
وَأَنَّ هَذَا الدَّاعِيَ الْعَظِيمَا ❀❀ ❀❀ قَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامَ مُسْتَقِيمَا  
وَأَنَّهُ فِي قَوْمِهِ يَسُودُ ❀❀ ❀❀ وَحَوْلَهُ فِي يَثْرِبِ الْأَسْوَدُ

### شهداء يثرب معونة وأصحاب الرجيع

وبعد ما أصاب المسلمين من ابتلاء في أحد؛ حيث قُتِلَ منهم سبعون: ظنت القبائل المتناثرة خارج المدينة في الجزيرة العربية أنها تستطيع أن تُوقِعَ بالمسلمين أمثالها، فأخذوا يكيدون ويمكرون، ويظهرون خلاف ما يظنون؛ فأبدت قبائل متعددة الرغبة في الدخول في الإسلام، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُمدِّهم بما يعينهم على تحقيق ذلك، فكانت واقعة الرجيع، وبثرب معونة بعد أحد بنحو أربعة أشهر، وبالتحديد: في شهر صفر من العام الرابع للهجرة، (الرجيع) ماءٌ لقبيلة هذيل قرب مكان يسمى (الهدأة) ويقال: (الهدأة) وهو موضع بين عُسفان (٢٨٦) ومكة، كانت الواقعة عنده فسميت به.

(٢٨٥) ينظر في ذلك: السيرة النبوية لابن هشام ٥٤/٣، ٥٥، والمغازي للواقدي ١/١٧٦، والطبقات لابن سعد ٢/٢٩، ٢٨، وتاريخ الطبري ٢/٤٨١، والمحرق الوجيز لابن عطية ١/٤٧٨، ٤٧٧ تفسير آيات سورة المائدة، والسيرة النبوية الصحيحة ١/٢٩٩، ٣٠٢، وموسوعة نضرة النعيم ١/٢٦٩، واليهود في السنة المطهرة ١/٢٧٦، ٢٧٩: ٢٨٥، والسيرة النبوية دروس وعبر لعل محمد الصلابي «غزوة بني قينقاع».

(٢٨٦) عُسفان: بمهملتين الأولى مضمومة، والثانية ساكنة، بعدها فاء آخره نون، علي مرحلتين من مكة وسميت عُسفان

و(بئر معونة) هي بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سليم، حيث غدر بالقراء: قبائل رعل- بكسر الراء- وذكوان وغيرهم، وهذه تعرف بسرية القراء الذين كان عددهم سبعين صحابياً، و(الرجيع) و(بئر معونة) متقاربتان في الزمان والمكان؛ حتى إن بعض مصنفي السير خلط بينهما، وكُلُّهم يقدم موقعة الرجيع على بئر معونة، لكنني أقدم شهداء بئر معونة لشرف القراء، وإظهار التواتر الثابت للقرآن الكريم منذ زمنه الأول، والله المستعان.

وفيما يلي بيان لهاتين الحادثتين مع تجلية ما يستفاد من كل منهما، وبالله التوفيق.

### فَوْزُ الْقُرَاءِ بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

هذا نموذج لحفاظ القرآن يحقق التواتر ويؤكد حفظ القرآن لدى الكثيرين من الصحابة بصفة عامة، ومن الأنصار على وجه الخصوص في وقت نشأة الإسلام وغربته بين قبائل العرب المنتشرة في الجزيرة العربية، حيث قُتل في موقعة بئر معونة سبعون رجلاً من الأنصار كلهم من قُرَاءِ القرآن وحفظته، يقول أنس بن مالك: كنا نسميهم القراء، يَحْتَطِبُونَ بالنهار، وَيُصَلُّونَ بالليل، حتى بلغوا بئر معونة، فغدروا بهم- يعني: الذين زعموا أنهم أسلموا- وقتلهم، فقرأنا فيهم قرآناً، ثم إن ذلك رُفِعَ: بَلَّغُوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا(٢٨٧).

قال فضيلة الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ حَوْلَ هذه الحادثة: ... مع أن هذه الواقعة تُوجِبُ على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أي وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريية، إِلَّا أن ضرورة بث الدعوة- مهما فدحت الخسائر- جعلت النبي ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات

لتعسف السبيل فيها، وقيل: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، معجم البلدان ١٢١/٤، ١٢٢.

(٢٨٧) ينظر: صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب العون بالمدد ١٨٠/٦ ح ٣٠٦٤، وكتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع... وبئر معونة ٣٨٦، ٣٥٨/٧ ح ٤٠٩٠، ٤٠٩١.

على أنها أمرٌ لا بد منه، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حيناً من الدهر، لأن الانسحاب من السوق بُغيةً تجنبها: قضاء عليه، فهو يبقى متحملاً حتى تهبَّ الرياحُ من جديد رخاءً تعوِّض ما فقدَ، وذلك سر استجابة الرسول لأبي براء؛ عامر بن مالك الملقَّب بـ(ملاعب الأُسنة) حين عرض عليه أن يُرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد.

وقد أبدى النبي ﷺ خشيته من أن يُصاب رجاله بسوء، ووسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها، فقال أبو براء: أنا لهم جار (٢٨٨).

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا (بئر معونة) وكانوا سبعين من خيار المسلمين يُعرفون بالقراء، يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، ويحيون على هذا النسق الرتيب بين جهادٍ في الحياة ورغبةٍ في الآخرة.

فلما أمرهم الرسول ﷺ بالمسير لإبلاغ رسالات الله، خرجوا، وما كانوا يعرفون أنهم - جميعاً - يَحْتَوْنَ الحُطَا إلى مصارعهم في أرض انتشر الغادرون في فجاجها.

وحين انتهى القراء إلى (بئر معونة) بعثوا أحدهم - حرام بن ملحان - إلى عامر بن الطفيل رأس الكفر في هذه البقاع، فأعطاه كتاب النبي ﷺ الذي يدعو فيه إلى الإسلام فلم ينظر (عامر) في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة، فما شعر (حرام) إلا وطعنةً نجلاءً تخترق ظهره وتنفذ من صدره، وكان هذه الشهادة المفاجئة لاقت رجلاً يتمناها من قديم فقد صاح (حرام) على أثر ذلك: فُزْتُ وربُّ الكعبة!.

ومضى (عامر) في غَشْمِهِ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم، فانضمت

---

(٢٨٨) رواه ابن هشام ١٨٤/٢، عن ابن إسحاق بسند صحيح مرسلًا، وكذا رواه الطبراني، عن ابن إسحاق كما في مجمع الزوائد ١٢٨/٦، ١٢٩، ورواه الطبراني أيضًا من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نحوه، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

إليه قبائل (رِغِل) و (ذكوان) و (القارة) فهجم بهم عامر على القراء الوادعين.  
ورأى هؤلاء الموت مقبلاً عليهم من كل صوبٍ، فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى، إذ استطاع الأعراب الهمج أن يَغشَوْهُم في رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم.  
وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم (عمرو بن أمية الضمري) ولم يعرفا النبأ المحزن، إلا من أفواج الطير المتوحشة، تنطلق نحو المعسكر مُحَوِّمةً حول الجثث الملقاة على الرمل الأعفر، طامعة مما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها، قالوا: والله إن لهذه الطير لشأناً.  
فأقبلاً لينظروا فإذا القوم مضرجون في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة! قال زميل عمرو له: ماذا ترى؟ قال عمرو: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ نقص عليه الخبر، لكن زميله كره هذا الرأي وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى (المنذر) لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلاً:  
ما كنتُ لأرغبَ بنفسِي عن موطن قُتل فيه المنذر! وما كنت لأبقى حتى أقصَّ خبره على الرجال!  
وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قُتل وأُخذَ عمرو أسيراً، فأعتقه (عامر بن الطفيل) كبير الغادرين عن رقية زعم أنها على أمه!.

ورجع (عمرو) إلى النبي ﷺ حاملاً معه أبناء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تُذَكِّرُ نكبتهم الكبيرة بنكبة (أحد) إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتالٍ واضح، وأولئك ذهبوا في غدرٍ شائنة.

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً، وهم لم يضيّقوا بخسائرهم فحسب؛ بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة: أنها كشفت عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غلٍ كامنٍ على الإسلام وأهله، غلٍ عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، وأباح لكل قادرٍ أن يُلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء.

وفي طريق (عمرو) إلى المدينة لقي رجلين ظنهما من (بنى عامر) فقتلها ثائراً لأصحابه، ثم

تين أنهما من (بني كلاب) وأنها معاهدين للمسلمين.

ولما قدم (عمرو) على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأخبره الخبر، قال النبي ﷺ للناس: «إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْبِرْنَا عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضَيْتَ عَنَّا» (٢٨٩).

ثم قال النبي ﷺ لعمرو: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لِأَدِينَهُمَا» وانشغل بجمع ديابتهما من المسلمين وحلفائهم اليهود!.

إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل... وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَتُؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَارَبُّ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

غير أن هذه الكراهية قد بدا نبتها بعد انتصار (بدر) بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف المترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلبت الليالي بالمسلمين، ولحققتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان.

وقد قلنا: إن النبي ﷺ أدرك هذه الحال بما فعله مع يهود بني قينقاع، وكذلك بعد (أحد) إذ بذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكاتبتهم، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبيين: المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع (أحد) بمثلها أو أشد، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد (٢٩٠).

(٢٨٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٨٨/٧، ٣٨٩-٤٠٩٣ من طريق هشام بن عروة، عن أبيه مرسلًا، لكن رواه بنحوه موصولاً من حديث أنس ٣٨٥/٧، ٣٨٦، ٤٠٩٠، ٤٠٩١، والطبراني من حديث ابن مسعود كما في مجمع الزوائد ٦/١٣٠. (٢٩٠) كتاب: «فقه السيرة» للإمام الغزالي ص ٣١٦: ٣١٩ مع تصرف يسير، ط الأولى، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤٠٨ هـ/

## عاصم بن ثابت ورفاقه والاقتداء بصنيعهم

وهذا نموذج آخر يُشبهه حال من سبقهم، متفق معهم في الزمان، ومُقاربٌ في الجهة والمكان إذ كان في أول السنة الرابعة من الهجرة أيضًا، ولكنهم هذه المرة كانوا عشرة رجال صبروا وثبتوا على الحق حتى نالوا الشهادة، وذلك حين بعثهم رسول الله ﷺ عيونًا إلى مكة، ليأتوه بخبر قريش، وهم: عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، وهو أميرهم، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخبيّب بن عدى الأنصاري، وزيد بن الدثنة الأنصاري، وخالد بن بكير حليف بني عدي بن كعب، وعبدالله بن طارق بن عمرو بن مالك البلوي، ومُعتب بن عبيد أخو عبدالله بن طارق لأمه، وهؤلاء كلهم من السابقين الأولين إلى الإسلام في المدينة، وكلهم قد شهدوا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر الكبرى. قال الحافظ ابن حجر: ولعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعًا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم (٢٩١) فظلوا يسيرون الليل وَيَكْمُنُونَ النهار، فنزلوا بالسَّحَرِ فأكلوا تمر عجوة فسقطت نواة بالأرض، فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنًا، فرأت النواة فأنكرت صغرها، وقالت: هذا تمر يثرب! فصاحت في قومها: أُتَيْتُمْ، فجاءوا في طلبهم فوجدوهم قد كمنوا في الجبل، فلم يُرْعِهِم القوم إِلَّا والرجال بأيديهم السيوف قد غَسَّوْهُم، وكان ذلك بمكان يسمى (الهْدَاةُ) (٢٩٢) بين مكة وعُسْفان على سبعة

١٩٨٨م، وتظر القصة بتامها في السيرة النبوية لابن هشام ١٨٣/٢: ١٨٩ والسيرة النبوية لابن كثير ١٣٩/٣: ١٤٤. (٢٩١) فتح الباري ٣٨٠/٧، والسيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٢: ١٧٤ وتراجهم في: الإصابة ١٩٤/٢، ٢٢٥: ٢٢٧، ٥٠٠، و٣/٤٦٠، ٤٦١، و٤/١١٧، و٦/٥٥، ٥٦، ١٣٦، ١٣٧ ط دار الكتب العلمية بيروت، وقصتهم قد أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه، وأول ترجمة ذكرها فيها هي قوله: باب؛ هل يستأسر الرجل، أي: هل يُسَلَّمُ نفسه للأسر أم لا؟ فتح الباري ١٦٥/٦: ١٦٧، كما أخرجها أصحاب السنن والمسانيد والسِّيَرِ والطبقات كلهم من حديث أبي هريرة، وسيأتي بعدُ: إحدى هذه الطرق مع تحريجها، ولكننا الآن سنسوق القصة بمجموع رواياتها، والله الموفق. (٢٩٢) (الهْدَاةُ) بفتح الهاء والهمزة بينها مهملة ساكنة، كما في البخاري ١٦٦/٦ ويقال: (الهْدَاةُ) بضم الهاء وتشديد المهملة



أميال منها، فلجأ أصحاب رسول الله ﷺ إلى رابية مشرفة أو أرض مرتفعة عالية، فأحاط بهم مائة من بني لحيان (٢٩٣) كلهم رُمَاةً ومعهم مثلهم يشدون أزرهم، ومن ورائهم قومهم من هذيل ينصرونهم؛ فقالوا لهؤلاء الرجال الذين يعدون على الأصابع: اعطوا بأيديكم، واستسلموا للأسر، وانقادوا لنا، فإننا والله لا نريد قتالكم؛ إنما نريد أن نصيب منكم شيئاً من أهل مكة، فقال عاصم: أما أنا فلن أنزل في ذمة كافر، ولا أقبل عهداً من مشرك، اللهم أخبر عنا رسولك، اللهم إني أحمي لك اليوم دينك؛ فاحم لي لحمي.

فاستجاب الله لعاصم، فأخبر رسوله خبره، فأخبر ﷺ أصحابه بذلك يوم أصيبوا، وحمي الله عاصمًا من أعدائه فلم يتهك أحدٌ منهم حُرْمَتَهُ، ولم يقدرُوا على مس شيءٍ منه، حيث أرادت هذيل قطع رأسه بعد قتله لبييعوه لامرأة يقال لها: سلافة بنت سعد؛ أم مسافع وجلاس، ابني طلحة العبدري اللذين قتلها عاصم يوم أحد، وكانت نذرت لئن قُدرت على رأس عاصم لتشرين الخمر في قحفه، فأرسل الله على جسده مثل الظلَّة من الدَّبْرِ (٢٩٤) حتى صارت كالسحابة، كلما اقتربوا منه: طارت في وجوههم تَلدغُهُم، فلما حالت بينه وبينهم الدَّبْرَةُ قالوا: دعوه يُمسي، فتذهب عنه فأنأخذه، فبعث الله الوادي سيلاً فاحتمل عاصمًا فذهب به، وكان عمر يقول لما بلغه خبره: «يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته» وذلك لأن عاصمًا

المفتوحة كما في البخاري ٣٠٨/٧ وقيل في ضبطها غير ذلك، وهي موضع بين عُسفان ومكة، قرب ماء لقبيلة هذيل يقال له (الرجيع) كانت الوقعة عنده فسميت به، وهذه كانت قبل سرية القراء الذين تقدم ذكرهم. ينظر: فتح الباري ٣٧٩/٧، ٣٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٢، ١٨٣: ١٨٧، ومراصد الاطلاع ١٤٢/١، ٦٠٦/٢، و ١٤٥٣/٣.

(٢٩٣) (لحيان) بكسر اللام وسكون المهملة، حي من هذيل، وفي رواية البخاري ١٦٦/٦ قريباً من ماتني رجل ... والجمع بينهما ممكن كما ستراه. وعمدة القارئ ٢٩٢/١٤، ٢٩٣.

(٢٩٤) (الدَّبْرُ، والدَّبْرَةُ) بفتح وتشديد المهلة وسكون الموحدة التحتانية، جماعة النحل والزناير. القاموس ص ٤٩٨.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أَعْطَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا أَنْ لَا يَمَسَّ مُشْرِكًا، وَلَا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ (٢٩٥).

كما حيل بين قريش وبين عاصم حين أرسلت من يأتي بشيء من جسده يعرفونه، لأنه قتل عقبة بن أبي معيط صبرًا بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر، ولقد كان عقبة بن أبي معيط كما ذكر ابن كثير: شَرَّ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَكْثَرَهُمْ كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا وَحَسَدًا وَهَجَاءً لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ أَنْ يُقَدِّمَ عَقْبَةَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْرَى فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ عَقْبَةُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! عَلَامَ أَقْتُلُ مِنْ بَيْنِ مَنْ هَا هُنَا؟ فَقَالَ لَهُ عَاصِمٌ: عَلَى عِدَاوَتِكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ (٢٩٦).

وهكذا مضى عاصم في سبعة من رفاقه إلى ربهم شهداء برة مقبلين غير مدبرين، قد اختاروا لأنفسهم الحياة الحقة، في أكرم المنازل وأعلاها مع النبيين والصديقين، وبقي للناس عظيم القدوة فيهم وجميل التأسى بهم إلى يوم الدين، ولا تزال كلمات عاصم تدوي في سمع الزمان وهو يناضل في هذا القتال غير المتكافئ حيث يقول:

مَا عَلَيَّ وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلٌ ❀❀❀ وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرُّ عُنَابِلُ  
تَنْزِلُ عَنْ صَحْفِهَا الْمُعَابِلُ ❀❀❀ الْمَوْتُ حَقٌّ وَالْحَيَاةُ بَاطِلُ  
وَكُلُّ مَا حَمَّ الْإِلَهَ نَازِلُ ❀❀❀ بِالْمَرْءِ وَالْمَرْءُ إِلَيْهِ آثِلُ  
إِنْ لَمْ أَقَاتِلْكُمْ فَأُتِي هَابِلُ (٢٩٧)

(٢٩٥) يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١/٣٩، ٤٠ ط التحرير - القاهرة، مع ما تقدم من المراجع.  
(٢٩٦) (قتل الأسير صبرًا) هو: أن تشد يده ورجلاه ويمسك حتى تضرب عنقه، وذلك بخلاف المثلة: التي هي قطع بعض الأطراف كالأنف والأذن وغيرها قبل القتل أو بعده، وهي منهي عنها. ينظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٥٨، و٤/٢٩٤، والبداية والنهاية ٣/٣٠٥، ٣٠٦.

(٢٩٧) ذكر هذه الأبيات مع غيرها ابن هشام في السيرة ٢/١٧٠ (النابل) صاحب النبل، ويروى (بازل) وهو القوي (عنابل) بالضم غليظ شديد (المعابل) جمع معبلة، وهو: نصل عريض طويل (حمَّ الإله) قدره، (وآثل) صائر وراجع.

وكذلك بقية العشرة: أعني عبدالله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي، قد لحقوا بأصحابهم، على خير حال، وسلكوا طريق سلفهم إلى أحسن مآل، وإن كانوا في بادئ الأمر قد رضوا بالرخصة بدل العزيمة حيث رَقوا ولانوا واستسلموا للأسر وثوقاً منهم بعهد المشركين وميثاقهم، فلما أعطوا بأيديهم حل المشركون أوتار قسيِّهم فربطوهم بها، فقال عبدالله بن طارق: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فسحبوه وجروه حتى استشهد، وفي رواية ابن إسحاق: أنه انتزع يده من القرآن ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وكان ذلك بمر الظهران وقبره رَحْمَةُ اللَّهِ هناك.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدثنة فابنتاه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان مع مولى له يقال له: نيسطاس إلى التنعيم<sup>(٢٩٨)</sup> وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالسٌ في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً يجب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمدًا<sup>(٢٩٩)</sup>.

وأما خبيب بن عدي: فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بأبيهم الحارث بن عامر الذي قتله خبيب يوم بدر، كما صرح بذلك أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويل الذي وعدنا القارئ الكريم بمطالعتة كاملاً، وهذه رواية البخاري في باب فضل من شهد بدرًا: قال أبو

(٢٩٨) التنعيم: أقرب أماكن الحل إلى الحرم، وكان بينه وبين مكة نحو خمسة كيلو مترات، ويسمى بالتنعيم لأن على يمينه جبل نعيم، وعلى يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نَعْمَانُ -بفتح النون وسكون المهملة- ونقل الحافظ ابن حجر، عن موسى بن عقبة: أن خبيباً صلى ركعتين بموضع مسجد التنعيم. فتح الباري ٧/٣٨٣، والقاموس المحيط ص ١٥٠٢.

(٢٩٩) السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٧١، ١٧٢.

هريرة: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَةَ عَيْنًا وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ، جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَّةِ بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذَكَّرُوا لِحِيٍّ مِنْ هُدَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَتَفَرُّوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامَ، فَاقْتَصَّوْا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَا كَلَّهُمْ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمَّرَ يَتْرَبُ! فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا حَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجُّوا إِلَى مَوْضِعٍ فَاحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا الْقَوْمُ! أَمَا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ نَفَرًا عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، مِنْهُمْ: حُبَيْبٌ وَزَيْدُ بْنُ الدُّثَيْنَةِ وَرَجُلٌ آخَرٌ، فَلَمَّا اسْتَمَكَّنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قَسِيهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، قَالَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَاللَّهُ لَا أَصْحَبَكُمْ، إِنَّ لِي بِهِمْ لَأَسْوَأَ، يُرِيدُ الْقَتْلَ، فَجَرَّرُوهُ وَعَاجَلُوهُ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَأَنْطَلَقَ بِحُبَيْبٍ وَزَيْدِ بْنِ الدُّثَيْنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَأَبْتَاعَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ حُبَيْبًا، وَكَانَ حُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ حُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا (٣٠٠) فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بَيْتُهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَرَزَعَةً عَرَفَهَا حُبَيْبٌ، فَقَالَ: أَنْخَشِينِ أَنْ أَقْتَلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ حُبَيْبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمَوْثِقٌ بِالْحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ حُبَيْبًا (٣٠١) فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ

(٣٠٠) (موسى) يجوز تنوينها وعدمه، وهي آلة يزال بها الشعر (يَسْتَحِدُّ بِهَا) أي: يتطهر بها ويحلق شعر عانته، خشية أن

يظهر منه قبيح إن صلبوه أو مثلوا به بعد قتله، كما أن هذا العمل سُنته من سنن الفطرة. فتح الباري ٣٨٢/٧.

(٣٠١) وفي رواية ابن إسحاق: فلقد اطلعت عليه يومًا وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في

أرض الله عنبًا يؤكل. السيرة النبوية لابن هشام ١٧٢/٢.

هَمْ خَيْبٌ: دَعُونِي أَصْلِي رَكَعَتَيْنِ، فَتَرَكَوهُ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ❀❀❀ عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ إِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ ❀❀❀ يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شَلُوٍ مَمْرَعٍ<sup>(٣٠٢)</sup>

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ أَبُو سُرُوعَةَ عَقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ خَيْبٌ هُوَ سَنٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا: الصَّلَاةَ، وَأَخْبَرَ- يعنى: صَلَّى اللهُ - أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ حَدَّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلًا عَظِيمًا مِنْ عَظَمَائِهِمْ- وهو عقبة بن أبي معيط- فَبَعَثَ اللهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فَحَمَتُهُ مِنْ رُسُلِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا<sup>(٣٠٣)</sup>.

وزاد ابن إسحاق في آخر الخبر: فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حَضَرْتُهُ يَوْمَئِذٍ فِيمَنْ حَضَرَهُ مَعَ أَبِي سَفِيَانَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَلْقِينِي إِلَى الْأَرْضِ فَرَقًا مِنْ دَعْوَةِ خَيْبٍ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ الرَّجُلُ إِذَا دُعِيَ عَلَيْهِ، فَاضْجَعْ لِحَنْبِهِ زَالَتْ عَنْهُ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبَّادٍ، عَنْ عَقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ<sup>(٣٠٤)</sup> قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا أَنَا وَاللَّهِ قَتَلْتُ

(٣٠٢) في رواية أخرى في الصحيح: (ولستُ أبالي...) ، (أوصال) أى: أعضاء، (شَلُوٍ) بكسر المعجمة وسكون اللام: الحسد، (مَمْرَعٍ) أى: مقطع. فتح الباري ٧/٣٨٤.

(٣٠٣) صحيح البخارى: كتاب الجهاد/ باب هل يستأسر الرجل؟ ١٦٥/٦، ١٦٦، وفي كتاب المغازى: باب ١٠ (واللفظ له) ٧/٣٠٨، ٣٠٩، وفي باب غزوة الرجيع ٧/٣٧٨، ٣٧٩، وسنن أبي داود: كتاب الجهاد/ باب الرجل يستأسر ٣/١١٦، ١١٥، ٢٦٦٠، ومسند الإمام أحمد: ٢/٢٩٤، ٢٩٥، ٣١٠ وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحْمَةُ اللهِ ٧٩١٥، ٨٠٨٢، ومسند الطيالسى ص ٣٣٨ ح ٢٥٩٧، والسنن الكبرى للبيهقى: كتاب السير/ باب صلاة الأسير إذا قدم ليقتل ٩/١٤٥، ١٤٦.

(٣٠٤) هذا سندٌ صحيحٌ، وعقبة بن الحارث النوفلي: صحابي أسلم بعد فتح مكة، وبقي إلى خلافة عبد الله بن الزبير،

خبيبا؛ لأنني كنت أصغر من ذلك ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله (٣٠٥).

وقال الحافظ ابن حجر: ذكر أبو يوسف في كتاب: «اللطائف» عن الضحاك: أن النبي ﷺ أرسل المقداد والزيير في إنزال خبيب عن خشبته، فوصلا إلى التنعيم، فوجدا حوله أربعين رجلاً، فأنزلاه، فحملة الزيير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء، فنذر به المشركون، فلما لحقوهم قذفه الزيير فابتلعتة الأرض، فسُمِّيَ: بليغ الأرض (٣٠٦).

ويستفاد من هذه الحادثة فوائد كثيرة، وحكم عظيمة، منها: أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكّن من نفسه العدو ولو أدى ذلك إلى قتله حياً: حتى لا يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالعزيمة، فإن رغب في الرخصة فله أن يقع في الأسر، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وكرهه سفيان الثوري.

ومنها: أن المؤمن يفي للمشركين بالعهد، ويتورع عن قتل أولادهم، والدعاء عليهم بالتعميم، وأنهم مع كفرهم: كانوا يعظمون الحرم والأشهر الحرم. ومنها: ما كان عليه خبيب من قوة اليقين والصلابة في الدين، والثبات على المعتقد، حيث صلى ركعتين قبل القتل، وأنشأ الشعر وأنشده.

ومنها أن الله عز وجل استجاب دعاء عاصم وأصحابه، وأكرمهم في حياتهم وبعد استشهادهم، وأظهر ذلك للعالمين، وأنه سبحانه قد ابتلاهم كما سبق في علمه ليشيهم ويعظم أجورهم ويرفع درجاتهم، وذلك بتمكين المشركين من قتلهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ

انظر: الإصابة ٤/٤٢٧، وتقريب التهذيب ص ٣٩٤.

(٣٠٥) السيرة النبوية لابن هشام ١٧٣/٢.

(٣٠٦) الإصابة ٢/٢٢٦.

مَا فَعَلُوهُ ﴿[الأنعام: ١١٢] (٣٠٧).

وبالرغم من تلاحق الخسائر بالمسلمين في (الرجيع) و(بئر معونة).. ودخول المؤمنين في محنة بعد أخرى: إلا أنهم لم يفقدوا ثقتهم بربهم.. ولم يقطعوا صلتهم بخالقهم، واطمئناتهم لوعده لهم في غدهم ومستقبل أمرهم، فشرعوا يردون الضربة بمثلها، فصبروا على ما نزل بهم من بأساء، كعاصمٍ وخبيبٍ ورفقيهما: الذين تقلبت عليهم أصناف البلاء وألوان التعذيب، فصبروا واحتسبوا وآثروا القتل والشهادة، دون أن يرجع أحد منهم عن دينه، أو ينطق بكلمة الكفر على لسانه، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

### غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ وَبِدَايَةُ الْاِسْتِقْرَارِ

ثم كانت آخر الشدائد التي مرت برسول الله ﷺ وأصحابه: ما وقع في غزوة الأحزاب وهي الخندق، سنة خمس من الهجرة؛ وكانت بداية عهد الاستقرار، إذ في وقت الشدة ينبعث الأمل، وصدق الله إذ يقول: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ﴿٧﴾ [الطلاق] ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿١﴾ [الشرح].

وذلك أن المسلمين بعد أن استقروا بالمدينة؛ وأصبحت لهم فيها دولة: أيقن عدوهم أنهم لن يستطيعوا القضاء على الإسلام إذا حاربتهم كل طائفة على حدة، فأجمعوا أمرهم واتحدوا على الرغم من اختلافهم، فقرروا رمي المسلمين عن قوسٍ واحدة؛ ليستأصلوا شأفتهم ويقضوا على الإسلام قضاءً محققاً، وقد برز ذلك جلياً في عدد الجيش الذي جاءوا به من قريش وخطفان وغيرهما؛ حيث كان عدده نحو عشرة آلاف مقاتل، فكيف إذا انضم إلى ذلك: اليهود المتواطئون

مع جحافل الشرك، ثم المنافقون المطلعون على أسرار المسلمين في المدينة وما حولها!!!  
فأخذ النبي ﷺ وأصحابه يفكرون في دفع هذا العدوان، ويعملون على دَرء ذلك الخطر  
الذي يتهددهم من الداخل والخارج على السواء، وصدق الله إذ يصور لنا بعض هذه المشاهد؛  
ويُظهِرُ لنا كيف أنها أسفرت عن أخلاق الرجال وكشفت عن معادتهم: ﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٦١﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ  
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٦٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا  
شَدِيدًا ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا  
غُرُورًا ﴿١٦٤﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ  
النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٦٥﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّن  
أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ  
لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبِرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٦٧﴾ ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿١٦٨﴾  
وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ  
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٦٩﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ  
تَطُوعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧٠﴾﴾ [الأحزاب].

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه يقول: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ  
فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَجْفَرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ هُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ هُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا



بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ»

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا.

وفي رواية أخرى يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَخْفَرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدًا

قَالَ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ، فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ» (٣٠٨).

وفي أثناء تلك الشدائد يحدث رسول الله ﷺ أصحابه بمستقبل هذه الأمة وظهور ذلك الدين، أخرج الإمام أحمد: بسند حسن، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ، ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، فَضْرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضْرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمُدَائِنَ وَأُبْصِرُ قُصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، وَضْرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» (٣٠٩).

(٣٠٨) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٧/٣٩٢ ح ٤٠٩٩، وصحيح مسلم: كتاب

الجهاد والسير/ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ٣/١٤٣١، ١٤٣٢ ح ١٨٠٥.

(٣٠٩) المسند ٤/٣٠٣.

وله شاهد من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخُنْدَقِ نَحْمِرُ فَعَرَضْتُ كُذْيَةً<sup>(٣١٠)</sup> شَدِيدَةً فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُذْيَةٌ عَرَضْتُ فِي الْخُنْدَقِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنَا نَارِلٌ»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَكَلْبُنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضْرَبَ فَعَادَ كَثِيرًا أَهْيَلٌ أَوْ أَهْيَمٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! انْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لِمَرَأِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعِنَاقٌ، فَذَبَحَتْ الْعِنَاقَ وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثْفِي، قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طَعِيمٌ لِي، فَقُمْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ» قَالَ: «قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتِي» فَقَالَ ﷺ: «قَوْمُوا» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، قَالَ: وَيْحَكَ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ ﷺ: «ادْخُلُوا، وَلَا تَضَاعَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيَحْمَرُّ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيَقْرَبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَعْرِفُ حَتَّى سَبِعُوا، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ ﷺ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»<sup>(٣١١)</sup>.

وهذه لمحة من الشدائد التي تعرض لها المسلمون في هذه الغزوة: فيها تعليم وتأديب للخلف بعدم الاجترأ بتمني حضور تلك المشاهد<sup>(\*)</sup> يوضحها لنا حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي

(٣١٠) والكُذْيَةُ: بضم الكاف وسكون المهملة هي القطعة الصلبة من الأرض لا تؤثر فيها أدوات الحفر. ينظر: عمدة القاري ١٧٩/١٧.

(٣١١) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق ٣٩٥/٧.

(\*) راجع ص ١٧ تحت عنوان: «خصائص السيرة» كلام القاضي عياض: «... ومن محبته ﷺ... وتمني حضور حياته..» وفك الإشكال من كلام القاضي عياض تجده ص ١٠٧ تحت عنوان: «السابقون الذين امتحنوا بالفتنة والأسوة بهم في

الحديث الذي أخرجه مسلم (ح ١٧٨٨) بسنده إلى إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر - أي: برد-، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتينا بخير القوم جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتينا بخير القوم جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتينا بخير القوم جعله الله معي يوم القيامة؟»، فسكنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قم يا حذيفة، فاتنا بخير القوم»، فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «أذهب فاتني بخير القوم، ولا تدعهم علي» - أي: لا تعلمهم بنفسك، وامش في خفاء لئلا ينفروا منك ويقبلوا علي-، فلما وليت من عنده جعلت كأننا أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار - أي: يدفته-، فوضعت سهما في كبد القوس فأردت أن أزميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تدعهم علي»، ولو رميته لأصبتة فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيت فأخبرته بخير القوم، وفرغت: قرزت، فالبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «قم يا نومان» - أي: كثير النوم-.

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن من طريق: محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى منا من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه؟! قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدرنا ما تركناه يمشي على الأرض، وجعلناه على أعناقنا، قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع

ذلك» ونصيحة المقداد بن عمرو لجلسائه يوم أن مر به رجل فقال للمقداد: طوى هاتين العينين اللتين رآنا رسول الله ﷺ، والله لو ددت أنا رأيتنا ما رأيت، وشهدنا ما شهدنا..

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبُرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: «يَا حُدَيْفَةُ، فَادْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينَا»، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيْحُ وَجُنُودُ اللَّهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تَوَرُّهُمْ قَدْرًا، وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ، لِيَنْظُرُ امْرُؤٌ مِنْ جَلِيسِهِ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفْتَنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَّغْنَا عَنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيْحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قَدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَازْتَجَلَّوْا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جِهْلِهِ وَهُوَ مَعْقُوفٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْ لَا عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينِي، ثُمَّ شَتَّتْ لِقَتْلَتِهِ بِسَهْمٍ، قَالَ حُدَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِيَعْضِ نِسَائِهِ مُرْحَلٍ، فَلَمَّا رَأَى أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنَّهُ لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبْرَ، وَسَمِعَتْ غَطْفَانُ بِمَا فَعَلْتَ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ.

فأكرم الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن كبت عدوهم؛ فجعل كيدهم في نحورهم دون أن يغنموا شيئاً أو يتحقق لهم هدفٌ، وامتن الله عز وجل على المؤمنين بهذه النعمة فقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا

لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٦١﴾ إلى قوله تبارك اسمه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ [الأحزاب].  
 كما حلت النعمة بيهود بني قريظة؛ لنقضهم العهد مع رسول الله ﷺ، قال سبحانه:  
 ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٦٢﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب].

وكان ذلك بحكم سعد بن معاذ بن النعمان: أبي عمرو الأنصاري، سيد الأوس، الذي شهد بدرًا باتفاق، وقد رُمِيَ بسهم يوم الخندق، وعاش بعد ذلك شهرًا حتى حكم في بني قريظة، وأُجيبَت دعوته في ذلك، ثم انتقض جُرحُه فمات شهيدًا، بعد أن شفى الله غيظه من يهود بني قريظة، وأقرَّ عينه بفشل قريش في هجومها على المدينة، وانقلابها لتُغزى في عُقر دارها، لا لتغزو الآخرين (٣١٢).

(٣١٢) ترجمة سعد بن معاذ في: الإصابة ٣/٧٠، ٧١، والأحاديث الصحيحة كثيرة في مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نذكر واحدًا منها على سبيل المثال، أخرج الحافظ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه بسنده إلى أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال وجنزة سعد موضوعة: «اهْتَزَّتْهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» فطفق المنافقون في جنازته وقالوا: ما أخفها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إنما كانت تحملها الملائكة معهم». صحيح ابن حبان ٩/٨٩ ح ٦٩٩٣، وأصل حديث أنس عند مسلم ٤/١٩١٦ ح ٢٤٦٧، وأحمد ٣/٢٣٤ ح ١٣٤٥٤، وله شواهد كثيرة من أقواها حديث جابر عند البخاري ٧/١٢٣ ح ٣٨٠٣، ومسلم ٤/١٩١٥، ١٩١٦ ح ٢٤٦٦، وأحمد ٣/٢٩٦، وله شواهد كثيرة تنظر على سبيل المثال في المسند ٣/٢٤ ح ١١١٨٤ عن أبي سعيد الخدري، و٦/٣٢٩ عن رميثة، وصحيح ابن حبان ح ٦٩٩١ عن أسيد بن حُضَيْرٍ، و٦٩٨٨، ٦٩٨٩ عن عائشة، وفيه أحاديث أخرى تنظر في: ٨٥/٩: ٩٠ من حديث ٦٩٨٧: ٦٩٩٦، والله أعلم.

وبهذا نوقن بلا ريب: أن الله عز وجل لن يترك كلمته لتخفق ولا دينه ليُهان ولا أوليائه ليذُلوا... وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ سِيمُوت، أو أَنَّ الدِّينَ سِيضَعْف، أو أَنَّ الْمُسْلِمِينَ سِيَقْضَى عَلَيْهِمْ... فقد كذب وافترى إفكًا مبيّنًا، ويؤكد ذلك اليقين ما حدث للمسلمين أثناء وبعد حصارهم في شعب أبي طالب، وما وقع لرسول الله ﷺ أثناء وبعد هجرته من مكة: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۗ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وفي غزوة الأحزاب دحر الله جحافل الشرك ومن واطأهم وعاونهم من يهود ومنافقين دون أن تُحقق له غاية أو تُرفع لهم راية؛ بل جعلهم الله لمن خلفهم عبرة وآية: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب].

|  |  |  |
|--|--|--|
| ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب]. | ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب]. | ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب]. |
| ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب]. | ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب]. | ﴿٥٠﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥١﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب]. |

وَقَالَ سَلْمَانُ أَلَا تُخَنِدُونَ ❁❁  
 وَخَطَطَ النَّبِيُّ مَوْضِعَ الْعَمَلِ ❁❁  
 وَلَوْ سَمِعْتَ الْقَوْمَ حِينَ يَعْمَلُونَ ❁❁  
 يَا رَبِّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ❁❁  
 فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا ❁❁  
 وَاعْتَرَضَتْهُمْ كُذِبَةٌ فِي الْعَمَلِ ❁❁  
 وَسَطَعَتْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْوَارُ ❁❁  
 وَجَابِرٌ حِينَ رَأَى عَصَبَ الْحَجَرِ ❁❁  
 وَكَانَ عِنْدَهُ قَلِيلٌ مِنْ شَعِيرِ ❁❁  
 وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ لَوْرَأَيْتِ ❁❁  
 وَصَنَعُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ ❁❁  
 وَكَانَ فِي قِصَّتِهِ الشَّهِيرَةَ ❁❁  
 وَأَقْبَلَتْ قَبَائِلُ الْأَحْزَابِ ❁❁  
 وَمِنْ وَرَاءِ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ ❁❁  
 وَاجْتَهَدَ النَّبِيُّ فِي الدُّعَاءِ ❁❁  
 وَقَدْ هَدَى اللَّهُ نُعِيمَ الْأَشْجَعِيِّ ❁❁  
 وَبَاتَ يَسْعَى فِي ذَوِي الرِّيَّاسَةِ ❁❁  
 وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُنْدَهُ ❁❁  
 وَبَعْدَ مَا تَوَلَّتِ الْأَحْزَابُ ❁❁  
 وَقَالَ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ هَيَّا ❁❁  
 إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ الَّذِينَ ❁❁  
 وَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَادِي ❁❁  
 يَقُولُ صَلُّوا الْعَصْرَ فِي دِيَارِهِمْ ❁❁  
 وَقَدْ رَأَوْا مِنْ سُوءِ تِلْكَ الْحَالَةِ ❁❁  
 حَوْلَكُمْ وَفَشَرَهُمْ سَتَتَقُونَ ❁❁  
 وَابْتَدَرُوهُ فِي نُبَاتٍ وَعَجَلٍ ❁❁  
 وَمَعَهُمْ سَيِّدُهُمْ يُرَدِّدُونَ ❁❁  
 وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا ❁❁  
 وَثَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا ❁❁  
 وَدَكَّهَا مُحَمَّدٌ بِالْمِعْوَلِ ❁❁  
 فَفَرِحُوا وَحَزِنَ الْكُفَّارُ ❁❁  
 جُوعًا عَلَى بَطْنِ إِمَامِ الْبَشَرِ ❁❁  
 وَمَعَهُ فِي بَيْتِهِ جَدِي صَغِيرِ ❁❁  
 وَجَهَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى بِكَيْتِ ❁❁  
 ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ سَيِّدَ الْأَتَامِ ❁❁  
 مُعْجِزَةً عَظِيمَةً كَبِيرَةَ ❁❁  
 تُرِيدُ مَا لَمْ يَكْ فِي الْحِسَابِ ❁❁  
 فُرِيظَةَ الْخَبِيثَةِ اللَّعِينَةِ ❁❁  
 لِجَيْشِهِ الثَّابِتِ لِلْأَعْدَاءِ ❁❁  
 وَاعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ هَذَا الْأَلْمَعِي ❁❁  
 وَفَرَّقَ الْجُمُوعَ بِالسِّيَاسَةِ ❁❁  
 وَنَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدَهُ ❁❁  
 تَفَرَّغَ النَّبِيُّ وَالْأَصْحَابُ ❁❁  
 إِلَى خِبَاثِ الطَّبَعِ وَالْمُحَيَّا ❁❁  
 لَا يَحْفَظُونَ الْعَهْدَ وَالْيَمِينَا ❁❁  
 يَدْعُو الْمُجَاهِدِينَ لِلْجِهَادِ ❁❁  
 وَضَايِقُوا الْيَهُودَ فِي حِصَارِهِمْ ❁❁  
 أَنَّهُمْ وَهَلَكَى بِلَا مَحَالَةَ ❁❁

وَرَفَضُوا مَا قَالَهُ الْأَمِيرُ ❀❀ وَكُلُّهُمْ مُنَافِقٌ مُبِير  
 وَاسْتَسْلَمُوا لِحُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ❀❀ وَلَا مَفْرَدُونَهُ وَلَا مَلَاذٍ  
 وَحَكَمَ الْأَوْسِيُّ حُكْمًا عَدْلًا ❀❀ بِأَنْ يُبَادَ الْبَالِغُونَ قَتْلًا  
 وَالسَّبِيَّ لِلنِّسَاءِ وَالنِّدْرَارِي ❀❀ وَنَقَدَ الْحُكْمَ بِأَمْرِ الْبَارِي

### الدَّعْوَةُ الْعَمَلِيَّةُ وَصَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ

قد اتضح مما سبق: أن غزوة الأحزاب كانت أول بشائر الفتح وبداية عهد متميز في تاريخ المسلمين حيث قال ﷺ: «الآن نَغزُوهُمْ وَلَا يَغزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ» (٣١٣).  
 ومن ثم بدأ ﷺ بالأسلوب العملي لنشر الإسلام وتأمين سبله داخل الجزيرة العربية وخارجها، وأبان للعالم أنها ﷺ يريد قدرًا من السلام وقسطًا من القوة، ليؤمن به الدعوة الذين يبلغون الناس دين الله على وجهه الصحيح؛ ويمحيهم من بغى المعتدين: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [مود].  
 وذلك واضح في قبوله ﷺ لشروط صلح الحديبية التي اعتبرها بعض أصحابه شروطًا مجحفة؛ لكنهم أيقنوا بعد ذلك بحكمة العليم الخبير الذي قدر الأمور ودبرها أحسن تدبير، قال جل في علاه: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

(٣١٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي / باب غزوة الخندق ٤٠٥/٧ من حديث سليمان بن صرر، وله شاهد عند البزار من حديث جابر بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب - وقد جمعا له جمعًا كثيرة - : «لا يغزوكم بعدها أبدًا، ولكن تغزوهم» قال الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب المغازي / غزوة الخندق وقريظة ١٣٩/٦: رواه البزار ورجاله ثقات، لكن الحافظ ابن حجر حسن إسناده، ينظر فتح الباري ٤٠٥/٧.



كما تتضح الصورة أكثر جلاءً في الكتب التي بعث بها ﷺ إلى الملوك والأمراء في أقطار الأرض، وفي البعث والغزوات التي بلغت تخوم الشام وأطرافه، مثل مؤتة وذات السلاسل وتبوك وفلسطين.

وفيما يلي عرض لبعض أحداث العام السادس وما بعده إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة.

فبعد غزوة الخندق بنحو أربعة أشهر: قاد النبي ﷺ طائفة من أصحابه وغزا بهم بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع وقتلوا خبيباً وأصحابه، ووصل النبي ﷺ بأصحابه إلى عُسْفَانَ<sup>(٣١٤)</sup> التي تبعد عدة أميال عن مكة، ثم بعث أبا بكر الصديق على رأس جماعة من الصحابة إلى كُرَاع<sup>(٣١٥)</sup> الغميم وهي أيضاً تبعد عدة أميال عن مكة.

• وفي العودة من غزوة بني المصطلق التي وقعت سنة ست من الهجرة نرى موقفاً حدث بين عبدالله بن أبي ابن سلول، رأس النفاق وزعيم المنافقين في المدينة، وبين ابنه عبدالله الصحابي البار، يرويها جابر بن عبدالله فيقول: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ - ضَرَبَ دَبْرَهُ بِيَدِهِ أَوْ بِصَدْرِ قَدَمِهِ - فَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِمُتُهَاجِرِينَ، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتِنَةٌ - أَيْ: اتْرَكُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ فَإِنَّهَا قَبِيحَةٌ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ - فَسَمِعَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ سَلُولٍ، فَقَالَ: أَوْقَدْ

(٣١٤) قال ياقوت: غزا النبي ﷺ بني لحيان بعُسْفَانَ، وقد مضى لهجرته خمس سنين وشهران وأحد عشر يوماً، معجم البلدان ٤/١٢١، ١٢٢.

(٣١٥) (كُرَاع): بضم الكاف آخره مهملة، (الغميم): بفتح المعجمة؛ موضع بناحية الحجاز، وادي أمام عسفان بشمانية أميال، المصدر السابق ٤/٤٤٣.

فَعَلَوْهَا؟ وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي  
أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُهُ! لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»  
فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّهِ لَا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقَرَّ أَنَّكَ الذَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ،  
فَفَعَلَ. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ (٣١٦).

فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي كَانَ بَارًّا بِأَبِيهِ هَيَابًا لَهُ، لَكِنْ مَصْلُحَةُ الْعَقِيدَةِ هِيَ الْمَعْتَبَرَةُ عِنْدَهُ  
أَوَّلًا، فَلَمَّا رَأَى أَبَاهُ يُؤَذَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ مَعَهُ: عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقْتُلَهُ وَيَأْتِيَهُ  
بِرَأْسِهِ قَاتِلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ: لَئِنْ شِئْتَ لَا تَيْتَاكَ  
بِرَأْسِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا، وَلَكِنْ بِرَأْسِ أَبِيكَ، وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ». أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ وَالْبَزَارُ  
مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣١٧).

(٣١٦) التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ ٣٨٩/٥ ح ٣٣١٥ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْحَمِيدِيُّ فِي مَسْنَدِهِ ٥١٩/٢، ٥٢٠  
ح ١٢٣٩، ١٢٤٠.

(٣١٧) حَدِيثٌ حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ ابْنُ وَهَبٍ فِي جَامِعِهِ قَالَ: وَأَخْبَرَنِي شَيْبُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي  
سَلْمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلْوَلٍ وَهُوَ فِي ظِلٍّ...» الْحَدِيثُ.  
١٨٢/١ ح ١١٤، وَشَيْخُ ابْنِ وَهَبٍ هُوَ: شَيْبُ بْنُ سَعِيدِ الْحَبْطِيِّ أَبُو سَعِيدِ التَّمِيمِيِّ، قَالَ ابْنُ عَدِي: «حَدَّثَ عَنْهُ ابْنُ وَهَبٍ  
بِالْمُنَاكِيرِ... ثُمَّ قَالَ: وَأَرْجُو أَنْ لَا يَتَعَمَدَ الْكُذْبُ». الْكَامِلُ فِي الضَّعْفَاءِ ١٣٤٦/٤، وَشَيْخُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَلْقَمَةَ بْنِ  
وَقَاصِ اللَّيْثِيِّ: صَدُوقٌ حَسَنُ الْحَدِيثِ، وَثِقَةٌ بَعْضُهُمْ، وَصَحَّحَ لَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَابْنُ حَبَانَ مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ الْهُمْدَانِيِّ، قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ وَهَبٍ... بِهِ، وَاللَّفْظُ لَهُ. صَحِيحُ ابْنِ حَبَانَ ١٧٠/٢، ١٧١  
ح ٤٢٨.

وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدِ بْنِ بَشْرِ الْحَضْرَمِيِّ، عَنْ شَيْبِ بْنِ سَعِيدٍ... بِهِ. الْمَعْجَمُ الْأَوْسَطُ ح ٢٢٩، وَزَيْدُ بْنُ بَشْرِ الْحَضْرَمِيُّ،  
مِصْرِيٌّ ثِقَةٌ؛ لَهُ مَا يَنْفَرِدُ بِهِ، رَوَى عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِي وَغَيْرُهُ، وَقَالَ: «ثِقَةٌ رَجُلٌ صَالِحٌ عَاقِلٌ، خَرَجَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَهَاتَ  
هِنَاكَ». الْجَرَحُ وَالتَّعْدِيلُ ٥٥٧/٣.

وقبل أن يستدير العام بعد غزوة الأحزاب: عقد النبي ﷺ مع زعماء قريش صلح الحديبية الذي كان أعظم فتح في سيرة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل كان فتح مكة أحد ثمار ذلك الصلح ونتائجه، ودخل في الإسلام في أقل من عامين أضعاف أضعاف من دخلوا فيه من أول البعثة إلى ذلك الصلح.

صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ فِيهِ الْبَرَكَةُ ❁❁ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِتِلْكَ الْحَرْكَةُ  
تَفَرَّغُوا مِنْ حَرْبِ هَؤُلَاءِ ❁❁ لِحَرْبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ  
وَاسْتُؤْمِنَتْ قَرِيشٌ فِي بِلَادِهَا ❁❁ وَوَضَعُوا الْأَسْيَافَ فِي أَعْمَادِهَا  
وَأَصْبَحَتْ طَيْبَةً مُسْتَعِدَّةً ❁❁ لِنَشْرِيدِنِ اللَّهِ تِلْكَ الْمُدَّةُ

ثم واصل النبي ﷺ تبليغ دعوة الإسلام إلى ملوك وأمراء الأرض في ذلك الزمان، فما ترك ملكًا ولا أميرًا، داخل الجزيرة وخارجها: إلا أرسل إليه الكتاب تلو الكتاب يدعو فيه إلى الإسلام، ويحمله تبعة رعيته إذا عرض وأبى.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَيَّ كِسْرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ: يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: «أَسْلِمْتَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمْتُ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِنْهُمُ الْأَرِيسِيِّينَ» (٣١٨) يعني عامة الناس الخاضعين له.

وللحديث متابعة أخرى لشبيب بن سعيد عند البزار من طريق عمرو بن خليفة، عن محمد بن عمرو بن علقمة... به. مسند البزار ح ٢٧٠٨، وعمرو بن خليفة: هو البَكْرَاوِيُّ، يكنى أبا عثمان، شيخ بصري صدوق، رَوَى عَنْ: محمد بن عمرو، وأشعث الحُمْرَانِيِّ، وَعَنْهُ: محمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، وغيرهما. تاريخ الإسلام ترجمة ٢٢٥.  
وذكر الهيثمي الحديث بطريقه في مجمع الزوائد ١٠٩/١ وقال: «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، تَقَرَّدَ بِهِ زَيْدُ بْنُ بِشْرِ الْحَضْرَمِيِّ. قُلْتُ: وَتَقَهُ ابْنُ جَبَّانَ، وَبِقِيَّةِ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ». ح ٤٢٠، وقال عن الطريق الثانية ٣١٨/٩: «رَوَاهُ النَّبْرَازُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ». ح ١٥٧٦١.

(٣١٨) ينظر صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعو إلى الإسلام وباب كتب النبي

فمضت رسل النبي ﷺ تحمل الكتب إلى الأمراء المعينين من قبل الدولة التي يتبعونها، حيث كانت الفرس تحتل أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، فضلاً عن ملك الدولتين الكبيرتين الفرس والروم، والأقاليم التابعة لكل منهما، إذ كانت الرومان تسيطر في ذلك الوقت على أوروبا وأجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا، وكانت الفرس تسيطر على معظم قارة آسيا، إذًا فالمهمة كبيرة، والمسئولية ضخمة، ولكن من لها إلا محمد رسول الله ﷺ والذين معه.

• ولقد مضت الرسل في أمان تؤدي مهمتها، وتبين دين الله لكل من له عقل ولب دون أن يتعرض لهم أحد بأذى؛ لأنهم يحملون رسالة تقتضي ردًا وجوابًا، فكان هذا بمثابة عقد أمان لحاملها مدة مجيئه ورجوعه، حتى إنه يحرم قتله ولو نطق بكلمة الكفر، ففي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: «فَمَا تَقُولَانِ أُنْتُمَا» قَالَا: نَقُولُ كَمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا» (٣١٩).

وسنذكر بعدُ نموذجين أحدهما لملك عربي معين من قبل الدولة الرومانية، والآخر لهرقل نفسه؛ وذلك في معرض الحديث عن غزوتي مؤتة وتبوك.

ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل ٣/١٣٩٣: ١٣٩٧.

(٣١٩) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه الإمام أحمد ح ٣٦٤٢، و٣٧٠٨، و٣٧٦١، و٣٨٣٧، و٣٨٥١، و٣٨٥٥ من طرق إلى عبد الله بن مسعود، وفي ٣/٤٨٧، ٤٨٨ ح ١٥٩٨٩ عن نعيم بن مسعود الأشجعي، واللفظ له، وينظر: سنن أبو داود ح ٢٧٦١، ٢٧٦٢.

## هِجْرَةُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَرَفِيقِيهِ وَإِسْلَامُهُمْ

ظلت مشروعية الهجرة إلى رسول الله ﷺ في مدينته واجبة على كل مسلم ومسلمة، حتى فُتِحَتْ مكةُ في رمضان من العام الثامن للهجرة، وفي تلك الفترة وقعت هجرات من كثيرين من الصحابة لها دلالاتها وفوائدها، نذكر منها نموذجًا واحدًا لصحابي جليل، كان قبل إسلامه حربًا على الإسلام وأهله، وكان أحد سفراء قريش إلى النجاشي لاسترداد المسلمين المهاجرين إلى مكة، لكن محاولاتهم تلك لم تُفلح، ودونك بعض حديثه عن نفسه كما أخرجه أئمة الحديث والسير في مصنفاتهم:

فقد روى ابن إسحاق بسند حسن، ومن طريقه الإمام أحمد في المسند واللفظ له من حديث حبيب بن أبي أوس الثقفي، قال: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ فِيهِ، قَالَ: لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنَ الْأَحْزَابِ (٣٢٠) عَنِ الْخَنْدَقِ، جَمَعْتُ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا يَرُونَ مَكَانِي، وَيَسْمَعُونَ مِنِّي، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ يَعْلُو الْأُمُورَ عَلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، فَمَا تَرَوْنَ فِيهِ؟ قَالُوا: وَمَا رَأَيْتُ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَنْ نَلْحَقَ بِالنَّجَاشِيِّ فَتَكُونَ عِنْدَهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى قَوْمِنَا، كُنَّا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ، فَإِنَّا أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ تَحْتَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ ظَهَرَ قَوْمُنَا فَنَحْنُ مِنْ قَدِّ عُرْفُوا، فَلَنْ يَأْتِيَنَا مِنْهُمْ إِلَّا خَيْرٌ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّأْيُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُمْ: فَاجْمَعُوا لَهُ مَا يُهْدِي لَهُ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا يَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِنَا الْأَدَمِ، فَجَمَعْنَا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، فَخَرَجْنَا

(٣٢٠) أنقل في هذا الهامش وما بعده بعض التتهات من رواية الواقدي: وهو مع ضعفه في الحديث؛ إمام في السير لا يُستغنى عنه، وقد سبقت ترجمته الجزء الأول الهامش رقم: ١٠١.

روى الواقدي: عن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: قال عمرو بن العاص: كنتُ للإسلام مجانبًا معاندًا، فحضرت بدرًا مع المشركين فنجوتُ، ثم حضرتُ أحدًا فنجوتُ، ثم حضرتُ الخندق فقلتُ في نفسي: كم أوضع؟ والله ليظهرن محمد على قريش.

حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّا لَعِنْدَهُ إِذْ جَاءَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ فِي شَأْنِ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ (٣٢١)، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَانِيهِ، فَضَرَبْتُ عَنْقَهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي قَدْ أَجْزَأْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أَدَمًا كَثِيرًا، قَالَ: ثُمَّ قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٌّ لَنَا، فَأَعْطِنِيهِ لِأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا، قَالَ: فَغَضِبَ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضَرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنْ قَدْ كَسَرَهُ، فَلَوْ انْشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَاللَّهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا سَأَلْتُكَ، فَقَالَ: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيكَ رَسُولَ رَجُلٍ يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِيَتَّقْتَلَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَكْذَابُ هُوَ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو، أَطْعِنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَعَلَى الْحَقِّ، وَلَيُظْهِرَنَّ عَلَيَّ مَنْ خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَبَايَعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ وَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكَتَمْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي (٣٢٢).

(٣٢١) في رواية الواقدي: وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه بكتاب كتبه إليه ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان  
(٣٢٢) في رواية الواقدي: .. وفارقتهم كأني أعمد لحاجة فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد سُحِنَتْ تُدْفَعُ، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشَّعْبِيَّة - على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر قرب جدة -، وخرجت من الشَّعْبِيَّة ومعى نفقة، فابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة حتى خرجت على مر الظهران - جنوب الجموم على الطريق من مكة إلى المدينة، ثم مضيتُ حتى كنت بالهَدَّة، إذا رجلاَن قد سبقاني بغير كثير يُريدان منزلاً، وأحدهما داخل في خيمة، والآخر قائم يُمسك الراحتين، فنظرتُ فإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم، قلت: أين تريد؟ قال: محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخذ براقبنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغاربتها، قلت: وأنا والله قد أردت

ثُمَّ خَرَجْتُ عَامِدًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَسْلِمَ، فَلَقَيْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: أَيْنَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَقَامَ الْمُنْسِمُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَنَبِيٍّ، أَذْهَبُ وَاللَّهِ أُسْلِمُ، فَحَتَّى مَتَى؟ قَالَ: قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا جِئْتُ إِلَّا لِأَسْلِمَ، قَالَ: فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٣٢٣)، فَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَأَسْلَمَ وَبَايَعَ، ثُمَّ دَنَوْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، وَلَا أَذْكَرُ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يُجِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا» قَالَ: فَبَايَعْتُهُ ثُمَّ انْصَرَفْتُ (٣٢٤).

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ الْمُعْبِرَةِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ يَقُولُ: قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَرَادَ قَدَفَ فِي قَلْبِي حُبَّ الْإِسْلَامِ، وَحَضَرَ نِي رُشْدِي، وَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرَفْتُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مُوضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ وَأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَظْهَرُ، فَلَمَّا خَرَجَ

محمدًا وأردت الإسلام، وخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعًا في المنزل، ثم تراقبنا حتى قدمنا المدينة. (٣٢٣) في رواية الواقدي: فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يا رباح! يا رباح! فتفاء لنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعنا يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أنه يعينني وخالد بن الوليد، ثم ولى مدبرًا إلى المسجد سريعًا فظننت أنه يبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت، وأنخنا بالحرّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونودى بالعصر فانطلقنا جميعًا حتى طلعتنا عليه صلوات الله عليه، وإن لوجّهه تهللًا، والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا.

(٣٢٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦: ٢٧٨، ومسند الإمام أحمد ٤/١٩٨، ١٩٩ ح ١٧٧٧٧، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/٣٤٦: ٣٤٨، وفي رواية الواقدي: إنَّ عَمْرًا، وخالدًا، وعثمان بن طلحة، قدموا المدينة لهُلال صفر سنة ثمان. المغازي للواقدي: ٢/٧٤١: ٧٤٥ ط الثالثة عالم الكتب - بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ومن طريق الواقدي أخرجها البيهقي في دلائل النبوة ٤/٣٤٣: ٣٤٦، وانظر الخرائط أرقام: ٣٥، ٤١، ٥٤ في كتاب: أطلس تاريخ الإسلام، وراجع ما سبق تحت عنوان: «بيت أبي سلمة أوّل من هاجر إلى المدينة» إذ فيه أن عثمان بن أبي طلحة، هو الذي صحب أم سلمة إلى المدينة.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَدِيثِ خَرَجْتُ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَقَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ  
بُعْسَفَانَ، فَقَمْتُ بِلِزَاءِهِ وَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظَّهْرَ آمِنًا مِنَّا، فَهَمَمْنَا أَنْ نُغَيِّرَ عَلَيْهِ، ثُمَّ لَمْ  
يَعْزِمْنَا - وَكَانَتْ فِيهِ خَيْرَةٌ - فَاطَّلَعَ عَلَيَّ مَا فِي أَنْفُسِنَا مِنَ الْهُمُومِ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ  
صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنِّي مَوْقِعًا وَقُلْتُ: الرَّجُلُ تَمَنُّوعٌ! وَافْتَرَقْنَا وَعَدَلَّ عَنْ سَنَنِ خَيْلِنَا وَأَخَذَ  
ذَاتَ الْيَمِينِ، فَلَمَّا صَالَحَ قُرَيْشًا بِالْحَدِيثِ وَدَافَعْتُهُ قُرَيْشٌ بِالرَّوَّاحِ قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَيُّ شَيْءٍ بَقِيَ؟  
أَيْنَ الْمَذْهَبُ إِلَى النَّجَاشِيِّ؟ فَقَدْ اتَّبَعَ مُحَمَّدًا، وَأَصْحَابُهُ آمِنُونَ عِنْدَهُ، فَأَخْرُجُ إِلَى هِرَقْلِ؟ فَأَخْرُجُ مِنْ  
دِينِي إِلَى نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَهُودِيَّةٍ، فَأُقِيمُ مَعَ عَجَمٍ تَابِعًا، أَوْ أُقِيمُ فِي دَارِي فِيَمَنْ بَقِيَ؟ فَأَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ  
دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقُضَيْبِ، فَتَغَيَّبْتُ فَلَمْ أَشْهَدْ دُخُولَهُ، وَكَانَ أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ  
قَدْ دَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقُضَيْبِ، فَطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي فَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللَّهِ  
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَعَقْلِكَ عَقْلِكَ! وَمِثْلُ  
الْإِسْلَامِ جِهْلُهُ أَحَدٌ؟ وَقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْكَ فَقَالَ: «أَيْنَ خَالِدٌ؟» قُلْتُ: يَأْتِي اللَّهُ بِهِ،  
فَقَالَ: «مَا مِثْلُهُ جَهْلُ الْإِسْلَامِ! وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نَكَائِيَّتَهُ وَجَدَهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، لَكَانَ  
خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ». فَاسْتَدْرِكُ يَا أَخِي مَا فَاتَكَ، فَقَدْ فَاتَكَ مَوَاطِنُ صَالِحَةٍ، قَالَ: فَلَمَّا  
جَاءَنِي كِتَابُهُ نَشِطْتُ لِلْخُرُوجِ، وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَسَرَرَنِي مَقَالَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ خَالِدٌ:  
وَأَرَى فِي النَّوْمِ كَأَنِّي فِي بِلَادِ ضَيْقَةَ جَدِيدِيَّةٍ، فَخَرَجْتُ إِلَى بَلَدٍ أَحْضَرَ وَاسِعٍ، قُلْتُ إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا.  
فَلَمَّا قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ قُلْتُ: لَأَذْكُرَنَّهَا لِأَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَذَكَّرْتَهَا فَقَالَ: هُوَ مَخْرُجُكَ الَّذِي هَذَاكَ اللَّهُ  
لِلْإِسْلَامِ، وَالضَّيْقُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ. فَلَمَّا أَجْمَعْتُ الْخُرُوجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: مَنْ  
أَصَاحِبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ؟ فَلَقَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا وَهْبٍ، أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ إِنَّمَا  
نَحْنُ أَكْلَةُ رَأْسٍ، وَقَدْ ظَهَرَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَلَوْ قَدِمْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ فَاتَّبَعْنَاهُ فَإِنَّ شَرَفَ  
مُحَمَّدٍ لَنَا شَرَفٌ، فَأَبَى أَشَدَّ الْإِبَاءِ وَقَالَ: لَوْ لَمْ يَبْقَ غَيْرِي مِنْ قُرَيْشٍ مَا اتَّبَعْتَهُ أَبَدًا، فَافْتَرَقْنَا وَقُلْتُ:



هَذَا رَجُلٌ مَوْثُورٌ يَطْلُبُ وَتَرًا، قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ بِيَدِي، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتُ لِصَفْوَانَ، فَقَالَ لِي مِثْلَ مَا قَالَ صَفْوَانُ، قُلْتُ: فَاطُوا مَا ذَكَرْتُ لَكَ، قَالَ: لَا أَذْكَرُهُ وَخَرَجْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي تُخْرَجُ إِلَيَّ، فَخَرَجْتُ بِهَا إِلَى أَنْ أَلْقَى عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا لِي لَصَدِيقٌ وَلَوْ ذَكَرْتَ لَهُ مَا أُرِيدُ! ثُمَّ ذَكَرْتُ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ فَكَرِهْتُ أَذْكَرُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: وَمَا عَلَيَّ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةٍ نَعْلَبُ فِي جُبْحِرٍ، لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ ذَنْبٌ مِنْ مَاءِ لَحْرَجٍ، قَالَ: وَقُلْتُ لَهُ نَحْوًا مِمَّا قُلْتُ لِصَاحِبِيهِ، فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَقَالَ: لَقَدْ غَدَوْتُ الْيَوْمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْدُوَ، وَهَذِهِ رَاحِلَتِي بِفِخِّ مَنَاخَةٍ، قَالَ: فَاتَعَدْتُ أَنَا وَهُوَ بِيَأْجِجَ، إِنْ سَبَّخَنِي أَقَامَ وَإِنْ سَبَّخْتَهُ أَقَمْتُ عَلَيْهِ. قَالَ: فَأَذْجَنَّا سَحْرًا فَلَمْ يَطْلُعِ النَّجْرُ حَتَّى التَّقِينَا بِيَأْجِجَ، فَغَدَوْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْمُدَّةِ، فَنَجِدَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِهَا فَقَالَ: مَرَحَبًا بِالْقَوْمِ! فَقُلْنَا: وَيْكَ! قَالَ: أَيْنَ مَسِيرُكُمْ؟ قُلْنَا مَا أَخْرَجَكَ؟ قَالَ: فَمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمْ؟ قُلْنَا: الدَّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ: وَذَلِكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي، قَالَ: فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَأَتَخْنَا بِظَاهِرِ الْحَرَّةِ رِكَابَنَا، فَأَخْبَرَ بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسُرَّ بِنَا، فَلَبِستُ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمَّ عَمِدْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَقِينِي أَخِي فَقَالَ: أَسْرَعُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ بِكَ فَسُرَّ بِقُدُومِكَ وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ، فَأَسْرَعْتُ الْمُسْنَى فَطَلَعْتُ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنَّبُوءَةِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهِ طَلِقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْكَ رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي هَذَا! قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسَلِّمَكَ إِلَّا إِلَى الْخَيْرِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ عَلَيْكَ مُعَانِدًا عَنِ الْحَقِّ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَيَّ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَالِدٍ كُلِّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ» قَالَ خَالِدٌ: وَتَقَدَّمَ عَمْرُو، وَعُثْمَانُ، فَبَايَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ قُدُومَنَا فِي صَفَرِ سَنَةِ ثَمَانَ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

مِنْ يَوْمِ أَسْلَمْتُ يَعْدِلُ بِي أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِيمَا حَزَبَهُ (٣٢٥).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه واللفظ له من حديث عبد الرحمن بن شماس المهرري، قال: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوْلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نَعِدُ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقِ ثَلَاثِ، لَقَدْ رَأَيْتَنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمَكَنْتُ مِنْهُ، فَفَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَحَبَسْتُ يَدِي، قَالَ ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ، وَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَلَا تَصْحَبَنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشَنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جُزُورٌ وَيُقَسَّمُ لِحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنَسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرُ مَاذَا أَرَا جُعُ بِهِ رُسُلُ رَبِّي (٣٢٦).

وهكذا كان عمرو بن العاص داهية العرب رأياً وعقلاً ولساناً، ومع ذلك تأخر إسلامه

(٣٢٥) المغازي للواقدي ٢/٧٤٥: ٧٤٩، وهو يتقوى بها قبله وبها بعده.

(٣٢٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١/١١٢، ١١٣ ح ١٢١، ومسنده

الإمام أحمد ٤/٢٠٥ ح ١٧٨٢٧ مختصراً.

أكثر من عشرين سنة من بعثة النبي ﷺ، ولما أسلم كان النبي ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفة وشجاعته، وولاه غزاة ذات السلاسل، وأمهه بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح، أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط مسلم من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ اتَّبِنِي» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَدَ فِي النَّظَرِ ثُمَّ طَاطَأَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيَسْلَمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعُبُ - أَيْ: أَدْفَعُ - لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ زَعْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نَعْمًا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» (٣٢٧).

ومن مناقب عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أيضًا - أن رسول الله ﷺ استعمله على عُمان، فمات ﷺ وعمرو أميرها، ثم كان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام في زمن عمر، وهو الذي افتتح قنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولاه عُمر فلسطين، وقد ولي مصر عشر سنين وثلاثة أشهر: أربعة من قبيل عمر، وأربعة من قبيل عثمان، وستين وثلاثة أشهر من قبيل معاوية، ولما حضرته الوفاة قال لابنه عبدالله: اتنى بجامعة - رباط من قماش - فشدّها بها يديّ إلى عنقي، ففعل، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إنك أمرتني فعصيتُ، ونهيتني فتجاوزتُ، ولستُ عزيزًا فانتصر، ولا بريئًا فأعتذر، ولكني أشهد أن لا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك، ثم وضع إصبعه في فمه كالمفكر المنتدم حتى مات سنة ٤٣ من الهجرة، عن عُمرٍ يناهز التسعين عامًا، فرحمه الله وغفر له، وزاد في إحسانه، وتجاوز عن سيئاته، فإنه من صحابة رسول الله ﷺ (٣٢٨).

(٣٢٧) مسند الإمام أحمد ٤/١٩٧ ح ١٧٧٦٣ واللفظ له، وفي ٤/٢٠٢، ٢٠٣ ح ١٧٨٠٢ بنحوه، وقد أسهب الشيخ شعيب في تحريجه، فليراجعه من أحب.

(٣٢٨) ينظر: الإصابة ٤/٥٣٧: ٥٤١، وفتح المنعم شرح صحيح مسلم لأستاذنا الدكتور: موسى شاهين لاشين رحمه الله

## غزوة مؤتة

وكذلك كان خالد بن الوليد؛ سيف الله الذي فتح الله للمسلمين على يديه ونصرهم، حيث بعث النبي ﷺ في شهر جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة: كتاباً إلى أمير بصرى (٣٢٩) بأرض الشام مع الحارث بن عمير الأزدي، فاعترضه في طريق عودته شرحبيل بن عمرو الغساني بمؤتة من بلاد الأردن، وسأله: أنت من رسل محمد؟ قال نعم، فأوثق رباطه وقتله صبراً (٣٣٠) متناسياً تلك المسئلة البديهية التي لا نقاش فيها: وهى أن الرسل لا تقتل، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فترامت تلك الأخبار إلى النبي ﷺ والمسلمين بالمدينة، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس، فأسرعوا وعسكروا بالجرف (٣٣١) ولم يبين الأمر، فلما صلى الظهر جلس في أصحابه وقال ﷺ: «زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قُتل زيدٌ: فجعفرٌ، وإن قُتل جعفرٌ: فعبد الله بن رَوَاحَةَ، فإن أصيب عبدالله بن رواحة فليرض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم» وعقد لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، فودع الناس الأمراء، وخرج معهم إلى مؤتة ثلاثة آلاف، وجعل المسلمون ينادون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، وشيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع شمال غرب المدينة... وأمرهم أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير (٣٣٢).

فمضى الجيش إلى مؤتة؛ لزلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان، وإعادة

تعالى ١٠٧/٢: ١١٠.

(٣٢٩) (بصرى): مدينة بها كثير من الآثار الرومانية والإسلامية جنوب شرق دمشق، بينهما نحو ١٤٠ كم.

(٣٣٠) أي حبساً من غير طعام ولا شراب حتى مات، القاموس المحيط ٦٨/٢.

(٣٣١) (الجرف): مكان واسع يجتمع فيه الجيش، ويقع في شمال المدينة دون جبل أحد. أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٦.

(٣٣٢) ينظر في ذلك؛ صحيح البخارى: كتاب المغازى/ باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٥١٠/٧ ح ٤٢٦١، وإمتاع

الأسماع للمقرئى ٣٤٤/١: ٣٤٧.

هيئة الدولة الفتية أمام تلك الأمبراطورية، وكان عدد الجيش كبيرًا بالنسبة للمسلمين؛ لكنه لقي من الروم نحو مائة ألف، ومثلهم من العرب المواليين لهم، فكان الارتداد المأمون أفضل من النصر.

وهؤلاء القادة الثلاثة: كلهم في سن الشباب، وقد أخبرهم رسول الله ﷺ بمصرعهم دون أن يُقْت ذلك في عضدهم وحاسهم لنيل الشهادة، وانطلق الجيش تحت إمرة زيد بن حارثة الذى استشهد في هذه الغزوة مقبلًا غير مدبرٍ، وهو ابنُ بضعٍ وثلاثين سنة (٣٣٣).

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام؛ إلا أن أخباره سبقته إلى الروم، ولا بد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف، فلما وصل المسلمون إلى معان- مدينة في جنوب الأردن- عرفوا أن في انتظارهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب.

والهجوم على جيشٍ تلك عُدت مجازفةً مُخيفَةً، فأقام المسلمون ليلتين بمعان يتدبرون أمرهم، وقال نفر منهم: نكتب إلى رسول الله نخبه بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالرجوع إليه، ولم يرق ذلك لعبدالله بن رواحة فشجع الناس قائلاً: يا قوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون- الشهادة!- وما نقاتل الناس بَعْدٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، والله! لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أُحُدٍ فرس واحد! فإنما هى إحدى الحسينين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خُلفٌ؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان، فشجع الناس وزحفوا شمالاً إلى مؤتة، فالتقوا بعدوهم ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح، قال أبو هريرة: وقد

(٣٣٣) راجع: ما تقدم فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُوَالِي» ١/١٨٨.

شهدت ذلك فبرق بصرى، فقال لى ثابت بن أقرم: يا أبا هريرة! مالك؟ كأنك ترى جموعًا كثيرة؟ قلت: نعم! قال: لم تشهدنا ببدر، إننا لم ننصر بالكثرة.

وقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم: واللواء بيد قائدهم زيد بن حارثة، فقاتل، وقاتل الناس معه؛ حتى قُتِلَ طعنًا بالرماح فكان أول شهيد.

ثم أخذ اللواء القائد الثانى؛ جعفر بن أبى طالب الهاشمى؛ ذو الجناحين، وصاحب الهجرتين، الذى أسلم النجاشى ومن تبعه على يديه، فنزل عن فرسه فقطع عرقوبها فكانت أول فرس عقرت فى الإسلام، وهذا مشروع عند اشتداد الحرب؛ كى لا تكون عائقًا له، وحتى لا يظفر بها العدو فيستعين بها على المسلمين.

ثم أقبل على الروم يجالدهم بعنف، وهو يُنشد:

يَا حَبَدًا الْجَنَّةَ وَاقْتِرَابَهَا! ❀❀❀ طَيِّبَةً، بَارِدًا شَرَابَهَا!

وَالرُّومُ رَوْمٌ قَدْ دَنَا عَدَايَهَا ❀❀❀ كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابَهَا!

عَلَىٰ إِنْ لَأَقِيْتُهَا ضِرَابَهَا

وظل يقاتلهم حتى قُتِلَ وبه أكثر من تسعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فيما بين منكبيه من قِبَل يديه، كان قد أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد وهو ابن بضع وثلاثين سنة؛ فهو يطير فى الجنة بجناحيه.

يقول عبد الله بن عمر؛ وهو أحد فرسان تلك المعركة، وكان شاهد عيان: التَّمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَّةٍ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا فِي دَبْرِهِ، يَعْنَى فِي ظَهْرِهِ، وَكَانَ إِذَا سَلِمَ عَلَىٰ أَحَدِ أَبْنَاءِ جَعْفَرَ يَقُولُ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ ذِي الْجَنَاحِينَ (٣٣٤).

ثم تلقف اللواء القائد الثالث عبدالله بن رواحة؛ الخزرجى الأنصارى، الذى كان أحد النقباء فى بيعة العقبة، فجاءه ابن عم له بقطعة لحم قائلاً: شد بها صلبك؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فما كاد يقطع منها مضغة؛ حتى سمع الحطمة فى ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب، فقال لنفسه: وأنت فى الدنيا؟! ورمى بالطعام، ثم انتضى سيفه وهو يقول:

يَا نَفْسُ إِنَّ لِمِ تَقْتَلِي تَمَوْتِي! ❀❀❀ هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيَتْ!

وَمَا تَمْنِيَتْ فَقَدْ أُعْطِيَتْ! ❀❀❀ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ!

وتقدّم فقاتل حتى قُتِل.

ثم أخذ اللواء الذى تداولته أيدي الأمراء الثلاثة: ثابت بن أقرم، وصاح: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فلما نظر إلى خالد بن الوليد؛ قال: خذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: أنت أحق به، أنت رجل لك سنٌّ؛ وقد شهدت بدرًا، قال ثابت: خذه أيها الرجل، والله! ما أخذته إلا لك، وذلك الموقف من ثابت بن أقرم ليس تخوفًا من الموت ولا نكوصًا على الأعقاب، وإنما هو شعور منه بوجود الأكفأ فى القيادة، فهو قد حمل الراية؛ حتى لا تسقط.

فأخذ خالد بن الوليد اللواء، وشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا الموقف المتضايق؛ فإن الانسحاب بأقل الخسائر هو الأفضل فى تلك المعركة غير المتكافئة، ومما يدل على بسالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى تلك الغزوة؛ قوله المدون فى الصحيح: لَقَدْ دُقَّ - أَيْ كُسِرَ - فِي يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةَ تِسْعَةَ أَصْيَافٍ، وَصَبَرْتُ فِي يَدِي صَفِيحَةً لِي يَمَانِيَةً<sup>(٣٣٥)</sup>.

وكان استشهاد عبدالله بن رواحة فى آخر النهار، ثم دخل الليل وخالد أمير الجيش يبلى بهم أحسن البلاء وينكل بالعدو أشد التنكيل؛ حتى حجز الظلام بين المتحاربين، فكانت هدنة مؤقتة،

فلما أسفر الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة، فجعل المقدمة ساقه، والميمنة ميسرة. وجعل هدفه مناوشة الرومان، بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام، وقد أفلحت خطته في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه، وإنقاذ سمعة المسلمين في أول معركة لهم مع الدولة الكبرى. والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقههم انكشفت، وولت مهزومة.

أخرج مسلم وأحمد وأبو داود- واللفظ له- من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خَرَجْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِي غَزْوَةِ مُؤَتَةَ، فَرَأَيْتُنِي مَدَدِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ سَيْفِهِ، فَنَحَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جُزُورًا، فَسَأَلَهُ الْمُدَدِيُّ طَائِفَةً مِنْ جَلْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَاتَّخَذَهُ كَهَيْئَةِ الدَّرَقِ، وَمَضَيْنَا فَلَقِينَا جُمُوعَ الرُّومِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ أَشْقَرٌ عَلَيْهِ سَرَجٌ مُذْهَبٌ وَسِلَاحٌ مُذْهَبٌ، فَجَعَلَ الرُّومِيُّ يُغْرِي بِالْمُسْلِمِينَ، فَقَعَدَ لَهُ الْمُدَدِيُّ خَلْفَ صَخْرَةٍ، فَمَرَّ بِهِ الرُّومِيُّ فَعَرَقَبَ فَرَسَهُ فَخَرَّ وَعَلَاهُ فَفَتَلَهُ وَحَازَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ، بَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَخَذَ مِنَ السَّلْبِ، قَالَ عَوْفٌ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا خَالِدُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالسَّلْبِ لِلْقَاتِلِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي اسْتَكْثَرْتُهُ، قُلْتُ: لَتَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ، أَوْ لَأَعْرِفَنَّكَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ، قَالَ عَوْفٌ: فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفَصَّصْتُ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمُدَدِيِّ وَمَا فَعَلَ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَكْثَرْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالِدُ! رُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ». الحديث بطوله (٣٣٦).

(٣٣٦) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل ٣/١٣٧٣، ١٣٧٤ ح ١٧٥٣ الرواية رقم ٤٣، ٤٤، ومسنَد الإمام أحمد ٦/٢٧، ٢٨، وسنن أبي داود: كتاب الجهاد/ باب في الإمام يمنع القاتل السلب ٣/١٦٣:



وفيه: أن المسلمين غنموا من الروم، وألحقوا بهم خسائر فادحة، فعلى أى شيء تكسرت  
الأسياف التسعة فى يد خالد؟! ثم ماذا صنع بالصفحة اليمانية التى بقيت فى يده؟! ثم ماذا فعل  
أبو قتادة وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيرهما من فرسان رسول الله ﷺ.

نعم: كانت هناك طائفة لاذت بالفرار لما رأت جموع الروم المحتشدة ولا حرج عليها فى ذلك؛  
لأن الواحد منهم يقابله عشرات الأضعاف من الأعداد، يقول عبدالله بن عمر: لقينا العدو، فحاص  
الناس حيصه فكنت فيمن حاص، واكتفى خالد بهذا النصر، وأثر الانحياز إلى النبى ﷺ الذى هو  
فئة كل مسلم، ورجع بالجيش إلى المدينة؛ فلم يكونوا فراراً، وإنما كانوا هم الكُرَار (٣٣٧).

وفى هذه الغزوة: آيةٌ باهرة، وعلم من أعلام النبوة الظاهرة، ومعجزة لرسول الله ﷺ حيث  
أخبر الناس بوقائعها ساعة حدوثها؛ وهو على المنبر يخطب، فقال: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ  
أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ» قال أنس: وَعَيْنَاهُ ﷺ تَذَرِفَانِ، ثم  
قال ﷺ: «حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ» (٣٣٨).

كما أن عدد الشهداء فيها كان اثنى عشر رجلاً على أكثر تقدير؛ أربعة من المهاجرين، وبقيتهم  
من الأنصار.

قال ابن كثير: وهذا عظيم جداً؛ أن يتقابل جيشان متعاديان فى الدين، أحدهما: هو الفئة التى  
تقاتل فى سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل.. يتبارزون

(٣٣٧) راجع فى تفاصيل تلك الغزوة وما حصل فيها من غنائم: سنن أبى داود ٦٢/٣، ٧٣ ح ٢٥٧٣، و١٠٦/٣، ١٠٧  
ح ٢٦٤٧، و١٦٣/٣: ١٦٥ ح ٢٧١٩، وأصله فى مسلم ١٣٧٣/٣، ١٣٧٤ ح ١٧٥٣ الرواية ٤٣، ٤٤، ومسنند الإمام أحمد  
١٠٠/٢ ح ٥٧٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٧٣/٢: ٣٨٩، والسيرة النبوية لابن كثير ٤٥٥/٣: ٤٩١، وإمتاع الأسماع  
للمقرئى ٣٤٤/١: ٣٥٢، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص ٤٠٩: ٤١٤.

(٣٣٨) صحيح البخارى ١٦٦/٣ ح ١٢٤٦، و١٦/٦ ح ٢٧٩٨، و١٨٠/٦ ح ٣٠٦٣، و١٠١/٧ ح ٣٧٥٧، و١٠٢/٧ ح  
٤٢٦٢.

ويتصاولون، ثم مع هذا كله: لا يُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قُتِلَ من المشركين خلق كثير (٣٣٩).

فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ الْهَجْرِيَّةِ ❀❀ بُورِكَتِ الْغَزْوَةِ وَالسَّرِيَّةِ  
 وَكَمْ أَتَى فِيهَا مِنَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ ❀❀ وَالْإِنْتِصَارِ لِجَيْوشِ الْمُسْلِمِينَ  
 إِلَّا الَّذِي أَصَابَ أَهْلَ اللَّهِ ❀❀ زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَعَبْدَ اللَّهِ  
 فِيمَا جَرَى عَلَى حُدُودِ الشَّامِ ❀❀ يَوْمَ لِقَاءِ الْعُرْبِ وَالْأَرْوَامِ  
 وَإِنَّ خَالِدًا لَسَيْفُ اللَّهِ ❀❀ سَمَّاهُ إِذْ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ  
 وَأَحْسَنَ التَّدْبِيرِ فِي الْكِفَاحِ ❀❀ كَبَشُ بَنِي مَخْزُومٍ لِلنِّطَاحِ

### غزوة ذات السلاسل

وقعت هذه الغزوة في جمادى الآخرة سنة ثمان في قول الجمهور، وكان أميرهم فيها عمرو بن العاص، وأمره رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى مشارف الشام؛ حيث بلاد أخوال أبيه: العاص بن وائل السهمي؛ من بلى ومن يليهم من قضاة ليتألفهم ويدعوهم إلى الإسلام، فلما وصل إلى ماء يقال له السلاسل؛ خاف غدر تلك القبائل الضارية، فبعث إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد، فبعث إليه بطائفة من المهاجرين الأولين؛ فيهم أبو بكر وعمر تحت قيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، وعهد إليه: إذا لقيت صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، فلما قدموا على عمرو، قال: أنا أميركم، وأنا أرسلتُ إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم، قال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك؛ وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فلما رأى ذلك أبو عبيدة؛ وكان رجلاً حسن الخلق، لين الشيمة، قال: إن عصيتني لأطعنك، فسلم إليه الإمارة، وصلى عمرو بالناس.

وليس معنى ذلك أن عمراً أفضل من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وغيرهم من السابقين الأولين

إلى الإسلام والمهجرة؛ بل لأنه أيقظ عينًا، وأبصر بالحرب، ولقد غضب عمر حين أمرهم عمرو بن العاص ألا ينوروا نارًا بالليل، فأخبره أبو بكر: أن رسول الله ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، ثم سار عمرو بالجيش؛ وقد بلغوا خمسمائة رجل، يواصلون الليل بالنهار في السير، فكلما انتهى عمرو إلى موضع؛ قيل له: كان هنا جمعٌ فلما سمعوا بك تفرقوا، ولقى في آخر ذلك على مشارف الشام جمعًا ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل، ثم حمل المسلمون عليهم فهربوا وتفرقوا في البلاد، ودوخ عمرو من هناك، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فكانوا ينحرون ويذبحون، وقد انزاح بهذا غبارٌ كثيرٌ عن سمعة المسلمين في تلك البلاد<sup>(٣٤٠)</sup>، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال].

وفي طريق عودته وقعت حادثة لعمرو بن العاص تدل على حسن فهمه وجميل اجتهاده وعظيم فقهه... في مقاصد الشريعة وتأويل نصوصها، وأقره النبي ﷺ على ذلك، فأخرج أبو داود وغيره بسند صحيح إلى عمرو بن العاص قال: اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ: فَنِيَمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الْإِغْتِسَالِ، وَقُلْتُ إِيَّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [النساء]، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا<sup>(٣٤١)</sup>.

(٣٤٠) تُراجع روايات تلك الغزوة عند الإمام البيهقي في دلائل النبوة ٤/٣٩٧: ٤٠١.

(٣٤١) سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب إذا خاف الجنب البرد: أيتيم؟ ١/٢٣٨ ح ٣٣٤، ومن طريقه البيهقي في

دلائل النبوة ٤/٤٠٢، ٤٠٣.

## الفتح الأعظم وسببه

وهكذا شغل المسلمون بعد صلح الحديبية بنشر الدعوة وعرض تعاليم الإسلام على كل ذى عقل، وكان وفاؤهم لقريش أمرًا مقررًا فيما أحبوا وفيما كرهوا، ورأى الناس من ذلك الآيات البينات.

لكن قريشًا ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره في العالم كله، وكان أول ذلك التغيير الجذري هو: أن فتح الله على المسلمين مكة التي كانت من قَبْلِ قلعة الشرك وحصن المشركين، وكان ذلك الفتح العظيم في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

والسبب المباشر لذلك الفتح؛ يتضح فيما أخرجه البيهقي بسند صحيح إلى ابن إسحاق قال: حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَالْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ جَمِيعًا، قَالَا: كَانَ فِي صَلْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ: أَنَّهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ، فَتَوَاتَبُوا خِزَاعَةَ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ نَدْخُلُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةِ أَوْ الثَّمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ إِنَّ بَنِي بَكْرٍ الَّذِينَ كَانُوا دَخَلُوا فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ وَتَبَوَّأُوا عَلَى خِزَاعَةِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ لَيْلًا بِمَاءِ هَمٍّ يُقَالُ لَهُ «الْوَتِيرُ»<sup>(٣٤٢)</sup> قَرِيبٍ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدًا، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ، فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْكَرَاعِ وَالسَّلَاحِ، فَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُمْ لِلصَّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ رَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. يُخْبِرُهُ الْخَبَرَ.. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نُصِرْت يَا عَمْرُو بْنَ

(٣٤٢) (الوتير) في كلام العرب: الورد الأبيض، ويطلق على ماء لخزاعة.

سالم» فَمَا بَرِحَ حَتَّى مَرَّتْ عَنَانَةٌ<sup>(٣٤٣)</sup> فِي السَّمَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهْلُ بِنَضْرِ بَنِي كَعْبٍ» وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبْرَهُ حَتَّى يَبْتَغَتْهُمْ فِي بِلَادِهِمْ... وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَشُدُّ الْعَقْدَ وَيَزِيدُ فِي الْمُدَّةِ»... ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَّئَتْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيْتُ! مَا أَذْرِي أَرِغِبْتِ بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ؟ أَوْ رَغِبْتِ بِهِ عَنِّي؟ فَقَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيْتُ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَكَ شَيْءٌ بَعْدِي، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَلَّمَهُ أَنْ يَكَلِّمَهُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ثُمَّ أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ عُمَرُ: أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ لَكُمْ إِلَّا الدَّرَّ - صِغَارِ النَّمْلِ - لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَدَخَلَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّكَ أَمْسَ الْقَوْمِ بِي رَحِمًا، وَأَقْرَبُهُمْ مِنِّي قَرَابَةً، وَقَدْ جِئْتُ فِي حَاجَةٍ، فَلَا أُرْجِعَنَّ كَمَا جِئْتُ خَائِبًا، فَاشْفَعْ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلِّمَهُ فِيهِ... الخبر بطوله (٣٤٤).

وهكذا أنجز الله للمسلمين ما وعدهم ﴿وَأْتِبُهُمْ﴾ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿وَفَتَحَ لَهُمْ﴾ فَتَحًا

مُبِينًا ﴿الفتح﴾.

وَأَفْتَحَتْ مَكَّةَ شَهْرَ رَمَضَانَ ﴿وَهُوَ الَّذِي فِيهِ نُزُولُ الْقُرْآنِ﴾  
وَقَدْ أَمَدَّتْ بَكْرًا بِالسَّلَاحِ ﴿وَبِالرِّجَالِ سَادَةَ الْبِطَاحِ﴾

(٣٤٣) جمعها: عنان، وهو السحاب.

(٣٤٤) دلائل النبوة لليبيهي ٥/٥: ٨، بسند حسن فيه: ابن إسحاق، وهو عند ابن هشام في السيرة ٢/٣٨٩: ٣٩٧.

فَبَيَّتُوا حُزَاعَةَ وَقَتَلُوا ❀❀ مِنْهُمْ رَجَالًا بِالْوَتِيرِ نَزَلُوا  
 وَجَاءَ وَقَدْ فِيهِمُ الْمِقْدَامُ ❀❀ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ وَمَا اسْتَسَامُوا  
 حَتَّى آتَى بِقِصَّةِ الْخِيَانَةِ ❀❀ وَطَلَبَ النَّجْدَةَ وَالْإِعَانَةَ  
 يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا ❀❀ حِلْفَ أَبِيْنَا وَأَبِيهِ الْأَنْدَا  
 إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ❀❀ وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا  
 هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَا ❀❀ وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا  
 وَأَغْرُورِقَتْ عَيْنَا أَبِي الزُّهْرَاءِ ❀❀ بِالِدَّمْعِ وَاسْتَعَدَّ لِلْأَعْدَاءِ  
 وَأَذْرَكَتْ مَكَّةُ مَا فِي الْأَمْرِ ❀❀ فَأَرْسَلَتْ بِالْعَبْقَرِيِّ صَخْرٍ  
 يُؤَكِّدُ الْعَهْدَ وَعِنْدَ رَمْلِهِ ❀❀ كَانَ نُزُولُهُ وَحَطَّ رَحْلُهُ  
 وَلَمْ يَجِدْ فِي طَيْبَةَ مَا يَهْوَى ❀❀ فَعَادَ رَاجِعًا بِغَيْرِ جَدْوَى  
 وَقِيلَ مَنْ كَانَ يُعَزِّدِينَهُ ❀❀ فَلَيْشْهَدِ الصِّيَامَ بِالْمَدِينَةَ  
 وَأَتَّخَذَ النَّبِيُّ أُهْبَةَ السَّفَرِ ❀❀ وَلَمْ يُبَيِّنْ لِلْجَمَاهِيرِ الْخَبَرَ  
 وَحَاطِبٌ مِنْ عَظَمَاءِ الصَّحْبِ ❀❀ قَدْ كَادَ يُفْشِي سِرَّ هَذَا الْحَرْبِ  
 وَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ❀❀ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ حَاطِبٍ إِلَى (\*)  
 وَسَارَ فِي جَيْشٍ مِنَ الْأَمْجَادِ ❀❀ وَمِنْ حُمَاةِ الْحَضَرِ وَالْبَوَادِي  
 فَمِنْ غِفَارِيٍّ وَمِنْ مُزَيْنَةَ ❀❀ وَالْأَسْلَمِيِّينَ وَمِنْ جُهَيْنَةَ

(\*) المجرور بحرف إلى: محذوف للعلم به، وهو (أهل مكة)، وقد ذكر السهيلي أن الكتاب كان فيه: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ  
 تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأَقْسَمُ بِاللَّهِ لَوْ سَارَ إِلَيْكُمْ وَخَدَهُ لَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَكُمْ مَا وَعَدَهُ»  
 الروض الأنف ٨٦/٧، وحاطب بن أبي بلتعة صحابي شهد بدرًا والحديبية، قال لرسول الله ﷺ: لا تعجل علي يا رسول  
 الله، والله ما خنت الله ورسوله أبداً؛ ولكنه ما من أحد من أصحابك إلا وله في مكة من يحفظ أهله وماله بها، وليس لي  
 أحد: فأردت أن أتخذ عندهم يداً يحفظ بها أهلي ومالي، وأنا أعلم أن ذلك لا يغني عنهم من شيء، فصدقه رسول الله  
 ﷺ، وقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق الذي خان الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ:

عَشْرَةَ آلاَفٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ ❀❀ فِي عَزْمِ جُنْدِيٍّ وَرَاءَ الْقَائِدِ  
مُسْتَخْلِفًا وَرَاءَهُ الضَّرِيرَا ❀❀ صَيْرَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَمِيرًا

### غَزْوَةُ تَبُوكَ وَالكِتَابُ الثَّانِي إِلَى هِرَقْلَ

فلما أَمَّنَ النَّبِيُّ ﷺ المدينة المنورة عاصمة الدولة المسلمة من الجنوب بفتح مكة والطائف في العام الثامن الهجري؛ استقبل ﷺ في العام التاسع وفود القبائل المسلمة من كافة أقطار الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم أراد ﷺ أن يُؤمِّنَ الدولة المسلمة من جهة الرومان في الشمال؛ لأنهم أهل كتاب فالخطر من جهتهم أعظم، واختلاطهم بالعرب أكثر.. فاعتزم ﷺ أن يرسي العلاقات بينه وبينهم على دعائم مكيئة؛ حتى يكون الدعاة إلى دين الله أحرارًا في عرضهم دين الله على الناس: إن راقهم قبلوه ودخلوا فيه؛ وإن ساءهم تركوه وانصرفوا عنه، أمَّا أن يجاربوا الدعاة ويصدوا الناس عن سبيل الله: فهذا يرفضه الإسلام ويقاومه بالقوة.

أشارت سورة التوبة إلى غزوة حنين في ثلاث آيات من ٢٥: ٢٧، ثم فصلت أحوال الناس في غزوة تبوك ضمن آيات كثيرة في السورة نفسها، بدأ من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] إلى قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾.

«مهلاً يا عمر إنه من أهل بدر، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر وقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فبكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونزل في ذلك الآيتين الأوليين من سورة الممتحنة. يراجع الهامش رقم ١٦٢.

فاستحثَّ النَّاسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى غَزْوِ الرُّومِ فِي تَبُوكَ، عَلَى أَطْرَافِ الشَّامِ مَعَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِجَيْشٍ سُمِّيَ جَيْشَ الْعَسْرَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنَ الْعَامِ التَّاسِعِ لِلْهَجْرَةِ.

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ ﷺ فِي الْحَرْبِ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ غَزْوَةَ إِلَّا وَرَى غَيْرَهَا (٣٤٥)، لَكِنَّهُ ﷺ أَعْلَمَ أَصْحَابَهُ بِالْجَهَةِ الَّتِي يَقْصِدُهَا وَذَلِكَ لِبَعْدِ الشَّقَةِ وَعَظَمِ الْمَشَقَّةِ، حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ فِي فَصْلِ الصَّيْفِ سَنَةِ ٦٣٠ م؛ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ وَطَيْبِ الظَّلَالِ وَجَنَى الثَّارِ فِي الْمَدِينَةِ، أَمَا فِي الصَّحْرَاءِ فَإِنَّهَا عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ؟، حَيْثُ يَكَابِدُ النَّاسُ فِيهَا شِدَّةَ الْقَيْظِ وَالْقَحْطِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَتَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ؛ حَتَّى ظَنْنَا أَنَّ رِقَابَنَا سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لِيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، حَتَّى إِذَا الرَّجُلُ يَنْحَرُ بِعَيْرِهِ: فَيَعْرِضُ فَرْثَهُ فَيَسْرِهُ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّذَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَاذْعُ لَنَا، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ ﷺ يَدَيْهِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتْ السَّمَاءُ فَأَظْلَمَتْ، ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتْ الْعَسْكَرَ (٣٤٦).

ثم إن الصدام مع الروم ليس قتالاً لقبيلة محدودة العدد والعدد؛ بل هو كفاح مريع مع دولة تبسط سلطانها على عدة قارات من العالم، وتملك موارد كثيرة من الأموال، وتقهقر شعوباً عديدة

(٣٤٥) أي إذا أراد السفر إلى جهة سأل عن مكان بجهة أخرى، فيظن الناس أن تجهزه للسفر يريد به ما سأل عنه، أما أن يصرح بجهة معينة ويريد غيرها فلا، وذلك مشروع في الحرب ليتحقق الهدف ويتم النصر. بأقل خسائر، وفي صحيح البخاري: كتاب الجهاد/ باب إذا أراد غزوة ورى غيرها ١١٢/٦، ١١٣، من حديث طويل لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عز وجل عليهم - قال «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةَ إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا».

(٣٤٦) إسناده حسن، وصححه ابن خزيمة، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد، قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجال البزار ثقات. مجمع الزوائد ١٩٤/٦، ١٩٥، وينظر: السيرة النبوية لابن كثير ١٦/٤.



تحتل بلادها وتستنزف مواردها... فليتحامل المسلمون على أنفسهم، وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض عليهم من تضحيات في سبيل إعلام الناس بهذا الدين (٣٤٧).

لقد كانت هذه الغزوة درسًا عمليًا للمسلمين في نشر دين الله في العالمين لأنه ينبغي مقاتلة من يصد عن سبيل الله أو يحول دون تبليغ دينه للمكلفين ويبدو أن الرومان قد أحسوا بخطر المواجهة فلم يخرج منهم أحد إلى تبوك (٣٤٨)، فلم يلتق النبي ﷺ، ولا أصحابه بها كيدًا ولا حربًا، فلم يخرج أحد من الرومان، وصالح النبي ﷺ نصارى العرب الضارين في هذه الأرجاء؛ لأنهم أيقنوا أن اعتمادهم على سادتهم الأقدمين لا فائدة منه، فدخل في عهده ﷺ أصحاب أيلة وتيباء ودومة الجندل وغيرهم، وكانت الرسالة الثانية التي بعث بها رسول الله ﷺ وهو في تبوك إلى هرقل تأكيدًا لنشره ﷺ دين الله في العالمين.

أخرج الإمام أحمد (٣٤٩) بسند حسن عن سعيد بن أبي راشد قال: لَقِيتُ التَّنُوخِيَّ (٣٥٠) رَسُولَ

(٣٤٧) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير ٣/٤: ٥٠، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٤٤٧: ٤٥٤.

(٣٤٨) موضع شمال المملكة العربية السعودية بالقرب من حدود مصر والأردن، وكانت هذه الغزوة في رجب سنة ٩ هجرية، ورجع منها رسول الله ﷺ في شهر رمضان من السنة نفسها. ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢: ١١٨، الأطلس العربي ص ٣٥.

(٣٤٩) المسند ٣/٤٤١، ٤٤٢، ح ١٥٦٥٥، وفي ٧٤/٤، ٧٥ ح ١٦٦٩٤ من رواية: عبدالله ابن الإمام أحمد قال: حَدَّثَنِي أَبُو عَامِرٍ حَوْثَرَةُ بْنُ أَشْرَسَ، إِمْلَاءَ عَلِيٍّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ خُنَيْمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ... بِمَعْنَاهُ مَخْتَصَرًا، وَمَسْنَدُ أَبِي يَعْلَى ح ١٥٩٧ بِإِسْنَادٍ نَفْسِهِ... بِمَعْنَاهُ مَطْوَلًا، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ وَأَبُو يَعْلَى، وَرِجَالُ أَبِي يَعْلَى ثِقَاتٌ، وَرِجَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ كَذَلِكَ. مَجْمَعُ الزَّوَائِدِ ٨/٢٣٤: ٢٣٦. وفات الهيثمي نسبه إلى الإمام أحمد، وهو الموضع الذي هنا، وضعف إسناده بعضهم، لأن فيه: سعيد بن أبي راشد لم يوثقه سوى ابن حبان؛ لكنه تابعي لم يجرحه أحد قبل ابن حبان ولا بعده، وما اعترض على توثيق ابن حبان له أحد من الأئمة، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به، وعزاه إلى الإمام أحمد. البداية والنهاية ١٥/٥، ١٦.

(٣٥٠) نسبة إلى تنوخ، ومعناها الإقامة، وأصلها: عدة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين وتحالفوا على التناصر فأقاموا هناك

هَرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمَصَ - وَكَانَ جَارًا لِي شَيْخًا كَبِيرًا - فَقُلْتُ: أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هَرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هَرَقْلَ؟ فَقَالَ: بَلَى، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَبُوكَ، فَبَعَثَ دِحْيَةَ (٣٥١) الْكَلْبِيَّ إِلَى هَرَقْلَ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا قِسْيَسِي الرُّومِ وَبَطَارِقَتَهَا ثُمَّ أَعْلَقَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ بَابًا فَقَالَ: قَدْ نَزَلَ هَذَا الرَّجُلُ حَيْثُ رَأَيْتُمْ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَدْعُونِي إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: يَدْعُونِي إِلَى أَنْ أَتَّبِعُهُ عَلَى دِينِهِ، أَوْ عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا - وَالْأَرْضُ أَرْضِنَا - أَوْ نُلْفِي إِلَيْهِ الْحَرْبَ، وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ فِيمَا تَقْرءُونَ مِنَ الْكُتُبِ: لَيَأْخُذَنَّ مَا تَحْتَ قَدَمِي، فَهَلُمَّ تَتَّبِعُهُ عَلَى دِينِهِ أَوْ نُعْطِيهِ مَالَنَا عَلَى أَرْضِنَا، فَخَرُّوا نَخْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَرَانِسِهِمْ وَقَالُوا: تَدْعُونَا إِلَى أَنْ نَدَعَ النَّصْرَانِيَّةَ أَوْ نَكُونَ عِبِيدًا لِأَعْرَابِيٍّ جَاءَ مِنَ الْحِجَازِ، فَلَمَّا ظَنَّ أَهْلُهُمْ إِنْ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ أَفْسَدُوا عَلَيْهِ الرُّومَ رَفَاهُهُمْ (٣٥٢) وَلَمْ يَكِدْ، وَقَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ لَكُمْ لِأَعْلَمَ صَلَابَتَكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ، ثُمَّ دَعَا رَجُلًا مِنْ عَرَبٍ تُحِيبَ (٣٥٣) كَانَ عَلَى نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: ادْعُ لِي رَجُلًا حَافِظًا لِلْحَدِيثِ عَرَبِيٍّ اللَّسَانَ، أَبْعَثْهُ إِلَيَّ هَذَا الرَّجُلِ بِجَوَابِ كِتَابِهِ، فَجَاءَ بِي، فَدَفَعَ إِلَيَّ هَرَقْلُ كِتَابًا فَقَالَ: اذْهَبْ بِكِتَابِي إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَمَا صَيَّعْتَ مِنْ حَدِيثِهِ فَاحْفَظْ لِي مِنْهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ، انظُرْ: هَلْ يَذْكُرُ صَحِيفَتَهُ الَّتِي كَتَبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ، وَانظُرْ: إِذَا قَرَأَ كِتَابِي، فَهَلْ يَذْكُرُ اللَّيْلَ،

فسموا تنوخا. اللباب ١/٢٢٥.

(٣٥١) بمهملتين الأولى مكسورة وقد تفتح، والثانية ساكنة بعدها مشناة تحتانية، ابن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي مشهور أول مشاهده الخندق وقيل أحد، وكان جبريل ينزل علي صورته، لأنه كان حسن الصورة، حتى كان يضرب به المثل في ذلك، وهو الذي حمل الرسالة الأولى من رسول الله ﷺ إلى هرقل في أول سنة ٧ أو آخر سنة ٦ من الهجرة. الإصابة ٣/١٩٢، ١٩١.

(٣٥٢) أي سكتهم وهذا هم وأبدى لهم موافقته مداراة وتوددًا. لسان العرب ٣/١٦٨٥، ١٦٨٦.

(٣٥٣) بضم المشناة الفوقانية بعدها جيم فمشناة تحتانية فموحدة: إحدى قبائل العرب. اللباب في تهذيب الأنساب

وَانظُرْ فِي ظَهْرِهِ، هَلْ بِهِ شَيْءٌ يَرِيكَ؟ فَانطَلَقْتُ بِكِتَابِهِ حَتَّى جِئْتُ تَبُوكَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ مُحْتَبِيًّا<sup>(٣٥٤)</sup> عَلَى الْمَاءِ فَقُلْتُ: أَيْنَ صَاحِبِكُمْ؟ قِيلَ هَا هُوَ ذَا، فَأَقْبَلْتُ أَمْسِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ كِتَابِي، فَوَضَعُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقُلْتُ: أَنَا أَحَدُ تَنُوحَ، قَالَ: «هَلْ لَكَ فِي الْإِسْلَامِ الْحَيْفِيَّةِ مِلَّةٌ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ؟» قُلْتُ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَعَلَى دِينِ قَوْمٍ، لَا أَرْجِعُ عَنْهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥١] يَا أَخَا تَنُوحَ، إِنِّي كَتَبْتُ بِكِتَابٍ إِلَى كِسْرَى فَمَزَّقَهُ، وَاللَّهُ مُمَزِّقُهُ وَمُمَزَّقُ مُلْكِهِ، وَكَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِصَحِيفَةٍ فَخَرَقَهَا، وَاللَّهُ مَخْرِقُهُ وَمُخْرِقُ مُلْكِهِ<sup>(٣٥٥)</sup> وَكَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِكَ بِصَحِيفَةٍ فَأَمْسَكَهَا فَلَنْ يَزَالَ النَّاسُ يَجِدُونَ مِنْهُ بَأْسًا مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ ﴿قُلْتُ: هَذِهِ إِحْدَى الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَوْصَانِي بِهَا صَاحِبِي، وَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهَا فِي جِلْدِ سَيْفِي، ثُمَّ إِنَّهُ نَاوَلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلًا عَنْ يَسَارِهِ، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ كِتَابِكُمْ الَّذِي يُقْرَأُ لَكُمْ؟ قَالُوا: مُعَاوِيَةُ، فَإِذَا فِي كِتَابِ صَاحِبِي تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟» قَالَ: فَأَخَذْتُ سَهْمًا مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُ فِي جِلْدِ سَيْفِي، فَلَمَّا أَنْ فَرَعْتُ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِي، قَالَ: «إِنَّ لَكَ حَقًّا وَإِنَّكَ رَسُولٌ، فَلَوْ وَجِدْتَ عِنْدَنَا جَائِزَةً جَوَزْنَاكَ بِهَا، إِنَّا سُفْرٌ مُرْمُلُونَ»<sup>(٣٥٦)</sup>.

(٣٥٤) أي جالسًا ضامًا رجله إلى بطنه بيديه. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٣٣٥، ٣٣٦.

(٣٥٥) هذا ملك آخر ولي الحبشة، وكان نصرانيًا بعد وفاة النجاشي الذي كان قبله، لأن النجاشي الذي أسلم قديمًا وهاجر إليه المسلمون توفي في رجب سنة تسع من الهجرة، وقيل: توفي قبل فتح مكة، وصلى عليه النبي ﷺ وأصحابه صلاة الجنازة وهم بالمدينة، ومعني خرق: قطع وشق ومزق، والله أعلم. ينظر: الإصابة ١/١٧٧، فتح الباري ٣/١١٦: ١١٨، ١٨٨، النهاية ٢/٢٦.

(٣٥٦) أي: إنا مسافرون قد نفذ زادنا أو كاد ينفد. القاموس ٢/٥٠، ٣/٣٩٨.

قَالَ: فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْ طَائِفَةِ النَّاسِ، قَالَ: أَنَا أُجَوِّزُهُ، فَفَتَحَ رَحْلَهُ، فَإِذَا هُوَ يَأْتِي بِحُلَّةٍ (٣٥٧)، فَوَضَعَهَا فِي حَجْرِي، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ الْجَائِزَةِ؟ قِيلَ لِي: عُمَانُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْكُمْ يُنَزَّلُ هَذَا الرَّجُلُ» فَقَالَ قَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ وَقُمْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا خَرَجْتُ مِنْ طَائِفَةِ الْمَجْلِسِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «تَعَالَ يَا أَخَا تَنُوخَ» فَأَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ قَائِمًا فِي مَجْلِسِي الَّذِي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَلَّ حَبْوَتَهُ (٣٥٨) عَنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ: هَاهُنَا امْضِ (٣٥٩) لِمَا أَمَرْتَ لَهُ، فَجَلْتُ فِي ظَهْرِهِ، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي مَوْضِعِ غُضُونِ (٣٦٠) الْكَتْفِ مِثْلِ الْحُجْمَةِ (٣٦١) الضَّخْمَةِ.

وهذه معجزة ظاهرة وآية بيينة، وعلامة من علامات النبوة الواضحة، حيث كان التنوخي قد شغل بالجائزة وكرم الضيافة عن الأمر الثالث الذي كان هرقل قد كلفه به، فنبهه إليه رسول الله ﷺ، ومع هذا فلم يؤمن التنوخي إلا بعد وفاة النبي ﷺ بزمن طويل، ومن ثم لم يذكره أحد في الصحابة، واتفقوا على أنه تابعي، لكن حديثه متصل لقبولهم رواية المسلم البالغ لما تحمله قبلهما في حال الكفر والصبي (٣٦٢)، والله أعلم.

ونلاحظ كيف تغير أسلوب الرسالة الثانية من رسول الله ﷺ إلى هرقل، إذ في الرسالة الأولى كان يعرض عليه الإسلام ويدعوه إلى الدخول فيه، أما في هذه الرسالة فقد تجهز إليه رسول الله ﷺ قاصداً إليه في بلده وبعث له بالرسالة من مكان قريب يرغبه في الإسلام ويخيره

(٣٥٧) يعني ثوباً مصبوغاً بنبات طيب الرائحة كالزعفران وغيره. ينظر: القاموس ٧٣/٢.

(٣٥٨) أي: ثوبه الذي يلبسه. النهاية ٣٣٥/١.

(٣٥٩) أي: دقق النظر لترى ما جئت من أجله (خاتم النبوة). لسان العرب ص ٤٢٣٥، ٤٢٣٦.

(٣٦٠) أي: ثنايا الجلد وتكسره بسبب عظم الكتف. ينظر: مقاييس اللغة ٤/٤٢٧.

(٣٦١) الحجْمُ من الشيء: ملمسه الناتج تحت يدك. القاموس المحيط ١/١٠٩١.

(٣٦٢) ينظر: تدريب الراوي ١/٢٠٧، ٤/٢، تعجيل المنفعة ص ٥٣٥.

بين إحدى ثلاث: إما أن يقبل الإسلام ويدخل فيه، أو يؤدي الجزية، أو يبرز إليه في مكان الحرب حتى يحكم الله بينهما وتكون كلمته هي العليا.

### حَجَّةُ الْبَلَاغِ وَالْوَدَاعِ

ثم حج رسول الله ﷺ بالناس في العام العاشر من الهجرة: حجة الوداع في أكثر من مائة وثلاثين ألف مسلم، بعد أن كانوا في صلح الحديبية خمس عشرة مائة على أكثر تقدير، وكانوا في فتح مكة نحو عشرة آلاف، وهكذا انتشر الإسلام واتسعت أرضه ودخل الناس في دين الله أفواجا، قال أبو زرعة الرازي: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ مِائَةِ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ... كُلُّ رَأَاهُ وَسَمِعَ مِنْهُ بِعَرَفَةَ (٣٦٣).

وخاطب الله عز وجل ذلك الجمع المحتشد في حجة الوداع ممتنا على الأمة ونبينا ﷺ بتمام النعمة وإكمال الدين، وانحصار رقعة الكفر وكبت أهله: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إن هذا التوجيه من الله تعالى للأمة المسلمة في ذاك الوقت ليس قاصرا عليهم بل هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان ومكان...

فالمؤمنون حقا هم الذين يرتضون ما رضيهم الله لهم من هذا الدين، بمعناه الكامل الشامل، الذين يتخذون هذا الدين كله منهاجا للحياة، حتى إن أشد الناس عداوة لهذه الأمة ليحسدونها على ما آتاها الله من فضله، وحبها بنعمه وكرمه، ففي أمهات كتب السنة الأصيلة ومصادرها

الوثيقة بأسانيد صحيحة، عن طارق بن شهاب قال: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ (٣٦٤): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَا نَتَّخِذُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي﴾ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ (٣٦٥).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾: يعني يسوا أن يراجعوا دينهم، ويؤكد هذا: الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» (٣٦٦) يعني أن الشيطان رضي بذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ معناه: لا تخافوا منهم في مخالفتكم لأهل الشرك، واخشوني أنصرم عليهم وأبيدهم وأظفرم بهم، وأشرف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة، وقوله:

(٣٦٤) اللفظ للإمام أحمد في المسند ٢٨/١.

(٣٦٥) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخرجه الأئمة: البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ونقصانه ١٠٥/١، وفي كتاب المغازي/ باب حجة الوداع ١٠٨/٨، وفي كتاب التفسير/ سورة المائدة ٢٦٨/٨، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٤٥/١٣، ومسلم في صحيحه: كتاب التفسير ٢٣١٢/٤، والترمذي في جامعه: كتاب التفسير/ سورة المائدة ٢٥٠/٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في المجتبى من سننه: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ١١٣/٨، وكان ذلك اليوم بالتقويم الشمسي هو الموافق ٣/٥/٦٣٢م، وراجع ما سبق في هذا الجزء تحت عنوان «التَّارِيخُ مِنْ بَدْءِ الْهِجْرَةِ».

(٣٦٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم/ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٢١٦٦/٤، والترمذي في جامعه: البر والصلة/ ما جاء في التباغض ٣٣٠/٤، وأحمد في مسنده ٣١٣/٣، ٣٥٤، والتحريش: هو إغراء بعضهم على بعضهم الآخر بإثارة التباغض والفتن والشحناء... ونحو ذلك مما يؤغر الصدور.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف... فلما أكمل الدين لهم تمت بذلك النعمة عليهم، فارضؤوا لأنفسكم الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وأكمله لهم، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا<sup>(٣٦٧)</sup>.

وهكذا ابتداء الإسلام في غار حراء بمكة برسول الله ﷺ منفردًا وهو شاخص ببصره إلى السماء، وجبريل يقول له أنت رسول الله وأنا جبريل، وها هو ذا يكمل بجوار غار حراء عند الصخرات من جبل عرفة، وحول رسول الله ﷺ مائة وثلاثون ألفًا من المسلمين يمثلون جزيرة العرب قاطبة<sup>(٣٦٨)</sup> يقتدون بالنبي ﷺ ويشاهدونه ويسمعون منه ويتلقون عنه، فتمت النعمة، وعظمت المنة، وكانت حجة البلاغ والوداع، وتم بناء صرح الإسلام الشامخ برسالة خاتم النبيين كما قال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»<sup>(٣٦٩)</sup>.

(٣٦٧) تفسير الطبري: ٥١٦/٩: ٥١٨، وتفسير ابن كثير ٢٢/٣، ٢٣ باختصار وتصرف يسير.

(٣٦٨) ينظر المنهج الحركي للسيرة النبوية ١٩٨/٣، ١٩٩.

(٣٦٩) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ١٧٩٠/٤، ١٧٩١، عن أبي هريرة واللفظ له،

وكذا نحوه عن جابر وأبي سعيد، وينظر مسند أحمد ٩/٣.

## إعدادُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلَافَاءَهُ لِتَحْمِيلِ الْأَمَانَةِ

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه يثبت قدمه على الخطوة التالية ويمكن لها ولو لم يخطوها، فلما أحس ﷺ بدنو أجله وانتهاء عمره ليلحق بالرفيق الأعلى أراد أن يؤصل في نفوس أصحابه الوسيلة التي بها ينشرون دين الله في الأرض، وهي: الجهاد في سبيل الله عز وجل، لأن هذه الفريضة ذروة سنام الإسلام وبها يعبد الله وحده لا شريك له، مع ما يتبع ذلك من دفع العدوان والشر، وحفظ الأنفس والأموال، ورعاية الحق، وصيانة العدل، وتعميم الخير ونشر الفضيلة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَتْهُمُ آيَاتٌ مِنْ رَبِّ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

فأمر ﷺ بإنفاذ الجيش إلى بلاد الروم بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة؛ ولما يبلغ عمره عشرين سنة، وتحت لوائه كبار الصحابة وفضلاؤهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ففى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر من العام الحادى عشر الهجرى: أمر رسول الله ﷺ بغزو الروم، وحثهم على الإسراع فى السير؛ حتى لا يسبقهم الخبر إلى عدوهم، ووجههم إلى أبنى (٣٧٠) من أرض فلسطين بين الرملة وعسقلان، وبالقطع لا بد أن يمر الجيش بمؤتة التى استشهد بها الأمراء الثلاثة.

فلما كان يوم السبت بعد ابتداء مرض النبى ﷺ وقبل موته بيومين: دَعَا أُسَامَةَ فَقَالَ ﷺ:

(٣٧٠) (أبنى): بضم الهمزة والقصر، وهى الآن تنطق بالياء (يبنى): اسم موضع من فلسطين بين عسقلان والرملة شبال

غزة. ينظر: معجم البلدان ٧٩/١.



«سُرِّ إِلَى مَوْضِعٍ مَقْتَلِ أَبِيكَ؛ فَأَوْطَيْتُهُمُ الْحَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الْجَيْشَ، وَأَعَزَّ صَبَاحًا عَلَى ابْنِي، وَحَرَّقَ عَلَيْهِمْ، وَأَسْرَعَ الْمَسِيرَ تَسْبِيقَ الْخَبَرِ، فَإِنْ ظَفَرَكَ اللَّهُ بِهِمْ، فَأَقْلُ اللَّبَثِ فِيهِمْ» (٣٧١).

ونلاحظ أنه ﷺ زاده في التكليف بتجاوز مؤتة التي استشهد بها أبوه متوغلاً في أرض الروم حتى يصل إلى ابني غرب بيت المقدس بفلسطين.

ثم عقد ﷺ اللواء لأسامة بيده، فأخذه أسامة فدفعه إلى بريدة بن الحصيب، فعسكر بالجرف، وقد اتُذِبَ كثير من المهاجرين الأولين والأنصار في جيشه، منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب (وكان من أكبرهم) ومن قال: إن أبا بكر كان فيهم؛ فقد غلط، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيش أسامة مخيم بالجرف، وقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس: فكيف يكون في الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين، ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام (٣٧٢).

وقال البخارى: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَرَضِهِ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ

---

(٣٧١) وفي سنن أبي داود بسند ضعيف أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: «أَعَزَّ عَلَى ابْنِي صَبَاحًا وَحَرَّقَ» كتاب الجهاد/ باب في الحرق في بلاد العدو ٨٨/٣ ح ٢٦١٦، وفيه: أن التحريق والتخريب في بلاد العدو جائز لضرورة الحرب إن وقع تبعاً لها. نيل الأوطار ٧/٢٥١، وسبل السلام ٤/٥١، ٥٢.

(٣٧٢) ينظر: صحيح البخارى: كتاب الأذان/ باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ١٦٤/٢ ح ٦٧٨، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلى بالناس ٣١١/٢: ٣١٦ ح ٤١٨، ويراجع: هامش رقم ٣٣١، وعنوان: «استطرد في هذا الفرع دفاعاً عن النبي ﷺ وأصحابه» بخصوص ما قيل في مرض رسول الله ﷺ.

زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إِنْ تَطَعْنَا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ طَعْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَإِنَّمَا لَقَدْ كَانَ خَلِيفًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنْ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ» (٣٧٣).

ثم اشتد برسول الله ﷺ الوجع، فقال: «أَنْفِذُوا بَعَثَ أُسَامَةَ» فَأَنْفَذَهُ أَبُو بَكْرٍ الصديق بعد أن ولي الخلافة.

ثم لما توفي ﷺ استطلق الصديق عمر بن الخطاب من أسامة بن زيد واستأذنه في الإقامة معه، وخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشيع أسامة، فركب من الجرف لهلال ربيع الآخر في ثلاثة آلاف: وَفِيهِمْ أَلْفُ فَرَسٍ، وَسَارَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى جَنْبِهِ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُوصِيكَ، فَأَنْفِذْ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنِّي لَسْتُ أَمُرُّكَ وَلَا أَنْهَاكَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا أَنَا مُنْفِذٌ لِأَمْرِ رَبِّهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فخرج أسامة بالجيش سريعاً، فسار الجيش عشرين ليلة إلى الجهة التي وُجِّه إليها، وقدم أسامة عيناً إلى أبنى، فعاد فأخبره أن الناس غافلون؛ ولا جموع لهم، فعبأ أصحابه وأغار عليهم قبل أن يجتمعوا فقتل وسبى وحرَّق، وقتل أسامة قاتل أبيه، ثم رحل مساءً حتى قدم المدينة، وقد غاب خمسة وثلاثين يوماً، وقال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي، فسألته فقال: إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وإن أباه أحبُّ إلى رسول الله من أبيك، وعاش أسامة إلى سنة أربع وخمسين، وقيل قبلها، وكانت وفاته بالمدينة أو بوادي القرى، رحمه الله ورضي عنه (٣٧٤).

(٣٧٣) صحيح البخارى ح ٤٤٦٩، وأصله في ح ٣٧٣٠، وراجع شرح الحديث في فتح البارى ١٥٢/٨.

(٣٧٤) يراجع في ذلك: فتح البارى ٨٧/٧، ١٥٢/٨ ح ٤٤٦٩، والإصابة ٤٥/١ ترجمة أسامة، والسيرة النبوية لابن

كثير ٤٤٠/٤، ٤٤١، وإمتاع الأسعاف ١/٥٣٥: ٥٤٠.

## نُحُوهُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى

نعم: فارق رسول الله ﷺ الدنيا بعدما استقر الوحي في صدور الرجال، وبطون الكتب، وأصبح للإسلام فيها دولة قائمة، ودعوة واضحة، وقوة مهيبية، وسلطان يعصم دماء المؤمنين وأموالهم، ويرد نزوات السفهاء عنهم، واتسعت الدائرة التي يتلى فيها القرآن الكريم، حتى شملت الجزيرة كلها: من أطراف الشام إلى أقصى اليمن، ومن الخليج العربي إلى شواطئ البحر الأحمر، وأخذ أمر الإسلام يعلو، والرقعة التي يسودها تتسع، والأفواج التي تدخل فيه تزداد يوماً بعد يوم، نتيجة جهد دؤوب، وعطاء غير محدود طيلة ثلاث وعشرين سنة، من حياة رسول الله ﷺ هي مدة الوحي وزمن الرسالة، وقد استنار وجه رسول الله ﷺ حتى كأنه مُدْهَبَةٌ، وذلك حين رمق المصلين في مسجده، وهم صفوف خلف أبي بكر يستمعون القرآن وينصتون له في خشوع ويقين، والدنيا في طول الجزيرة وعرضها تدين بهذا الكتاب، والأمة والدولة كلتاها سند له وأشياخ وحراس، كيف لا؟ وهو روحهم وحياتهم وعقيدتهم ومنهجهم ودستورهم وسر سعادتهم وسبب عزهم، والعناية بأمره لا تحتاج إلى تكلف أو مشقة.

قال الإمام ابن حزم: ثُمَّ حَضَرْتَهُ ﷺ الْمَنِيَّةُ وَأَيُّقِنَ بِأَمُوتِ، وَلَهُ عَمَّ أَخُو أَبِيهِ هُوَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَابْنُ عَمِّ هُوَ مِنْ أَحْصَى النَّاسِ بِهِ، وَهُوَ أَيْضًا زَوْجُ ابْنَتِهِ الَّتِي لَا وَكَلْدَ لَهُ غَيْرَهَا، وَلَهُ مِنْهَا ابْنَانِ ذَكَرَانَ، وَكِلَا الرَّجُلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ عَمُّهُ وَابْنُ عَمِّهِ: عِنْدَهُ مِنَ الْفَضْلِ وَالِدَيْنِ وَالسِّيَاسَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْبَأْسِ وَالْحَلْمِ وَخِلَالِ الْخَيْرِ.. مَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِيقًا -جَدِيرًا- بِسِيَاسَةِ الْعَالَمِ كُلِّهِ: فَلَمْ يُحَاجِبِهَا، وَهُمَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غِنَاءً عَنْهُ وَمَحَبَّةً فِيهِ، وَهُوَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ فِيهِمَا؛ إِذْ كَانَ غَيْرَهُمَا مُتَقَدِّمًا لَهَا فِي الْفَضْلِ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدَ النَّسَبِ مِنْهُ؛ بَلْ فَوَضَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِ قَاصِدًا إِلَى مَرِّ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَلَمْ يُورَثْ وَرَثَتَهُ ابْنَتَهُ وَنِسَاءَهُ وَعَمَّهُ فَلَسَا فَمَا فَوْقَهُ، وَهُمْ كُلُّهُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَهَذِهِ أُمُورٌ لِمَنْ تَأْمَلُهَا كَافِيَةٌ مَعْنِيَةٌ فِي أَنَّهُ إِنَّمَا تَصَرَّفَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَا بِسِيَاسَةٍ وَلَا

بهوى: فوضح بما ذكرنا، ولله الحمد كثيرا أن نبوة محمد ﷺ حق، وأن شريعته التي أتى بها هي التي وضحت براهينها واضطرت دلائلها إلى تصديقها، والقطع على أنها الحق الذي لا حق سواه، وأنها دين الله تعالى الذي لا دين له في العالم غيره، والحمد لله رب العالمين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته (٣٧٥).

• وبعد أن لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى في ضحى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر من الهجرة النبوية الموافق ٦٣٢/٦/٧م: بايع الناس أبا بكر الصديق بالخلافة وقد لخص ذلك الشيخ محمد سالم البيحاني فقال:

|  |    |  |
|--|----|--|
| أَحَقُّ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالْخِلاَفَةِ    | ❁❁ | بَعْدَ النَّبِيِّ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ  |
| سَيِّدُنَا الصِّدِّيقُ عَبْدُ اللَّهِ      | ❁❁ | خَيْرُ إِمَامٍ أَمْرٍ وَنَاهِي           |
| وَحُطْبَةُ الصِّدِّيقِ كَانَتْ جَامِعَهُ   | ❁❁ | لَأَمْرِهِمْ وَكُلُّهُمْ قَدْ بَايَعَهُ  |
| إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ وَلِعْذَرِ      | ❁❁ | وَأَنْتَ قَدْ تَدْرِي وَقَدْ لَا تَدْرِي |
| وَأَوَّلِ الْمُبَايَعِينَ عَمْرُ           | ❁❁ | ثُمَّ أَبُو عَبِيدَةَ الْمُبَشَّرُ       |
| وَجَاءَ فِي حُطْبَةِ هَذَا الْوَالِي       | ❁❁ | مَا صَدَّقَ الْأَقْوَالَ بِالْأَفْعَالِ  |
| أَضَعَفُكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ الْجَانِبِ | ❁❁ | مَنْ أَبْعَدَ النَّاسِ أَوِ الْأَقْرَابِ |
| وَإِنْ أَقْوَى رَجُلٍ عَلَيَّا             | ❁❁ | صَاحِبُ حَقِّ يَبْتَغِي لَدَيَّا         |
| حَتَّى يُؤَدِّي الْقَوِيُّ الْحَقَّ        | ❁❁ | وَيَأْخُذَ الضَّعِيفُ مَا اسْتَحَقَّ     |
| وَفِي عَزِيمَةٍ وَفِي صِرَامِهِ            | ❁❁ | نَقْدَ جَيْشًا قَادَهُ أُسَامَةُ         |
| فَأَصْبَحَ الْإِسْلَامُ فِي الْجَزِيرَةِ   | ❁❁ | يُضِيءُ مِثْلَ الشَّمْسِ فِي الظَّهْرِ   |

(٣٧٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٣٤١، ٣٤٣ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م، وراجع لأهميته هنا ما سبق في هذا الجزء - قسم الهجرة العامة: «المُجْرُ بِمَعْنَى الْمُتَدَيَّنِ وَالْفُحْشِ» لاسيما «استطراد» في هذا الفرع دفاعا عن النبي ﷺ وأصحابه «١٥/٢: ٢٥ حول كلمة وردت في الحديث المتفق عليه: «... فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما له؟ أهجرت؟ استهيموه؟...».

وَهَبَّتِ الْأَسَادُ مِنْ عَرِينِهَا ❀❀ لِنَشْرِ عِلْمِهَا وَنَشْرِ دِينِهَا  
 وَجَاءَ فِي وَصِيَّةِ الصِّدِّيقِ ❀❀ مَا يُرْشِدُ النَّاسَ إِلَى الطَّرِيقِ  
 فَنَمَّ أَبَا بَكْرٍ قَرِيرَ الْعَيْنِ ❀❀ وَقَمَّ إِلَى الْمَحْشَرِ ثَانِي اثْنَيْنِ

وهكذا: حمل أصحاب رسول الله ﷺ راية الإسلام ليؤدوا الأمانة ويواصلوا المهمة التي عهد بها إليهم نبيهم ﷺ، فأخذوا ينساحون في الأرض؛ لينشروا في العالمين ضياء الإسلام في دنيا الناس ويبددوا به الظلمات، ويزيلوا به الغشاوات، وصاروا كالغيث النافع في الأرض الطيبة: أحيا الله بهم البلاد وأسعد بهم العباد، فكانوا خير خلف لخير سلف.

وهكذا: أصبحت كلمة الإسلام بعد رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ تعني كل ما جاء به من عقائد وتشريعات وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق، وصارت -عند النطق بها أو سماعها- علمًا على هذا الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لجميع المكلفين الذين بلغتهم دعوة الإسلام في أي زمان أو مكان، سواء في ذلك منهم: من قبله أو أعرض عنه، أو أذعن له أو نذ عنه، أو دعا إليه أو صد عنه، أو كان على ملةٍ صحيحة لم تبدل، أو على ملة حُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ، أو لا ملة له ولا اعتقاد، أخرج مسلم وغيره (٣٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

فمن سمع أو علم برسالة سيدنا محمد ﷺ وبمعجزاته، ثم أصر على كفره، ومات على ذلك فهو من المخلدين في النار، وذلك لأن رسالة نبينا محمد ﷺ نسخت جميع الملل قبلها، وأن شرعه

(٣٧٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب وجوب الإيذان برسالة نبينا محمد ﷺ إلي جميع الناس ونسخ الملل بملته ١/١٣٤، مسند أحمد ٢/٣١٧، ٣٥٠، وينظر شرح النووي صحيح مسلم ١/٣٦٩، وللحديث شاهد عن أبي موسى الأشعري أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٣٦٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٨/٢٦١، ٢٦٢ والمراد (بالأمة في الحديث): أمة الدعوة، وليست أمة الاجابة.

ﷺ أبطل كل تشريع سابق عليه، وأما من لم تبلغه الدعوة فهو معذور لا عقاب عليه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وكذا من بلغته الدعوة من الأعاجم ولم يفهمها، وتخصيص اليهودي والنصراني في الحديث للتنبية على من سواهما، إذ اليهود والنصارى لهم كتاب، فغيرهم ممن لا كتاب لهم من باب أولى (٣٧٧).

وقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تصرح بعموم رسالته ﷺ للخلق عامة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدِينَ﴾ [١٦] وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ [الأنبياء: ١٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وفي السنة المشرفة قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه (٣٧٨): «أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي...» وفيه: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً» وفي رواية لمسلم: «وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» وفي رواياته: «وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ الْخَلْقِ كَافَّةً».

وليس معنى أن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة: أنه يأتي بدين غير الإسلام كاليهودية أو النصرانية مثلاً، بل معناه: أنه كان يبعث بالإسلام إلى قومه الذين أرسل إليهم، وكُلِّفَ بدعوتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فكان هذا تخفيفاً على نبي ذلك الزمان ورفقاً به، ورحمة بأمته ورفقة بها، إذ كانت أحوالهم

(٣٧٧) ينظر فتح المنعم ٢/٢٥٢: ٢٥٤

(٣٧٨) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، قول النبي ﷺ «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا» ٥٣٣/١، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١٣٧٠، وكذا عن أبي هريرة بلفظ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ... وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً»، وأحمد ٣/٣٠٤.

البيئية وظروفهم المعيشية تقتضي ملازمة كل رسول لقومه وكل نبي لأمته، وتفرغ كل واحد منهم لأتباعه، وتعهد بهم، ومعايشته لهم وقربه منهم، وعدم الانشغال بسواهم، ليكون أبصر بدائهم، وأخبر بدوائهم، وأعلم بما ينفعهم ويؤيدهم، وذلك مثل كلیم الله موسى وأخيه هارون مع بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف].

أما خاتم النبيين الذي كلفه ربه بتبليغ الرسالة للعالمين، فإن ذلك كان تشريفاً لقدره، ورفعاً لذكره، وإكراماً لأمته التي بلغت حدّ النضج والكمال، فتحملت أعباء الرسالة وأمانة هذا الدين وكانت بحق خير أمة أخرجت في العالمين.

وربما يفهم البعض من قول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، أن لكل أمة من الأمم السابقة ديناً خاصاً بها أو اعتقاداً تتميز به على غيرها.

والحق: أن الإسلام عالمي منذ نشأته تسميةً ومضموناً، وهو الذي بُعث من أجله كل نبي، وأُرسل به كل رسول، وأنزل بياناً له كل كتاب.

وهكذا: لم يترك النبي ﷺ الدنيا، ولم يفارق هذه الحياة، وما لحق بالرفيق الأعلى... إلا بعد أن أدى رسالته وبلغها للناس على أكمل وجه وأتمه، وأبان لهم الحجة، وأوضح لهم المحجة، وتركهم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وبهذا تنتهي هذه اللمحات السنية من سيرة خير البرية ﷺ لكنها باقية في قلب كل مسلم؛ ليسترشد بها في سلوكه وأخلاقه وعباداته ومعاملاته، ويتنفع بها على أحسن حال وأكملها، ويهتدى بها إلى أقوم طريق وأعدله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَاءَ رَبُّكُمْ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ

أجمعين﴾ [النحل].

## فهرس الموضوعات

| رقم الصفحة | الموضوع   |
|------------|---|
| ١٢:٣       | المُقدِّمة  |
| ٢٠: ١٣     | خصائصُ سيرةِ النبي ﷺ وثمرَةُ دراستِها   |
| ٢٣: ٢٠     | دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ بِبِعْتَةِ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ ﷺ   |
| ٢٩: ٢٣     | أُمُّ إِسْمَاعِيلَ وَنَبْعُ رَمَزَمَ  |
| ٣٧: ٣٠     | خَبْرُ تَبَعِ وَإِسْلَامِهِ   |
| ٤٢: ٣٨     | مَوْلِدُهُ ﷺ  |
| ٤٤، ٤٣     | نَشَأَتُهُ ﷺ يَتِيمًا وَتَرْبِيَةُ اللَّهِ لَهُ   |
| ٤٦: ٤٤     | شُقُّ الصَّدْرِ وَالْحِكْمَةُ مِنْهُ  |
| ٤٧         | حِمَايَتُهُ ﷺ مِنَ الْبَاطِلِ وَنَهْيُهُ ﷺ لِمَنْ رَأَاهُ يَفْعَلُهُ  |
| ٤٩، ٤٨     | تَحْكِيمُهُ ﷺ فِي وَضْعِ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ وَشَهَادَةُ قَوْمِهِ لَهُ                                      |
| ٥٣: ٥٠     | كَيْفِيَّةُ زَوَاجِهِ ﷺ الْمُوَافَقَةَ لِإِصْطِفَاءِ اللَّهِ لَهُ كَمَا نَقَلَهَا الْخُلَفَاءُ عَنِ السَّلَفِ |
| ٦٣: ٥٣     | كَثْرَةُ الْإِزْهَاصَاتِ قَبْلَ بَعْثِهِ ﷺ  |
| ٨١: ٦٤     | حَدِيثُ بَدءِ الْوَحْيِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ  |
| ٨٤: ٨١     | لَمْ يُوحَ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَنَامًا   |
| ٩٢: ٨٥     | فَتْرَةُ الْوَحْيِ وَمَا قِيلَ فِيهَا   |
| ١٠٦: ٩٢    | فَقَهُ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَفَضْلُهُمْ  |
| ١٠٠: ٩٣    | ١ - خَدِيجَةُ أَوَّلُ مَنْ أَمَنَتْ بِاللَّهِ وَأَزْرَتْ رَسُولَهُ ﷺ  |
| ٩٦، ٩٥     | فَضْلُهَا وَرَجَاحَةُ عَقْلِهَا وَالْأَدِلَّةُ عَلَى ذَلِكَ   |



| رقم الصفحة | الموضوع  |
|------------|--|
| ٩٨ : ٩٦    | بِشَارَتِهَا بَيَّنَّتْ فِي الْجَنَّةِ وَالْحِكْمَةَ مِنْهُ                              |
| ١٠٠ : ٩٨   | حِفْظُهُ ﷺ لَوُدَّهَا وَعَهْدِهَا  |
| ١٠١، ١٠٠   | ٢- زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِي                          |
| ١٠٦ : ١٠١  | ٣- أَبُو بَكْرٍ أَوَّلَ السَّابِقِينَ وَأَنْفَعُهُمُ لِلدِّينِ                           |
| ١١٤ : ١٠٦  | السَّابِقُونَ الَّذِينَ امْتَحِنُوا بِالْفِتْنَةِ وَالْأَسْوَدُ بِهِمْ فِي ذَلِكَ        |
| ١٢٠ : ١١٤  | تَحْقِيقُ حَوْلَ فِتْنَةِ السَّابِقِينَ وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ                  |
| ١٢١، ١٢٠   | الدَّعْوَةُ مِنْ بَدْءِ الْبَعْثَةِ  |
| ١٢٤ : ١٢٢  | إِسْلَامُ أَبِي ذَرٍّ وَصَدْعُهُ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ                                     |
| ١٤٠ : ١٢٤  | الدُّرُوسُ وَالْعِبْرُ فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ                           |
| ١٢٧ : ١٢٥  | ١- فِقْهُ الصَّحَابَةِ فِي التَّخْفِي وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي ذَلِكَ عِنْدَ الْفِتَنِ |
| ١٣٠ : ١٢٧  | ٢- الْحَيْطَةُ وَالْحَذَرُ مَعَ اتِّسَاعِ نِطَاقِ الدَّعْوَةِ                            |
| ١٣٥ : ١٣٠  | ٣- عَامِلِيَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ مُبْتَدَأِ الْبَعْثَةِ                                  |
| ١٤٠ : ١٣٥  | إِذْنٌ: لَمْ يَسْتَخْفِ ﷺ بِدَعْوَتِهِ   |
| ١٤٨ : ١٤٠  | هَجْرَةُ الصَّحَابَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ   |
| ١٥٢ : ١٤٩  | إِسْلَامُ النَّجَاشِيِّ وَمَنْ شَابَهُ فِي صَنِيعِهِ                                     |
| ١٦٠ : ١٥٢  | إِسْلَامُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ                                  |
| ١٦٥ : ١٦١  | خُرُوجُهُ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ بَحْثًا عَنِ مَكَانٍ آمِنٍ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ             |
| ١٦٩ : ١٦٦  | الِاتِّصَالُ بِالْأَنْصَارِ وَاسْتِجَابَتُهُمْ   |
| ١٧٣ : ١٦٩  | مُبَايَعَةُ الْأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ  |

| رقم الصفحة | الموضوع  |
|------------|--|
| ١٨٣: ١٧٤   | الطُّرْدُ مِنَ الْوَطَنِ كَفَضْلِ الرُّوحِ عَنِ الْبَدَنِ  |
| ١٨٣        | طَلَايِعُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَوَائِلُهُمْ  |
| ١٩٠: ١٨٤   | مُحَاوَلَاتٌ فَاشِلَةٌ لِإِعَاقَةِ الْهَجْرَةِ   |
| ١٨٦: ١٨٤   | بَيْتُ أَبِي سَلَمَةَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ  |
| ١٨٧، ١٨٦   | أَوَّلُ مَنْ فَقَّهَ الْأَنْصَارَ: مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ  |
| ١٩٠: ١٨٨   | تَنَاصُحُ الْمُهَاجِرِينَ وَتَعَاوُضُهُمْ فِي هِجْرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ                                       |
| ٢٠٩: ١٩٠   | هِجْرَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ   |
| ١٩٤: ١٩٢   | يَوْمُ الْهَجْرَةِ   |
| ٢٠٣: ١٩٥   | لَيْلَةُ الْهَجْرَةِ   |
| ٢٠٥، ٢٠٤   | اسْتِقْبَالُ الْأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ   |
| ٢٠٩: ٢٠٥   | بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَصِفَتِهِ   |
| ٢١٥: ٢٠٩   | تَتَابُعُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمُصْطَفَى ﷺ فِي مَدِينَتِهِ   |
| ٢١٥: ٢١٠   | صُهَيْبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقِصَّةُ هِجْرَتِهِ  |
| ٢٢١: ٢١٥   | الْعِفَّةُ وَالْإِيثَارُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ   |
| ٢٢٧: ٢٢١   | الْإِسْلَامُ وَتَرْبِيَّتُهُ لِأَمَثَلٍ مُجْتَمِعٍ وَإِقَامَتُهُ لِأَكْمَلِ دَوْلَةٍ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْغَيْرِ |
| ٢٦٤: ٢٢٨   | لَمَحَاتٌ مِنْ بَعْضِ الْغَزَوَاتِ   |
| ٢٣٨: ٢٢٨   | تَمْحِيصٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرِ وَأُحُدٍ  |
| ٢٤٣: ٢٣٨   | خَطَرُ النِّفَاقِ وَالْيَهُودِ عَلَى الدَّوْلَةِ النَّاشِئَةِ  |
| ٢٥٥: ٢٤٣   | شَهْدَاءُ بَثْرٍ مَعُونَةٌ وَأَصْحَابُ الرَّجِيعِ  |

| رقم الصفحة | الموضوع   |
|------------|---|
| ٢٤٧: ٢٤٤   | فَوْزُ الْقُرَّاءِ بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ           |
| ٢٥٥: ٢٤٨   | عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِفَاقُهُ وَالْاِقْتِدَاءُ بِصَنِيعِهِمْ |
| ٢٦٤: ٢٥٥   | غَزْوَةُ الْحَنْدُقِ وَبِدَايَةُ الْاِسْتِقْرَارِ               |
| ٣٠٣: ٢٦٤   | الدَّعْوَةُ الْعَمَلِيَّةُ وَصُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ            |
| ٢٧٥: ٢٦٩   | هَجْرَةُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَرَفِيقِيهِ وَإِسْلَامُهُمْ     |
| ٢٨٢: ٢٧٦   | غَزْوَةُ مُؤْتَةَ   |
| ٢٨٣، ٢٨٢   | غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ                                     |
| ٢٨٧: ٢٨٤   | الْفَتْحُ الْأَعْظَمُ وَسَبَبُهُ                                |
| ٢٩٣: ٢٨٧   | غَزْوَةُ تَبُوكَ وَالْكِتَابُ الثَّانِي إِلَى هِرَقْلَ          |
| ٢٩٥: ٢٩٣   | حَجَّةُ الْبَلَاغِ وَالْوَدَاعِ                                 |
| ٢٩٨: ٢٩٦   | إِعْدَادُهُ ﷺ خُلَفَاءَهُ لِتَحْمُلِ الْأَمَانَةِ               |
| ٣٠٣: ٢٩٩   | حُوقُهُ ﷺ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى                               |
| ٣٠٧: ٣٠٤   | فهرس الموضوعات  |

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الْحَالِيَاتُ  
وَعَلَى اللَّهِ وَاسْتَسْلِمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الْمُرْسَلِ رَحْمَةً لِجَمِيعِ الْخَلُوقَاتِ.